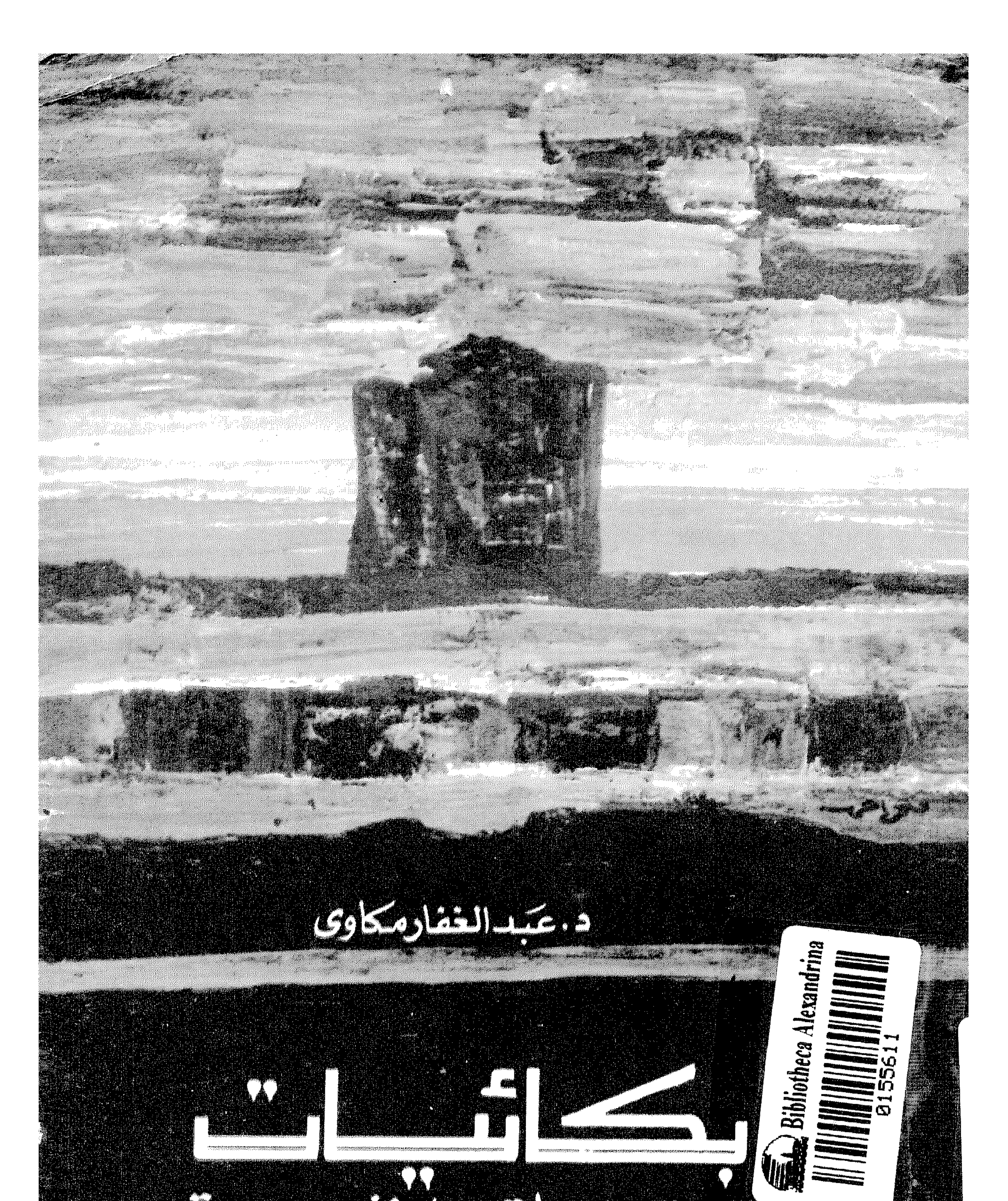

د. عبد الغفار مكاوى
بكائيات
ست دمعات على نفس عربية
Bibliotheca Alexandrina
0155611



بكائيات

ست دمعات على نفس عربية



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٨٧

الاخراج الفنى
ألبير جورجى

تصميم الغلاف
فتحى أحمد

بكائيات



اهــــداء

الى ابنتي نــوران :

بثت الشمس بقلب الظلمات

وبدلت دمــــوعي ضــحكات



الدمعة الأولى

دموع على حائط مبكاى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الدمعة الأولى :

دموع على حائط مبكاى

قلت للصوت الصديق الذى دعاني للمشاركة فى العيد الفضى « الآداب » انت توقظنى من نومة أهل الكهف · منذ سنين وأنا غارق فى بحر السواد والاكتئاب ، منذ سنين وأنا جثة تأكل وتمشى وتنام وتضحك أحيانا وتثرثر بالحكمة ، تنكر الصوت الخارج منها وتضيع فى المتاهات بحثا عنهويتها · طمأننى وألح على قلت سأكتب بكائية ، وسأرثى نفسى وشبابى ! سأفعل ما فعل الشاعر العربى الذى نعى نفسه ــ ذكرت اسمه ونسيته الآن ! ــ قال افعل · قلت أليست قلة ذوق أن أنصب مأتما وسط أفراح العرس ؟ هل كتب علينا أن نبكى طوال العمر ؟ ثم فكرت أن اقيم حائط مبكى عربيا أدعو اليه الأحباب · فكرت أن أهتف بالقراء : دعونا نبكى فنحن أولى من أعدائنا بالبكاء ·· فدموعنا على الأقل ليست دموع التماسيح ، وذنوبنا فى حق أنفسنا أثقل من ذنوبهم عبر التاريخ · لكننى وجدت من الغرور أن أدعو غيرى للبكاء ، ولن يغفر لى أحد أن أسقط ذنوبى عليه ، أو أعمم اتهام الذات ــ وهو فى حد نفسه لا يخلو من الزهو والتبرير ــ على عشرات من جيلى أنا أول من يحبهم ويقدرهم ولا يقارن نفسه حتى بالتراب الذى ندوسه أقدامهم · فلأذرف وحدى دمع العين على حائط مبكاى · وليغفر ثرثرتى القراء · وليتسع الصدر لاعتراف جاء بعد خمسة وعشرين عاما ، هى فى النهاية عمرى المسفوح فى دم القلم · وهل كانت « الآداب » طوال هذه السنين الا حائط مبكانا الذى تلقى بالحنان دموعنا ، وفتح صدره لصراخنا واحتجاجنا وتجاربنا الساذجة التى ضاقت بها بلادنا ؟ هل كانت الا المهجر والملجأ للثائر والمتعب والباكى ؟

فى دمك « صوات » الندابة القديمة ، شجن المغنى الأعمى على القيثار. أحزان ايزيس الثكلى وأحفادها الذين تترنم بهم الرباب والمواويل · أعو

القبر والتابوت الفرعوني الذى لم تستطع الفكاك منه (من عجب انه يتسع للنكات والضحكات ، ان السياح يقصدون طيبة وقاعة المومياءات فى المتحف المصرى ويغفلون عن القبور والتوابيت والمومياءات الحية !) أهو سجن العمر الموروث ؟ وهل كانت كل كتاباتك لطما فى مأتمك الأزلى ــ نصبته « معات » الربة لكن تسيته ؟ ها أنت ذا بعد آلاف الصفحات وآلاف الليالى الوحيدة تدرك فجأة أنك لم تخرج من التابوت ولم تستطع أن تزحزحه لأن الأجداد صنعوه من ضلوعك · تفتح عينيك فجأة ــ بعد فوات العمر ــ فترى الكتب تحيط بك ، سورا شائكا غرسته بنفسك فحرم عليك بستان الحياة · صور لك الوهم ان الحياة كتاب وان الكتاب حياة ، لم تدر الا وقد أصبحت مجلدا يمشى على قدمين . ينطح صخر الواقع بأحلام ليست هى أحلامه · عند أول ريح تطايرت الأوراق · عند أول صدمة غرقت كما غرق تراث أجدادك فى مياه دجلة والبحر الأبيض · فتشت عن طوق النجاة · آه لو كنت كتبته ! كتابك أنت لا ما نقلته عن الآخرين · لربما كان أغاثك أو خف اليك كقارب نجدة · يا نوح العجوز ! لا عاصم اليوم من الطوفان · يا نوح ، لم لم تصنع سفينتك ؟ دموعك الآن هى الطوفان · فالجأ قبل فوات الوقت الى حائط مبكاك · لكن حاول أن تبكى بدموعك أنت · أن تتعرى فى الريح أمام المكتبة المحترقة · أقم الحائط وابك عليه ·· فلعلك يوما تتطهر ··

***

« الناس جميعا فرحون ، كأنهم يشاركون فى وليمة ، كأنهم ذاهبون الى مهرجان الربيع · أنا وحدى أرقد فى سكون ، أشبه بطفل صغير ، لم يبتسم مرة فى حياته · أنا وحدى متعب ، حزين القلب ، مضيع كأنى بلا هدف ، أنا وحدى غير الآخرين » ــ سطور من كتاب ترجمته منــذ سنين (١) · أهناك شىء يصدق عليك مثلها ؟ الاكتئاب كان قدرك · أمك المســكينة كانت تسميك مالك الحزين · كنت لا تبــكى وتنشج الا فى الافراح · أيها السم الأسود ، من الذى خلطك بدمى ؟ أهذا هو الذى قربك من الشعر ؟ عرفت مبكرا أنك أفلست فيه · أهذا هو الذى جعله يلازمك كظلك فأخذت تنقله الى لغتك ؟ سودت عنه مئات الصفحات · تجولت فى جزره البعيدة والقريبة (فى العام الماضى منحوك الجائزة ــ فضلا منهم وكرما ــ فأغرقتك فى مزيد من الاكتئاب) · يا أوديسيوس الخائب · سدى كانت مغامراتك · الحوريات كذبت عليك · الرحلة كانت مضيعة للعمر · وعزفت على قيثار لم تصنع أوتاره . لا لم يصنع لك · هل تعجب بعد وصولك ايتاكا أن تتنكر « بنيلوبة » لك ؟ أن تهتف بك : « لا لست الزوج ! والثوب الواعد لم يغزل لك · لم أنفق فيه العمر لكى أنتظرك » ·

ها هي ذى تطردك الآن • وعلى مرأى من كل الخطاب الجشعين وأهلك ومربيتك • هل كان الأولى بك أن تبقى فى زى الشحاذ ؟ طهر نفسك واغسل كفيك • هل يتسع العمر لرحلتك الأخرى ، رحلتك الحقة ؟! (موضوع مسرحيه بدأتها ولم تتميا • ما أكثر ما بدأت ! نرى لماذا لم تستمع لصديق عمرك (٢) الذى وجهك لسيف وأبى زيد وعنترة ؟) لم غربت وما شرقت ؟ لم تبعد دوما عن نفسك وعلى من تلقى الذنب ؟ الطفولة كانت قاسية • الزمن اشتد عليك • طوفت بكل الآفاق وها أنت تعود : الابن الضال . يهرع نحو أبيه ليغرق كفيه بدمع التوبة ، لكن الأب مشلول . فقد الذاكرة ونسى الابن • وهو الآن تراب يرقد فى حضن تراب ــ والابن التائب يصرخ : لم تتركنى ؟ (عنوان رواية تدور فى عقلك منذ سنين • لم لم تبدأها بعد ؟) أما كان الأولى من رحلة الشعر (ضيعت فى كتاب واحد عنه ست سنين ، حبست شبابك فى سجن لا تدخله الا أوزان الشعر وكلماته ، هل كان الأمر يساوى هذا الجهد ؟ أم أنك تهوى دوما أن تلعب دور ضحية ، حتى لو كان الجلادون هم الشعراء ؟! هل هى مأساتك وحدك ؟ أم سحرت « كيركه » بحارة جيلك فى سفن الفن كما سحرتك ؟) أما كان الأولى من هذه الرحلات أن تعلم أميا واحدا ؟ وهل تنسى أن أمك ماتت وهى أمية ــ تذكر تعبك أياما وأسابيع لتحفظها انا أعطيناك الكوثر ! وأين تهرب من كلمة ذلك الذى زار بلادك ؟ (٣) سارع اليه كهنة الثقافة ــ وكم انبهرت متلهم بكل جديد ــ فقال ما معناه : لو كنت مكان المثقف عندكم لأخذت طباشيرا ولوحا أسود وهرعت الى الريف لتعليم الأميين • وها هى ذى الهاوية تتسع بين الكاتب والقارىء ولا تضيق • ونحن نواصل كتابة الرسائل المفتوحة الى بعضنا • لا نكف عن الصراخ من ذنبنا وخجلنا من عار الأمية • مع ذلك لا نفعل شيئا • (أين اتحادات الأدباء لتوجه قوافلنا نحو الريف ؟) هل نعزى أنفسنا بأجيال أخرى ــ قد تأتى أو لا تأتى ــ تتذوق عندئذ أشعارنا المترفة وعباراتنا الرنانة ونظرياتنا المتعالية وقصصنا ومسرحياتنا التى نفرغ فيها مشاعرنا المذنبة ؟ عزاء يستحق البكاء ! فابك الآن على حائط مبكاك • • • •

***

وهبطت الى المتاهة كما هبط ثيسيوس (يا للأسماء الصعبة •• لو كنت أدرى بتراثك لوجدت أسماء أرحم !) متاهة الحكمة التى ضاعفت حماقتك • فى كل ركن عجوز أشيب ثرثار • وخيوط المذاهب كثيرة ومعقدة • تخرج من نسيج عنكبوت لتقع فى نسيج عنكبوت • من طاليس الى هيدجر وأنت تقرأ وتتابع • تجعد الجبين واكفهرت الملامح • والشعر

شاب فوق السالفين · وأنت تتحمس لكل رأى وتتأثر بكل صوت · تفرق نفسك على خبزهم الجاف لكى يبلعه الناس · يقولون لك : أنت تكتب الفلسفة بقلب شاعر · هل يعزونك أم يجرونك من أنفك كما جر فاوست تلاميذه عشر سنين : سموه الأستاذ وسموه الدكتور ، فاكتشف انه مايزال هو الأحمق المسكين ، وانا عن معرفة أى شئ عاجزون ! وها هم يسمونك الأستاذ ، ينادونك حضرتك وسيادتك · (لكن من يقف بجوارك ·· من يشعر بك ؟!) · هناك تجلس كصنم بوذا المسكين · بين جدرانك الأربعة أبكم أخرس كالبوم · ويرونك ــ حين تناقش أطروحة ــ فى مسوح الحكماء المملين · ويثرثر صوت يخرج منك فتنكره حين تفاجأ به · وتود لو أنك تخرج من جلدك ، تدخل جسدا آخر ــ أبهى وأصح ــ أو أن تجرى عريانا كالمذعور · لكن الدور يمثل فوق المسرح · سيظل يمثل حتى تنفجر وتخرج منه الى قبرك أو للنور · (أيتها العين الواسعة السوداء · تابعت صعودى نحو الواحد وأنا أقرأ أفلوطين · هل أحسست بأنى أتمنى أن ألقى السلم كى أصل اليك ؟) وتكتشف أنك تورطت · أنت ونحن وهم متورطون · تورطت فى جسد فرض عليك ، فى عصر وبيئة لم تخترهما· يقولون وتصدقهم أحيانا : مصيرك بيديك ، فاقبض عليه ! قارب حياتك من صنعك ، فوجه دفته بنفسك · فى هذا الزمن وجدت وهذا الركن من العالم · فواجه الموقف وتحد المشكلة ! وتدق كلمات التحدى والكفاح وسائر الطبول الضخمة · وحين يجن الليل تقول : أنا مع ذلك فى ورطة! وتناجى نفسك : لو خيرت لكنت اخترت ، أن أصبح شجرة ، أو أتقمص قطة ! (فالشجرة تلقى ظلا ، للتائه والحيران . تعطى خشبا للبردان ، فاكهة أو خبزا أخضر للجوعان ــ والقطة متوحدة ، متكبرة تعشق سر الانجم والكتمان) وتكتشف أنك ضيعت الخيط · و «أريادنة» لم تمسك بطرفه ولم تنتظرك يوما على باب المتاهة ·· (أصبحت الآن أما لثلاثة أطفال · هل تتذكر جوع القلب وذل العين ؟) ·

وتواصل ثرثرتك ودموعك تجرى فى صمت · والسنة الدراسية على الأبواب وعينك داخل المتاهة تبحث عن حائط مبكاك ··

***

وحيدا تذهب · وحيدا تجىء · (فى الليل ، على فراشى ، طلبت من تحبه نفسى · طلبته فما وجدته (٤)) · آلاف الليالى ، مكورا كالجنين فى بطن أمك ، تمد آكف الجوع اليه · تتعرى ، من يغطيك · يسعل صدرك يتفجر بالربو ، تتشنج معدتك وأمعاؤك ــ بالمرض القومى الأزلى ! ــ من ينعطف عليك ، من يطعمك ويسقيك · يا جوعا أبديا للأنثى

والأم ! ومنـذ تخطيت الأربعين وأنت تخاف ـ فى الظـلام تتربص عين اللص وعـين الغيب : والسـماء تمطر الكوارث كل يوم · وصـفحة الحوادث قضاء ينزل على الرأس مع كل افطار · ضيعت الحبيبة فضاعت الزوجة والأبناء والأحفاد ، ضاع الآباء وضاع الأجـداد ، ضـاع الماضى والحاضر والمستقبل · صرت ترابا ، عدما ، هاوية معتمة فى لحظة · لحظة رحت لبيتها فانعقد لسانك ، شل القلب وأطبق فوق الشفتين المـوت · (كل سنة أو سنتين تراها صدفة ، فى منعطف طريق أو عنـد عبـور شـارع ـ ان سـاء حظك لم تر الا ظهـرها ، فاتتك عيـناها السوداوان النافذتان كحد السيف ، اللامعتان كسحر الموت ـ فى يدها طفلاها · كان من الممكن أن يكونا منك · وحين اكتست السواد تحـركت · لكن النجم المنحوس هناك · تتحسر : آه لو كانت ، لو كنت وكنت وكنت ·· وتمضى مسرعا الى مسكنك · تضـع المفتـاح فى الباب · تتحاشى عيـون المتطفلين · تطالعك سدود الكتب كحيوانات منقرضة · تتفرس فيـك عيون الأموات ـ الأحياء ، طالت رقدتهم فى كهف الورق المصفر ! تدفن رأسك بين يديك · فى بحر الحزن الاسود تغرق سفن العمر · يوم سلمت عليها ـ للمرة الأولى أيها الريفى ! ـ صرت شعاعا ، عصفورا وفراشة · وحفرت التاريخ على الحائط ، ومعـه كلمة نيتشه : حب القـدر ـ مازال الحفر هناك · يشبه شاهد قبر الغرباء ، فى أرض الغربة : «أيها العابر ، قل لمواطنينا فى اسبرطة : هنا نرقد مقتولين ، ومازلنا فى الموت لوصاياها أوفيـاء » (٥) · ما أشبهك بنيتشه · كم أحببته : ثورته ، وجنـونه ، خيبته والتسليم بقـدر محبوب ملعون · هـل نملك الا التسليم ؟ (فى أواخر حياته ، بعد أن أطبق عليه ليل الجنون ، لم يعد يعرف أنه نيتشه· تنظر أخته اليه فلاتملك أن تحبس دموعها · ينظر اليهـا ويقـول : لم تبكين ؟ ألسنا فى النهاية سعداء ؟!) واللحظة كانت مسؤولة · لم تتركها تمضى وتفر ؟ لحظة عجز عن تصميم فى وجـه الحب ـ الموت · عبرت لن ترجع أبدا · لم تمسكها من خصـلات الشـعر الذهبى · كانت تدعوك وتبتسم لك : لم أحجمت ؟

وتجىء الموجة بعد الموجة فى طوفان الجرى وراء الخبز المر مغموسا فى آوعية الملل ، اليأس ، القبح ، الذل · واللحظة لاترجع أبدا · أهى فكرة ثابتة تنام على فراشها المريح ؟ عزاء وتبرير ؟ هل تخدع نفسك ؟ تضع الدرع البراق على جثة فارس ؟ كى تستمتع بالحرية خلف السور الشائك ؟ تتلذذ ببكائك فى كهفك ؟ يا للأوهام السهلة ! سهل أن تتهم النفس ، تعذبها ، فالتعذيب شريعة هذا العصر · لكن الفـاجعة أمر ·

والمحنة أكبر من مشكلة الحب · فلكم أحببت وجربت · حاولت أن نكون البرجوازى الصغير — من يملك أن يخرج من جلده أو يتخلص من ظله ؟— تقرأ الجريدة وتتابع أخبار النجوم والأغانى الجديدة ، تحرص على مسلسل الاذاعة والتلفزيون ، تتحسر على أيام الخير وتقول مع ذلك : غدا يتحسن كل شيء — لكنك لاتدرى كيف ؟ — ومثله وضعت الخاتم فى يدها (وضعته مرتين فى يدين ، أبرأت ذمتك ككل مواطن صالح يؤمن بالله والوطن) وعندما أردت أن نضع يدها فى يدك خلصتها منك · كانت مع الآخر ترقص وتأكل من الشجرة المحرمة — على آدم المسكين وحده ! — كنت مملا والكتب مملة · وجه الحكمة لايلمع مثل وجوه العملات الصعبة · والأخرى كانت أذكى وأمر · داعبت الطفل الراقد فيك وسخرت منه · أخذت منه الذهب المشرى بعرق العمر · يامن تتلوى فى محراب الفكر · أحرق كتبك قبل فوات العمر · اربط ربطة عنقك واسمع آخر أغنية فى مايطلبه المستمعون · واذكر حين يجن الليل ، أنك وحدك · وحدك كاله الصمت كوحش مجروح · وحدك تتألم وتموت ، حتى لو كانت فى أحضانك ملكة تدمر ·

واحمل حائط مبكاك الى القبر ·

***

اللحظة ضاعت (هل يتسع العمر لعودتها ؟ هل يرجع دولاب الزمن الدوار فتظهر لك ، بتسم كنجم صاف خلف سحاب الدمع ؟) عبثا نجمع عنها أكوام المعلومات ، تشغل نفسك بالزمن القاسى · ها أنت تحاضر عنها منذ سنين · تهتف أحيانا : مادام القلب يدق فلا يأس ! فاللحظه فاكهة تنضج فى موسمها · حين يحين أوان النضج · اللحظة — سر الوهج الخالد تحت تراب الفانين — تحتاج لروحة الشمس وأجنحة الريح وأنفاس المطر · سنينا بعد سنين · لاتيأس أبدا ، حين تزيد المحنة يأتى المنقذ (عنوان كتاب عن أفلاطون ! هذا المنقذ سيغادر كهفه · يترك كهف الأشباح ويصعد للنور الحق · فمتى يخرج منه ؟ أم خرج ولم يرجع بعد ؟) تهتف بقلوب بكر : عيشوا اللحظة ! لحظة الحسم والقرار والاختيار · لحظة التحدى والفعل الحر · بيا يواجه الفرد نصيبه ، والشعب قدره · من يخذليا ، يهرب منها ، من يحجم عنها يبقى مدحورا أبد الدهر · هذا قانون الزمن وسر التاريخ · من يتحدى الموت يعيش ! من يحيا الموت يكون ! كلمات ضخمة · (أحيانا تتجسد ، تتحقق ، تنفذ فردا أو شعبا يغرق · احمد ربك أنك عشت اللحظة · لحظة عبر أخوك الجندى الى سيناء · ماأعظمه وهو «يكرر» صيحة «بدر» · ماأكرمه وهو يلف حزام البارود على جسد

أضناه الفقر ، كى ينسف ــ باللحم الدافىء ــ درع حديد متكبر · هل تتكرر هذه اللحظة فى سيناء وغزة والجولان ؟ هل تنقذنا الا لحظات الحسم الحر ؟ أم نشغل عنها ، نهرب منها ، نستثمرها فى شيكات وشعارات ، فى المستورد والبوتيكات ، فى أفلام أو حلقات ، فى الجشع الذاهل عن لحم الجندى المسكين ؟) · أخشى ما أخشاه الآن : أن تأتى اللحظة وأنا أحتضر وألفظ آخر أنفاسى · أن تتقدم منى كالعذراء وتهمس : هل تذكرنى ؟ ــ وأذكر عندئذ اننى نسيت . انى لم أكن أنا نفسى · يقول قائل يعزيك : ومن الذى حقق نفسه ؟ أين الذى رضى عنها ؟ حتى الذى أنجز الأعمال الكبرى ، فى الفن أو الحياة ، هل رضى عن نفسه ؟ وربما قلت لنفسك : حقا لم تتم عملا كبيرا . ولكن آلاف الصفحات التى كتبتها ــ يا للذنوب الثقيلة ! ــ لاتخلو من أنفاسك· ترجمت كثيرا وأنكرت نفسك· أليس هذا عطاء ؟ ألم تعش ونجرب كل كلمة وسطر ؟ وا أسفاه · الطيبة

جنت عليك · (فى أيامنا يسميها الكذابون ضعفا ، كما يعدون الرفه عجزا والوداعة والأدب جبنا) · البراءة والنقاء ظلماك (وكل ما فعلت أن حاولت البقاء نقيا أبيض مهما خضت المستنقعات) · فنيت فيما كتبت ونقلت (صادقا تقول : ما أقله وأهون شأنه ! كم كانت هناك أعمال أخرى أجدر وأهم !) حتى أوشكت أن تتقمص أرواح الذين شغلت بهم · أسروك حتى كدت تصبح صدى لا صوتا ، نسخة لا أصلا · أكانت «شهامة» وأداء واجب ، فريضة لغة نادرة شاءت المصادفة أن تطرق باب حضارتها

وأدبها · ولم لم تستطع الجمع بين هذا « الواجب » وواجب آخر أكبر منه ؟ أهو ضعف الحيلة ، قلة الهمة . غباء الطبع . ذل الخبز اليومى . لذة الانبهار بالآخر والغير ، غرور التلويح به فى وجوه الآخرين ؟ ربى ، ماذا كان الأمر ؟ المسألة ــ كما قيل بحق ــ نسبية ، والغرور لم يبلغ بك أن تصدق الثناء (فى النهاية : ماذا تقوى الكلمة أن تفعل فى مجتمع متخلف ؟) والشوكة ما زالت تدميك : لم لم تحقق نفسك أو بعض نفسك ؟ لم لم تستجب للحظة الخلق ؟ لم لم تصبر وتثابر ، وفى أجيال الرواد وأجيال معاصريك وجوه مضيئة تحبها وتتعلم منها ؟ بالأمس فتحت كراساتك القديمة ــ كدت تنساها فى غبار الأدراج ! ــ طالعت خواطرك وقلبت المشروعات ــ (عشرات القصص بدأتها ولم تتمها ، مسرحيات وروايات طويلة وقصيرة) ــ أين كنت ؟ لم جرفك التيار ؟ كم نحن أغنياء بالأفكار فقراء فى الأعمال (٦) ! يهزون رؤوسهم ويقولون : مترجم حساس وباحث جاد · وتطعن فى القلب · وتدور دوامة التدريس · تطحنك الطاحونة (ترى كيف يواجه المحنة من هم أعظم منك وأعلم : أم انك تهول كعادتك وتصارع شبحا لا وجود له الا فى رأسك ؟!) · وفى النهاية لم

تقول هذا الكلام ؟ لمن ؟ ألم يكن الأولى أن تصوره فى مشاهد ومواقف وشخصيات ؟ أهو العشق الموروث : تعذيب الذات ؟ ألا يجدر بك أن تبدأ السير على طريق الثقة والاطمئنان ؟ أتبذل وعدا ؟ أتحاول أن تنزع خيطا من عقدة صمتك ؟ من يكترث بدمعك ؟ من يهتم بحائط مبكاك ؟

قاس عليك الزمن . كان الزمن قاسيا . عشت الزمن الأسـود . الضوضاء حاصرتك . والازعاج طوقك وأطبق عليك . (ألهذا آويت لكهفك، وجعلت تراث الانسانية منفاك ؟) الجهد كان قليلا والحيلة ضعيفة . الشعارات تنطلق وتدوى . رياح الجديد والغريب تعصف . الانبهـار بالمرضات والعجائب يذهل النفس عن ذاتها (أنت أيضا شاركت فيه . هل تقبل توبتك الآن ؟) . البطولات الزائفة والصيحات الكاذبة وتعليمات كهنة الايديولوجيات « ينبغى ويجب ولابد » سحقت براعم المواهب المتفتحه وشنقت أوراقها وأرعبت عصارتها الحيـة وسلطت عليها سموم الادانة (بعضها سكت . بعضها اتجه للمسلسل والتلذذ بطعم الدولار ، بعضها لاذ من جحيم الضوضاء الى قاعات الدرس ، أقلها نجح وصمد وأبدع أعمالا لا يبدعها الا الصبر) .

عشت الزمن الأسود . (عندما يظهر الطاغية الكبير يصبح الجميع طغاة صغارا ، من الحاكم الى الكناس وجندى الشرطة) (٧) لم تعذب ولم تعلق من قدميك ولم تركل ولم تلطم على وجهك ، ولكن بعض الذين
واللطم كانوا أقرب الناس اليك . وكتبت
يان (حتى أوشك أن يكون هو اللحن الأساسى فى كل كتاباتك القليلة الشأن) . حتى الدراسات لم تخل منه ـ مع الحذر الواجب ! ـ

حاولت ـ على طـريقتك الهامسـة الحيية ـ أن تواجـه الازعاج والضوضاء . كتبت عن « صمت جوته » وعن السكينة التى قتلناها فقتلنا معها روح العلم والهدوء والنظر المتزن . كانت الحناجر أقوى من العقول (هناك الآن بصيص أمل فى أن كفة العقل والعلم بدأت ترجح . لكن هل اختفت من حياتنا الأصوات العالية والادعاءات المدوية والعنتريات الزائفة ؟ أليس من واجبنا نحن الكتاب ـ أن نقاومها ونخمد أنفاسها ؟ يتردد فى سمعى الآن صوت بح من الدعوة للعلم ، للفكر المنتج عملا ، للنظر الخالص من اضطراب العواطف وزعيق الشعارات وبريق المطلقات والتعميمات ـ وبالجملة من الكذب والضوضاء التى كادت تصبح علامة عربية(٨) مسجلة. والنتيجة ملايين اللاجئين والمشردين ، والأدعياء والمتبجحين ، والعاطلين والمتسولين . والخطر المحدق بملايين أخرى .

والخطر المحدق أن تصبح « كغثاء السيل » ـ أن تنقرض حضارتنا ، ونصبح تاريخا فات ، حقل تجارب للأمم الأقوى ، مثل خيام وعقالات وعيون جائعة وبقايا آبار النفط : هل عرب أنتم ، هل عرب أنتم ؟ هل عرب ...) (٩) . أعرف أننى أبالغ وأسرف فى المبالغة ، ان شبح الانقراض ـ الذى خيم على سنين طويلة وجسمته أمامى قراءات طويلة فى فلسفة التاريخ ـ ربما يكون قد بدأ يتهكم على . ولقد عشت ـ بحمد الله ـ حتى رأيت مواجهة الصمود فى أكتوبر ـ رمضان ، ولمست أبواب الحرية وهى توارب والأصوات تردد شعار العلم والايمان (ولابد من الصبر والعمل المشترك حتى يصبح سلوكا حيا لا مجرد شعار) . لماذا أستطرد ؟ ألأجد تبريرا ؟ ألأفضح ضعفى وعجزى أنا وجيلى ؟ الأقول للمواهب الشابة : ثابروا على الأعمال الكبيرة ، اصمدوا لمعرفة الذات ، فمعرفتها والصبر على اكتشافها والدفاع عنها فى وجه كل ما يشتتها هو العبقرية نفسها : ومن أنا حتى أقول هذا أو أدعو اليه) كيف يعطى الشىء فاقده ؟ هل يشاركنى أحد فى ألمى ، هل يحس به ؟أهو اعتراف ، ولمن ؟ ولماذا أعلنه فى هذا المكان ؟ ألم يكن من الممكن أن أستغل كرم هذه المجلة فى شىء أنفع ، وقد سبق لها أن أكرمتنى ورعت بعض بذورى الفقيرة التى أقلب الآن حصادها الفقير ؟ هل أعدتنى البطولة » التى يدعيها الكاتب حين يرتدى مسوح النبى والكاهن والمعلم والرائد ؟ أم أصابنى ـ دون أن أدرى ـ المرض الذى حذرت منه كثيرا حين تكلمت عن التواضع والاعتدال ، حين جعلت مثلى الأعلى ذلك « البطل » الصينى المسكين ، ذلك الحكيم الطاوى الذى حارب معركته وحقق انتصاره ، ثم استقل مركبا خفيا وتوارى عن الأنظار، أنظار الذين وعدوه بنصف المملكة هدية وانتظروا للاحتفال به ؟ رب لم هذا التناقض كله ؟ هل آن أن أخلص نفسى من هذه المناجاة وأعبر بالصورة لغة الفن ؟ أم يمنعنى أكل العيش وضعف الحيلة ؟ أنتم يا من ستظهرون بعد الطوفان الذى غرقنا فيه ، فكروا عندما تتحدثون عن ضعفنا ، فى الزمن الأسود الذى نجوتم منه ، واذا رأيتمونا نبكى ، فاذكرونا ، وسامحونا (١٠) .

« الضعيف هو الغبى الذى لا يعرف سر قوته ، وأنا لا أحب الأغبياء » (١١) .

هنا أجد نفسى أمام عمل يكشف لى اليوم ـ وبعد كتابته بحوالى عشرين سنة ـ عن معان وايحاءات جديدة ، شأنه شأن كل فن عظيم . أجد نفسى أمام فنان لم يكف عن التجربة والريادة والمغامرة ، هو بالنسبة لى (وربما لكثير من جيلى ، وان كنت لا أحب التعميم ولا التورط فى الكلام نيابة عن أحد) منارة شامخة ترسل ضوءها الهادىء لسفينة المصير العربية،

ولقوارب المواهب الصغيرة التي تتلمس طريقها في الظلمات · هذا رجل عرف نفسه ، سر قوته · كجبل المقطم بقى صامدا يطل — بحبه وحزنه الجليل — على المدينة العتيقة المضطربة بالفقراء والمقهورين والمتسولين والفتوات · كتب ما كتب ليمحق الفقر والقذارة والتسول والطغيان ، لتختفى الحشرات والذباب والنبابيت · وبشرنا بالسحر — العلم ليخلصنا من قهر الفتوات وكذبهم — الفتوات فى كل مكان ، فهل آن أن يختفوا ؟ — ومن الزيف والبطش والدجل — وهو فى حكايات الرباب كما هو فى دعاوى المتبجحين وبلاغيات الهتافين ، حتى كدنا نحن العرب أن تصبح ألفاظا تمشى وتأكل وتنام — هل نقرأ هذا العمل من جديد ؟ وهل نأمل أن نحاول قراءته بعيدا عن التشنج والخوف ؟ هل ندرك الآن أنه كان رؤية بصيرة لتصحيح الثورة ومحاولة للمزج بين العقل والوجدان أو بين العلم والايمان الذى أصبح الآن كلمة على كل لسان ؟ هل نطمع فى قدر كاف من الحرية الظاهرة والباطنة التى تسمح للأديب بتناول مادته من التاريخ الدينى أو الأسطورى فينصرف فيها كما يشاء له فنه وضميره (والفنان الحق ضمير العالم ، ميزان التاريخ) مثلما يحدث فى كل بلاد الله فلا يرتفع اصبع اتهام ولا يجمح قلم ولا يتطاول لسان ثرثار ؟

(١٩٧٧ — العيد الفضى لمجلة الآداب البيروتية)

اشـــارات

(١) هو كتاب تاو - تي - كنج (الطريق والفضيلة) للحكيم الصيني لاو - تسي ·

(٢) هو الكاتب الدارس فاروق خورشيد ·

(٣) هو الفيلسوف سارتر ·

(٤) نشيد الانشاد ، الاصحاح الثالث ·

(٥) ابيجرام منسوب الى سيمونيدز (من حوالى ٥٥٦ الى حوالى ٤٦٨ ق·م شاعر اغريقي من جزيرة كيوس) ·

(٦) عن قصيدة لهلدرلين (راجع كتابي عنه ، القاهرة ، دار المعارف . ١٩٧٤ ·

(٧) رأى للكواكبي في « طبائع الاستبداد » ·

(٨) هو صوت أستاذنا زكي نجيب محمود الذي يدعو للتفكير العلمي وحضارة العلم لا حضارة الألفاظ منذ حوالى نصف قرن وبخاصة في كتبه الأخيرة ·

(٩) عن قصيدة لمظفر نواب ·

(١٠) بتصرف عن قصيدة برشت المشهورة « الى الأجيال المقبلة » · وأود الاشـارة الى خواطر رائعة لفرانسوا باسيلي نبهني اليها صديقي الفنان ضياء الشرقاوي وقد نشرت في مجلة « الكاتب » القاهرية تحت عنوان « تساؤلات لخدش كبرياء الخداع » ، العـــدد ١٨١ ، ابريل ١٩٧٦ ، ص ٥٢ - ٦٤ ·

(١١) صفحة ٢٤٨ من أولاد حارتنا وهي العمل الفني الذي أثار هذه الدمعة عندما كنت أعمل في دراسة ترجمتها عنه ·· وقد نشرت الدراسة في مجلة « مرسلات الشرق » العدد ١٣ ، دون تاريخ (حوالى ١٩٧٥) ، عدد خاص أهداه الى ذكرى المستشرق أ· آبيل نخبة من تلاميذه وأصدقائه تحت عنوان « أمشاج اسلامية » وصدر ضمن منشورات مركز دراسة مشكلات العالم الاسلامي المعاصر : مدينة بروكسيل · واليـــك العنوان الأصلي للدراسة وبيانات النشر لترجع لها ان شئت ·

Mélanges d'islamologie — dediés à la mémoire de A. Abel par ses collèges, ses éléves et ses amies. Volume II. Bruxelles, p. 375- Gott, die Futuwwat und die Wissenschaft — âu Nagib Mahfuz : Aulad haratna par Fritz Steppat in : Correspondance d'Orient No. 13

(الله والفتوات والعلم - عن أولاد حارتنا لنجيب محفوظ لأستاذي الدكتور فرتس شتيبات - نشرت ترجمة المقال مع مقدمة له في مجلة الثقـافة ، نوفمبر ١٩٧٩ بعد أن اعتذرت مجلة الآداب عن عـدم نشرها) ·



الدمعة الثـانية

لمن أتحدث يا نفسي اليوم ؟ (١)



الدمعة الثانية :

لمن أتحدث يا نفسى اليوم ؟

ـ آه ...

ـ ما بك ؟

ـ ضاقت نفسى سئمت نفسى من نفسى .

ـ نفسك تسمعك ـ تكلم !

ـ ماذا يجدى أن أتكلم ؟

ماذا يبقى غير الصمت وماذا يبقى ،

غرقت سفن الغرقى قبل الغرق

والطفل تمنى لو لم يولد أبدا

والموت تسكع فى الطرق

ينتظر البائس صوت البوق ويرنو للأفق

والطير الواجم شلته نذر الشفق

نعق البوم وفى عينيه ارتسمت أطلال الكون وفى الحدق

وتنهد من لا زالت فيه القدرة أن يتنهد

والكل شقى .

ـ ألهذا جئت ؟ ألا تندم ؟

ـ جئت أبثك أحزانى ،

وأريك عيون الجرح وألتمس البلسم

أتلقف منك الحكمة ...

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ـ القردة منك ومنى أحكم ..
فأنا لا أنظر .. لا أسمع .. لاأتكلم ..
ـ سيعز على سكوتك عنى ..
من يسمعنى ان صدت نفسى
وتخلت عنى فى بؤسى ؟
هلا حببت الى الغرب وأوصيت بمركب شمس ؟
رب الأرباب سيسمع شكواى هناك و « آمون » لن يخذل همسى
و « جحوتى » يقضى فى أمرى
ويدون مظلمتى « خنسى »
ـ لكأنى أسمع صوت المتعب يلعن عيشه
من مملكة العرب يجىء ويحمل نقشه
يسترحم نفسه .
أن تمضى معه فى مركبه ، فتقاوم طيشه
وتعاتبه وتهدئه وترمم عشه
هل جئت تزين لى موتى ؟
ـ بل جئت لأشكو من يأسى .
ـ أحياتك تقبل فى النعمى ، فى الشدة ترفض والبأس ؟
ـ يا أختى مهلا لا تأسى ،
سأسوى مثواك بنفسى
وأقيم الظلة تحميك من البرد ومن قيظ الشمس
ـ عش يومك ، لا تقس عليا
ـ ان أقس فانك لن تقسى
ولمن أتكلم أو أشكو
ان صدت وابتعدت نفسى ؟
ولمن أتكلم ؟ واليوم يعاف اسمى
أكثر من رائحة الرخم بيوم القيظ المحموم ،
ولمن أتكلم ؟ والجار يدبر همى
وصديق الأمس نعاه البوم ؟
ولمن أتكلم ؟ قر الناس على السوء

وجحدوا الحسنى والاحسان ،
ولمن أتكلم ؟ والماضى ينسى من ذاكرة الناس
ولا عون من انسان ،
ولمن أتكلم ؟ فقد القلب رضاه
وظل الصاحب مفقود ،

ـ ما بالك تتمنى الموت ؟
هل يبدو اليوم أمامك
فتخاطبه ، أم طيف زارك فى النوم ؟

ـ يبدو الموت أمامى اليوم
كشفاء من مرض طال وعتق من ذل الأسر
يبدو الموت أمامى اليوم
كشوق سجين للبيت الآمن بعد سنين قضاها فى القهر

ـ دع شكواك وألق بخورك فوق الجمر
وأهنأ فى يومك ..

ـ أهنأ ؟ هل تخفى عنك هموم القلب ؟

ـ افتح قلبك .. هات السر !

ـ يا نفسى .. لست بأول من يرثى نفسه
ينعى غده ، حاضره ، أمسه
أرثيها مثل الشاعر « عبديغوث» (٢) أو «مالك» (٣) أو «فيون» (٤)
عل دموعى تسقط فى حقل فؤاد محزون
فتنبه بذرة أمل أو شوكة غضب مدفون .
أحمل مصباح « ديوجين » (٥) المسكين
أهتف فى وجه الناس لتسمع أذن من طين :
أنتم فى جنح الليل ـ متى تصحون ؟
دولاب الزمن يدور وأنتم تنقرضون وتندثرون
أشعلتم حرب بسوس أخرى
وهزمتم بعضكم البعض وأنتم مهزومون
واستسلمتم لطغاة الدنيا والدين .

ـ تسقط قطرات الدمع على قلبك
كالمطر على أرض مدينه

هجر الناس مساكنها
تروى زهرة أمل ..
زهرة أمل
أم شوكة ألم بعيونى ؟

ـ يروى دمعك شجرة أمل فى غابات شجونك وشجونى
وغدا ستمر خطى الخطاب ويقطف من ثمرات عيونك وعيونى
يوما ينجز وعد سنين
فالرجل أمين !

ـ أتظنين ؟

ـ كفكف دمعك يا عبد يغوث ...
يا مالك (٦) ممن ترجو الغوث وليس هناك مغيث ؟
الدمع على خد البطل مهان
ذابت أعمدة الملح وثار الموتى فى الأكفان
وقريبا تلد الأرحام الفرسان
والفارس لا يذرف الا دمع الفرح
على صدر الشجعان ..

ـ أقدام الخيل قد انكسرت ، .
ساخت فى رمل الأحزان
والفارس مقهور يبكى
فى ظل جدار الكتمان
لا الشعر يفيد ولا الدرع المكسور يذود الأشجان

ـ لا الشاعر أنت ولا الفارس ، قل لى من أنت ؟

ـ سؤال يحتاج الرد عليه لألف سؤال !
لغز يفترس العمر الضائع بين القدرة والآمال ..

ـ أرنى وجهك ، مرآتك ..

ـ مرآتى ؟ لا تبصر مثلى .
هل تكشف ما لم تكشف لى ؟

ـ فى كل صباح تنظر وجهك فى المرآه
تكرهه ، تلعن صحبته ، تهرب من رؤياه
تسمع شخصا آخر وتراه

تتجول فى طرقات النفس وتعجب مما تلقاه :
أعراس جذلى ومآتم ، موكب غابات وبساتين
جنات نعيم وجحيم ، رقص ملائكة وشياطين
تدخل من أبواب الرؤيا وتعانق
محبوبا هجرك منذ سنين
لكن آه من وحدتك الأزلية وسط الموكب يا مسكين !

ـ وحدتى الأزلية ·· جرحى
ألديك دواء يا نفسى ؟
قولى وأشيرى بالنصح

ـ ما جدوى الصمت أو البوح ؟
فدواؤك داؤك لو تدرى
والبلسم يكمن فى الجرح ·
تمشى وحدك
تبكى وحدك
وحدتك تنادمها وحدك ،
حين يجىء الموت ويلجم خيلك
من منهم يسبل عينيك ومن يستر عريك ؟
من يلقى حفنة رمل وتراب فوقك ؟
تتسلق جبل الوحدة وحدك ··
آه كم فى الدنيا من أشياء عجيبه ·
لكن أعجبها الانسان (٧)
والأعجب أن يتخلى الانسان عن الانسان ··

ـ أنا لا أتخلى ··· بل أستغنى كالأشجار
تحيا فى الغابة ، لم تسأل عن رغبتها
لم يطلب منها أحد أن تختار
تنمو ، تزدهر ، تشيخ وتذبل أو تنهار
لكن تحمى وحدتها باستمرار
وتصر عليها كالنساك بلا اصرار ·
ماذا تحتاج الشجرة ؟
تتنفس من أنفاس الريح تقبلها الأمطار ،
تطعمها الأرض وزاد الأرض غنى بالأسرار ،

لكن الشجر ضنين بالأسرار
لا يفشيها الا للحطاب أو النار !
ماذا أحتاج اليه ؟ ماذا يحتاج الانسان ؟
الجرعة تروى عطشه ،
واللقمة تستر عيشه ،
وامرأة تدفىء فرشه ،
والنور ليطرد عنه الوحشة ،
والكلمة تحرس من ريح الصدفة عشه
حين يغيب وتنطفىء الرعشه
ويشيع ملك الأحزان المرة نعشه
يحتو فوق القبر ليحفر نقشه :
« منكسرا عاش ، منكسرا مات ،
فى الظل اليائس شيد عرشه
سار من الوحشة للوحشة ٠٠ »
ألمح فى عينيك الضحكة ٠٠
ـ ما زلت صبيا بين ذراعى أمك
لم تكبر أبدا
فمتى تعرف موضع قدميك
وتطرح عكازا تستند عليه أو يستند عليك ؟
ومتى تقنع أو تغتبط بشىء ؟
تكره نفسك
فتفوح روائح منك
كالماء الآسن فى مستنقع
تتناثر فقاعات الملل السأم الضيق الأبدى المفزع
ـ يا نفسى ٠٠ لا تشتطى فى اللوم المقذع ٠
ان كان الذنب شنيعا ، ذنب العالم فى حقى أشنع
والحمل ثقيل مفجع ٠٠
ـ ماذا لو جربت :
أن ترسل طائر عينك فى أغوار النفس
وفوق صدور الموجودات
ليرفرف بالحب عليها ٠ يغرق فى النبع المترع

بالحكمة والمعرفة ويرجع
ليشيد العش الدافىء بالحب ويهجع ؟
ـ يفزعنى الصمت الخالد فى أرجاء الكون المفزع (٨)
وجه الموت شنيع ، وجه القتلة أشنع
والظلم الراكض فى الطرقات
يدوس الناس ويضمر ظلما أفظع
وأنا أتعثر فى عجزى
وطريقى تذهب ٠٠ لا ترجع
ـ هاجر واهجر تلك الطرق الملتوية طرا
حاول أن تصبح سيد أقطار أخرى
سيد نفسك ،
وادفن جسد عبوديتك الماضية
وواجه موتك
وتحد الخطر لتولد أو تهلك ،
لا تسرف فى خيبة أملك ٠٠
ـ ماذا أفعل ماذا أملك ؟
ـ قبل ألمك ٠٠ غيره بمطرقة الخلق
واجبل من طينة ذاتك روحا ينطق
واذا فاض بنفسك نهر العشق
فارو الأرض العطشى
وانفخ فيها أنفاس الصدق ٠
ماذا تبغى ؟
ـ تدرين بما أبغيه فكم كابدت الشوق !
لمسة صدق
ـ فى الفن ؟
ـ وفى العيش وفى الشعر الحق ٠٠
ـ الشعر زهور ، ذات جذور
تنمو وسط الدود وفى أعماق الطين
لا فى الجنة أو بين الحور العين !

طوبى لرجال عرفوا كيف يعيشون
وكيف يموتون
كماعرفوا كيف يغنون !

— لست بشاعر ..
انى أحيا الشعر ولا أكتب شعرا ،
تفتننى كل الأشياء وتملؤنى ذعرا ،
فى قلبى طفل مذبوح
فى عقلى شيخ مجروح
تصدح عينى كالعصفور على شجر الليل وفى غابات المر تنوح
تطفر بالدهشة والألم وأحزان الموتى والأحياء
أحزان لا تدركها الأبصار ولا الأسماء

— من يدريك لعل العصفور يحلق فى الأجواء
كسفينة أمل ، زورق سعد يحمل فوق جناحيه السعداء ؟
من يدريك بأن العصفور
هو كرة الكون المسحور
تجرى فى فلك الغبطة وتدور ؟
عشت طويلا فى قبضة شبح حالم
مرآة فى غابات العالم .
ينعكس عليها غضب الريح وهمس الطير
قوقعة فى قاع البحر الساكن
تجتر عذاب الموج وأشواق السمك الهائم
فى أحشاء العقل الباطن
هل حانت ساعة صحوك من هذا الكابوس القاتم ؟
هل يستيقظ فيك الانسان
ويثأر من « كاليبان » ؟ (٩) .

هل يلقى حمل الشبح الجاثم
فى آبار النسيان
ليهب النور من الأكفان
وتنبت فيه القوة والعينان ؟

— ها أنت سرحت مع الأحلام ..

ـ بل أنقذك من الأوهام ..

ـ ووهمك أنت ؟

ـ هات البرهان !

ـ هل يخرج فوق ـ الانسان
من شبح ، صورة انسان ؟
هل تخرج صورة انسان من صلب قرود ،
أو عملاق أشقر من نسل الأقزام السود ؟

ـ ويلك .. هل تكفر بالانسان ؟
ـ بل احترم الانسان ، عبدا أو حرا كان ،
أحيا وأموت لأجله
آكل من ثمرة عمله
روحى تكتئب وتكدح
كى تروى شجرة امله .
أو ليس شريكى فى الوحدة والصمت
أخى فى المولد والموت ؟
أو لا يجمعنا سقف واحد
فى بيت الرعب القاتم
أولا نجلس فى ظل واحد
تلقيه شجرة هذا العالم ؟

ـ لو تتشبث بحبال الرؤيا فى أعماقك
لو تصعد فوق الجبل الرائع مع كل رفاقك
لعرفت بأن الانسان
أكثر من انسان ..
أنصت للصوت الهاتف فى صحرائك
يهدر بالكلمة والحرف وبالمعنى الشائك
أصغ لصوت اله واحد
يطبق بيديه على أعضائك .
من يسمعك اذا صحت من الألم سواه ؟
من يتحمل رعبك الاه ؟

أنصت للصوت الممطر
تثمر أشجار بكائك !

تشرق شمس يقين فى كبد سمائك
تتفتح زهرة قلبك فى عتمة صبحك ومسائك
يتفجر نبع الخضر ببحر ظلامك
تثب الأفكار على صوت ندائك
ينشر عقلك ..

ـ عقلى كنسيج هاو تلطمه الريح
مصيدة ذباب العالم ،
مسكن كل جريح
مأوى كل كسيح ،
ينفرد مع الأحزان المرة والأفكار المره
فى سجن الحرف
اخوته الضمة والكسرة وحروف العطف
ما يشقينى أن الكلمات بلا سيف
ماذا أفعل بنسيج هاو فى وجه الغلظة والعنف ؟
هل يبقى الا الصمت العاجز ، الا العزلة والخوف ؟
عشت أحارب فى معركة خاسرة بسلاح الوهم
آه لو كنت سمعت نداء الحب فلبيت
وبسطت يدى العاريتين لوجه الشمس أو الموت
لحملت حطامى فوق حطام سفين يعبر بى هاوية اليم
أو يسعفنى فى ليل الصمت
وعرفت حقيقة حالى قبل فوات الوقت :
ما عشت حياتى ، مت وراء قناع جهم
بل سبعة أقنعة نسجتها كف الوهم
الحكمة ، والصبر ، وقار العالم والسمت !

ـ لا يكره قلب الحكمة أن ينفذ فيه الحب !

ـ قالوا .. الرأس حكيم غطاه الشيب ،
والقلب كبير ، أكبر من أن يكره ويحب .
ومضوا بضمير مرتاح لم يثقله الذنب ،

لم يلتفتوا كى يجدوا العابد
يحترق كما احترق البوذى الزاهد (١٠)
ليصير ترابا يطفىء نار الحرب ،
ويخلص لحم الشعب البائس من ناب الذئب ٠ ـ
ها هو عار مجروح كيسوع بعد الصلب ،
ضنت حتى الريح بأن تحمل شكواه الى الرب
بعد فوات العمر وتعب القلب
ما خلص حتى شعره كلب !

ـ وعرفت الهوة بين القول وبين الفعل
بين الحرف وبين السيف ،
بين النطق وبين الخلق ؟

ـ لم أعرفها ٠٠ غصت بلجتها حتى العمق
أشهق ، أختنق ، وأحترق وأحرق
تفجعنى الهوة بين القدرة والآمال
بين الكلمات وبين الأفعال
كم أحببت الكلمات
كم صليت لها وركعت
أمسح بالدمع الأقدام
أضفر رأسى بالأوهام
جعت ، ظمئت
من زاد الكلمات طعمت سقيت
وعلى صدر الكلمات غفوت
أطرق أطرق كى ينفتح الباب
أجمع خشبى والأحطاب
لأمد الجسر الى الأحباب
سدت فى وجهى الأبواب
تداعى الجسر وشاخ الحاطب والحطاب
وافترس الكلمات كلاب
دربهم كذاب الزفة والنصاب
ظل الحلم يداعبنى أنا وصحابى
أن نعدل قامة هذا الكون المقلوب بقلم وكتاب

خرج العالم عن محوره (١١) ،
هل تصلحه كلمة صدق من قلب شاب
ما دام الحب غريبا يستجدى بالأبواب
والعدل كسيرا ينتظر الاذن من الحجاب ؟
مرت أيام العمر ، تساقط يوم موءود
فى يوم آخر مولود كابى
وانغرس السهم بقلب الوردة
جفت أوراق شبابى
كنا نقف على الأقدام ونقف الآن
على رأس يشتغل الشيب بمفرقه الخابى
ويدب القلب
ويعرج من صحراء لسراب
تسألنى ما بك ؟ أصمت
أسأل نفسى : حقا ما بى ؟
أصرخ من هاوية الخمسين فيختنق سؤالى وجوابى
ها أنا أهبط تل العمر
تمضى الأيام سراعا نحو القبر
تتلفت عينى : أمسى صخر
وغدى قفر
وعلى طول طريقى شجر مر
ويوسوس شيطان غر :
لذ بالظل قليلا من وهج الحر •
كيف أذود الطير
عن ثمر لا أبلو منه الا القهر ؟
يا شجر العمر !
يا شجر العمر !
أغصانك هذى أم تتدلى منك مشانق خضر ؟
مشنقة للسر النائم فى تابوت الصدر
ولأطفال الحب الموءودة قبل طلوع الفجر
للقبلات الحلوة لم أطبعها فوق شفاه حمر

للرغبات المجنونه
والشهوات المسجونه
والآمال المدفونه
فى كفن الحكمة والفكر •
تمضى الأيام سراعا والأيام شجون
وتعلل نفسك : سوف تكون
وتمر اللحظة بعد اللحظة مر الفرس المحموم
ينظر فى عينيك لتقبض خصلات الحظ المقسوم
فتشيح بوجهك ، تهمس : انتظر الفرس المأمون !
سقطت خيل الزمن المطعون
وتعثر يوم محزون فى يوم آخر محزون
وتنكرت لنفسك حين أضعت وصية مت لتكون
لا استدفأت بنور « أبوللو » المفتون
ولا شب بدمك حريق من كأس « ديونيز » المجنون (١٢)
ـ لو شب بدمك حريق من كأس « ديونيز » الملعون
لو كنت رقصت كرقص « الباخيات » المجنون
لغدوت ظريفا كالجدى المأفون
وسعيدا وسط السعداء ••
ـ بل قولى وسط التعساء ••
كيف أكون سعيدا وسط التعساء ؟
أو أفرح برنين الكأس أو الذهب اللامع بين الجوعى والفقراء
من يمكنه أن يبقى حيا وسط الأشلاء ؟
أحيانا أضحك من شدة نزقى أو خطلى
أسرع أضع الكف على شفتى من الخجل
فالضحكة تصبح اثما أفدح من اثم القتل
حين يسيل الدمع من المقل ••
والكلمة تصبح ••••
ـ دع شأن الكلمة فهى رنين وطنين
ان لم تسرج مصباحا يهدى ليقين

ان لم تحمل بالعمل كما تحمل أم بجنين
فالكلمة ....

ـ ماجدوى الكلمة ؟
صمت الشعب كصمت الطين
وحواة السيرك الخالد يجتهدون
أن ترقص رقص القردة ، تلعب بالبيضة والحجر ،
تغنى تضحك تبكى للجمهور المسكين
أين الحق من الباطل ؟.. كدت أسلم بجنونى !

ـ لو كنت تغوص ببطن الأرض مع الفلاحين
لعرفت الحق
لو كنت تعلم أميا كيف يميز بين الميم وبين النون
لعرفت الحق
لو كنت تجاهد فى ساحات فلسطين
لعرفت الحق

ـ معك الحق . معك الحق .
ياريح الصدق !
هبى واقتلعينى من أوحال الرق
ياوجهى الباكى مزق أقنعة الموت بلا رفق
أخرج من جسد الليل ، ادخل فى جسد الريح
وتأهب للمطر القادم والبرق ..

ـ كلمات .. فى كلمات .. فى كلمات
كالشحاذ المتسول من شحاذ تمشى فى الطرقات
ومتى يحدث هذا ؟

ـ حين تتم المعجزة وينفجر البركان العاتى
يطمر آثار القهر ويبعث كل الطاقات
كل ينابيع الخلق لدى الأحياء ـ الأموات ..
حين تتم المعجزة ..

ـ فات زمان المعجزة

فواجه سيف اللحظة واليوم الآتى •
هذا الزمن الحاضر ••

ـ انا لم نختر هذا الزمن المجنون
لم يسألنا أحد أن نولد فى هذا البلد المحزون
لم يسألنا أحد أن نرحل فوق سفين
يغرق فى جوف التنين
قولى •• ماذا نفعل
ماذا نفعل •• قولى ••

ـ مايفعله البحارة فوق السفن الغرقى
والربان العابس فى وجه العاصفة الكبرى

ـ هل يملك الا أن يغرق
ويظل يحدق ويحدق
فى فك الطوفان المطبق ؟

ـ بل يقف شجاعا
ويحب مصيره
وينازل محنته وحده ••

مد يديك الى أيدى الغرقى
وابن سفينة نوح أخرى

ـ أتقولين سفينة نوح ؟
آه من نوح وسلالة نوح !
يانوح الصامت كالأوثان
يانوح الغارق فى النسيان ••
يانوح الذاهل عنا
هذا زمن الطوفان
زمن وسام العار على صدر الطغيان
كيف سقطنا تحت سنابك خيل العصر
وكيف اختل بيدنا الميزان ؟
كنا السادة فى طيبة ، مأرب ،
فى القدس وفى الأندلس وكان وكان
لا تسأل أرواح الموتى واسأل عنا الآن

حيث ينام المسجون مع السجان
واللاجىء فى خيمته المشتعلة بالنيران
يحلم بجناح براق وعد به الرحمن
ليقبل خد الصخرة ويطوف بالأركان
فى زمن الجوع الكافر وثب القرد على عرش السلطان
واليوم تهاجر أسراب النمل الخائف
من زلزال أو بركان
يانوح الغائب هذا زمنك
زمن الطوفان ....

- كفكف دمعك ..

- انى أغرق ..

- بل تغرقنى فى الطوفان

- انى تهار
وينهار على رأسى سقف الدار
أنجرف مع التيار
نحو الهاوية بغير قرار
تلطمنى كف القيصر والشرطى الجبار
هل توقف زحف السيل الأسود
كلمات أو أشعار ؟
ماذا أملك الا الدمع
أسكبه فى عينيك لتنسى طعم العار
ثم ألوذ ككلب يحتضر بجنب جدار
وأحدق فى سحب الغيب
وأسأل : من يحميك من الاعصار ؟

- ومن يحمينى منك ؟

- منى ؟!

- تتحسر ، تبكى ، تحتضر بجنب جدار
هل يبدو الموت اليوم أمامك
فتحن اليه حنين العائد للدار ؟
تتمنى لو ذبت به ذوبان الموجة فى أمواج البحر الهدار

أوحقا تتمنى الموت ؟

ـ أتمنى ·· الموت الحق ··
أنظر فى عينيه ·· أحدق
وأعانق وجه الخطر المحدق
ويعانقنى فأكون بحق ··
أولد ، أبعث ، أحيا فى صدق ·
الموت جليل وجميل
كجمال المجد أو الشعر
والموت يعمق ويصدق
هو ثمرة عمرى أو عرقى ·
هبنى ياربى أن ألقى
معشوقى فى ليلة عشقى
وعزائى عن رحلة سفرى
وذد الأطيار اذا جاءت
كى تأكل من ثمرى المر
قد عشت بقبرى ماعشت
فما ضر يغيبنى قبرى ؟
ما ضر أموت لكى أحيا
كى يشرق من ليلى فجرى ؟

ـ فجرك ؟

ـ أسمعت ؟

ـ ألا تدرى ؟
وفهمت ، فسرك من سرى

ـ قد كنت أثرثر ، معذرة
من غيرك يقبل بالعذر ؟
ولمن أتكلم يا نفسى
وأبوح بسرى أو جهرى ؟

ـ يكفى ما قلت ، ألا تسأم ؟

ـ ولمن يا نفسى أتكلم
وأبشر بالفجر وأحلم

ـ الطير المتعب نام فنم

ـ أأنام ؟

ونحن نيام منذ دهور

عمى ـ فمتى تنفتح العين

وتنفتح الأيدى الكادحة وينغلق الفم ؟

ـ حين يؤذن ديك الفجر ..

ـ انى أنتظر أذانه ..

ـ لا يكفى أن تنتظره

اعمل له !

الفجر قريب لو تعلم

فتأهب ، واعمل ، وتعلم

حتى لا تشكو أو تندم

وتلوذ بحكمتك وتحلم

كالقرد الأعمى والأبكم .

ـ الفجر ؟!

ـ الفجر ...

هو الأحكم !

(١٩٧٩)

١ ـ الموت أمامى اليوم

كالشفاء فى يوم نظر العليل

كالخروج (من البيت) بعد المرض

الموت أمامى اليوم

كرائحة المسك

كالجلوس تحت الشراع فى يوم عاصف

الموت أمامى اليوم

كشوق الغريب للعودة الى بيته

بعد سنوات طوال فى الأسر

***

هذه سطور قليلة من أنشودة ، أو قصيدة طويلة تعد هذه البكائية تنويعات عليها • ولعل هذه الأنشودة أو الحوارية أن تكون أقدم مرثية عرفها العالم • انها مناجاة رجل تعب من الحياة فراح يحاور نفسه التى تقنعه بالتمسك بدنياه ــ دنياه التى يئس منها بعد أن اختلت فيها كل الموازين وانقلبت كل القيم ــ بينما أخذ يحن الى العدالة والحقيقة والسلام فى أخراه • وهى نص مصرى قديم حققه وترجمه أكثر من عالم من علماء التاريخ والأدب القديم (مثل ارمان وزيته وفولكنر وسليم حسن) وأعطوه هذا العنوان : حوار متعب من الحياة مع نفسه ، وحددوا عصره بفترة الثورات والاضطرابات التى جاءت بعد الدولة القديمة • ومع أننا لانستطيع أن نصف هذا الحوار الشعرى بأنه مرثية أو بكائية بالمعنى الذى عرف فيما بعد ، فانه يعد قطعة من أصدق الشعر وأنبله ، وأشده تأثيرا على القلب •

غير أن المرثية أو البكائية قد عرفت فى الشعر اليونانى والرومانى القديم لتدل على شكل شعرى يتألف من بيتين (كوبليه) يجرى أولهما على الوزن السداسى وثانيهما على الوزن الخماسى ، ويعبر منذ القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد عن أغراض متنوعة كالحرب والحب والبطولة والسخرية السياسية قبل أن يطلق الاسم المحدد (اليجوس أو اليجايا) على الحداد على ميت أو الشكوى من فواجع الحياة والتأمل فى مآسيها ، وقد يتسع فيشمل قصائد الحب كما حدث فى العصر السكندرى والرومانى والبيزنطى ، ويظل الحب والشكوى طابعه فى الشعر اللاتينى ــ خصوصا فى عصر أغسطس ــ عند تيبولوس وبروبريتوس وأوفيد •

ولم تقتصر محاكاة الغربيين المحدثين منذ عصر النهضة لأنواع الشعر القديم وأوزانه على هذا الشكل الثنائى للمرثية ، وانما امتدت الى مضمونها الذى يعبر عن الأسى والحسرة والاكتئاب • ففى ايطاليا نجد المرثية منذ القرن السادس عشر عند « تاسو » و « أريوستو » حتى القرن التاسع عشر والعشرين عند ليوباردى وكاردوتشى وداتزيو ، وفى أسبانيا التى قلد شعراؤها النماذج الايطالية يتصل هذا الشعر من جارثيلا زودى لافيجا ولوب دى فيجا حتى خيمنيث وجارثيا لوركا ، وفى فرنسا يتصرف بعض الشعراء فى الشكل الأصلى وان ظلوا محافظين على المحتوى والنغم الأسيان، بدءا من جان دوبليه ورونسار حتى لامارتين فى تأملاته وأندريه شنييه(*)

(*) نذكر مما قاله عن المرثية هذه الأبيات الدالة : لكى فتنتنى المرثية الرقيقة بحنانها الذى يلمس القلب ــ المرثية ذات التشيع المتقطع ــ ذات الضحكات الممتزجة بالدموع ــ ذات الشعر الطويل المنثور ــ تلك الجميلة التى ترفع للسماء نظرات مبتلة •

فى أغنياته الرقيقة الحزينة قبل أن تختلط المرثيـة فى الأدب الفرنسى بأنواع وموضوعات أخرى ، وفى ألمانيا بدأت مع بداية القرن السابع عشر عند أوبيتز ثم كلوبشنوك وتأثرت بمدرسة القبور فى الشعر الانجليزى وبشعراء آخرين مثل يونج وأوسيان وجراى ـ صاحب المرثية المشهورة فى مقبرة ريفية ـ وظهر هذا التأثير على « جوته » فى روايته آلام فيرتر التى تعد مرثية طويلة ثم على قصائده الكبيرة « مرثيات روما وماريـنباد وتحولات النبات » ، كما ظهر على شيلر فى قصائده آلهة اليونان ، والحنين، والحاج ، بجانب رسالته عن الشعر الساذج أو المطبوع ، والشعر العاطفى أو المصنوع وهى الرسالة التى ميز فيها الرثاء عن غيره من ألوان الشعر الأخرى بأنه تشوق الى المثل الأعلى ، أما الشاعر « هلدرلين » فيمكن أن نصف شعره كله بأنه مرثية متعددة الألحان والأشكال يبكى فيها نفسه وعصره ، ويردد حنينه الى مثل مستحيلة وأيام ذهبية عاشها البشر المباركون فى ظل الآلهة المباركة التى تخلت عنهم ولم تعد تكترث بهم ، حتى جدد « رلكه » المرثية ونفث فيها أنفاسا وجودية بعثت فيها الحياة والقوة فى القرن العشرين وذلك فى قصائده العشر المعروفة بمرثيات دوينو • وفى الأدب الانجليزى تحددت المرثية كنوع مستقل تقترن فيه الشكوى والحب والموت من أوائل القرن السابع عشر عندما أطلق جون دون هذه التسمية « مرثية جنائزية » على قسم من أقسام قصيدته « تشريح العالم » ، ووضع ملتون مرثيته الرعوية « ليسيداس » التى ساعدت على جعل المرثية نوعا مستقلا فى الأدب الانجليزى ، وان اختلطت حدوده مع كل شعر تأملى اكتسى بطابع الرثاء ، وأوضح مثل على ذلك وأشهره هو قصيدة توماس جراى السابقة الذكر « مرثية فى مقبرة ريفية ، وخواطر الليل ليونج ، وعبث الرغبات البشرية لصمويل جونسون ، ومرثية موت سيدة تعسة لألكسندر بوب ، وفى ذكراه لتنيسون ، وعندما تزدهر الزنابق فى فناء الدار لويتمان واخيرا مرثية أودن التى كتبها فى ذكرى الشـاعر الايرلندى الكبير « ييتس » ، ناهيك عن مرثية شيللى الشهيرة « أدونيس » لصديقه كيتس ، وقصيدته « ثريزيس » ، ولعلها جميعا كانت محاولات لمحاكاة رعويات كلاسيكية مزجت بين الحب والموت عند فيرجيل وثيوكريتس •

٢ ـ هو الشاعر القحطانى الجاهلى المشهور عبد يغوث بن وقاص ابن صلاءة الحارثى ، من أهل بيت شعر معروف فى الجاهلية والاسلام • كان حارسا شديدا مذكورا ، وسيدا من سادات قومه ، قادهم فى معركة تسمى يوم الكلاب الثانى ، لمقاتلة بنى تميم ، فأسر فى القتال ، وأنشد فى رثاء نفسه قصيدة قتل بعد انشادها • جاء فى النقائض أن يوم الكلاب الثانى كان بعد البعثة المحمدية ، واذا صح هذا فان الشاعر يكون قد أدرك

الاسلام ، وتكون قصيدته التى نكتفى بمطلعها وبعض آبيات منهـا قد قيلت فى مبعث النبى عليه الصلاة والسلام :

ألا لا تلومانى ، كفى اللوم ما بيـــا
فما لكما فى اللوم خـير ولا ليـــا

ألم تعلما أن الملامة نفعهـا
قليل ، وما لومى أخى من شماليا ؟

فيا راكبـــا اما عرضـت فبلغن
نداماى من نجران ألا تلاقيـــا

جزى الله قومى بالكلاب ملامة
صريحهـم ، والآخـرين المواليـــا

أبا كـــرب ، والأيهمن كليهما
وقيســا ، بأعلى حضرموت اليمانيا

ولو شئت نجتنى من الخيل نهدة
ترى خلفها الحـو الجياد تواليا

.... الخ

٣ ــ هو مالك بن الريب المازنى التميمى ، من شعراء العربية ، توفى سنة ٦٠ هـ ، وقصيدته التى تبدأ بهذا البيت :

ألا ليت شعرى هل أبيتن ليـلة
بجنب الغضا أزجى القلاص النواجيا

هى من القصائد النادرة التى يرثى فيها شاعر نفسه ، ويصور لحظة صدق نادرة وهو على البرزخ بين الحياة والموت ، لحظة تتحد فيها البداية والنهاية ، ويلتقى الماضى المجيد الذاهب بلا عودة مع حاضر الألم والغربة والوحدة فى مواجهة الموت ٠ ان قصيدة مالك بن الريب فى رثائه لنفسه تذكرنا بقصيدة عبد يغوث ، ويحتمل أن يكون مالك قد حاكى الشاعر الجاهلى أو أن تكون قصيدة هذا الأخير قد تراءت له بصـورها ووزنها ومشاعرها بحيث فرضت نفسها عليه فى لحظته البرزخية تلك ٠ ومهما

يكن الأمر فى رثائه لنفسه الذى بلغ الغاية فى قوة التصوير واتقان الشكل وصدق العاطفة ووحدة الموقف الأخير أمام النهاية الوشيكة ، فلا شك فى أنها من عيون الشعر العربى والانسانى فى كل عصوره ومواطنه ٠

نكتفى ـ بعد المطلع السابق ـ بذكر بعض أبياتها التى تعبر عن أهم تقلاتها وحركاتها التصويرية والشعورية (ويستطيع القارىء أن يرجع الى نصها الكامل وشرحها الفنى الوافى فى كتاب الشاعر الدكتور عبده بدوى وزميليه « الأدب وروح العصر ، منشورات ذات السلاسل ، الكويت ١٩٨٥ ، من ص ٤٧ الى ص ٦٢ ، كما يمكن الرجوع للأغانى (١٥/٦٩ ـ ٧٠) والنقائض ١٥٢/١٥٣ ، والعقد الفريد ٦/٦٨ ، والكامل لابن الأثير ١/٢٢٨ ، وأسماء المغتالين ٢٤٦ ، وشرح شواهد المغنى ٢٣٢) :

فليت الغضا لم يقطع الركب عرضه
وليت الغضا ماشى الركاب لياليا

لقد كان فى أهل الغضا لودنا الغضا
مزار ولكن الغضا ليس دانيا

أجبت الهوى لما دعانى بزفرة
تقنعت منها أن ألام ردائيا

تقول ابنتى لما رأت طول رحلتى
سفارك هذا تاركى لا أباليا

ان الله يرجعنى من الغزو لا أرى
وان قل مالى طالبا ما ورائيا

تذكرت من يبكى على فلم أجد
سوى السيف والرمح الردينى باكيا

وأشقر محبوكا يجر عنانه
الى الماء لم يترك له الموت ساقيا

صريع على أيدى الرجال بقفرة
يسوون لحدى حيث حم قضائيا

فيا صاحبى رحلى دنا الموت فانزلا
برابية انى مقيم لياليا

أقيما على اليوم أو بعض ليلة

ولا تعجلانى قد تبين شانيا

وقوما اذا ما استل روحى فهيئا

لى السدر والأكفان عند فنائيا

وخطا بأطراف الأسنة مضجعى

وردا على عينى فضل ردائيا

ولا تنسيا عهدى خليلى بعد ما

تقطع أوصالى وتبلى عظاميا

يقولون لا تبعد وهم يدفنونى

وأين مكان البعد الا مكانيا

غداة غد يا لهف نفسى على غد

اذا ادرجوا عنى وأصبحت ثاويا

فيا ليت شعرى هل بكت أم مالك

كما كنت لو عالوا نعيك باكيا

اذا مت فاعتادى القبور وسلمى

على الرمس أسقيت السحاب الغواديا

على جدث قد جرت الريح فوقه

ترابا كسحق المر نبانى هابيا

رهينة أحجار وترب تضمنت

قرارتها منى العظام البواليا

فيا صاحبا اما عرضت فبلغا

بنى مازن والريب ألا تلاقيا

غريب بعيد الدار ثاو بقفرة

يد الدهر معروفا بألا تدانيا

أقلب طرفى حول رحلى فلا أرى

به من عيون المؤنسات مراعيا

وبالرمل منا نسـوة لو شهدنني
بـكين وفدين الطبيب المـداويا

فمنهن أمي وابنتاى وخالتى
وباكية أخرى تهيج البواكيا

***

٤ ـ فرانسوا فيون (من حوالى سنة ١٤٣١ ـ الى حوالى سنة ١٤٦٢)
شاعر فرنسي ، امتزجت حياته المشبوهة بشعره الغنائى الرائع ليجعلا منهأسطورة ، ولد فى أسرة أمية فقيرة ، وتعهده بالرعاية والحنان قسيس عطوف كان من أقاربه وسمى الشـاعر الشاب على اسـمه • تخرج فى الواحدة والعشرين من عمره من جامعة باريس ، ثم ما لبث أن عاش حياة الصعاليك والمنشردين والأفاقين فى حانات الحى اللاتينى ، قبض عليه عدة مرات لاشتراكه فى جرائم القتل والسرقة ، واضطر للهروب من باريس فلم يرجع اليها الا بعد صدور العفو العام سنة ١٤٦١ ، وسرعان ما ألقى به فى السجن سنة ١٤٦٢ وحكم عليه بالاعدام شنقا • وخفف عليه الحكم الى النفى لمدة عشر سنوات ، ولكنه اختفى بعد ذلك عن الأنظار وهو لم يتجاوز الثلاثين من عمره ، وان كانت مؤلفاته الشعرية قد ظهرت مطبوعة فى سنة ١٤٨٩ •

كان شعر فيون هو السجل الحى لضياعه وفقره ومغامراته فى الحب والجريمة وحزنه ورثائه لنفسه وشبابه مع سخريته ومرحه ورضاه عن نفسـه •

ومن أهم قصائده « الوصية الصغيرة » (١٤٥٦) و « الوصية الكبيرة » (١٤٦٢) اللتان تعبران فى وقت واحد عن تأثره بتقاليد الأدب الوسيط وعن أصالته وواقعيتـه وبراعته الفنيـة (فى التزامه بالبيت ذى الثمانية مقاطع وبشكل البالاد ـ الأغنية القصصية أو الموال ـ والروندو الذى يكرر البيت الأول وسـط القصـيدة ونهايتها مع اتبـاع قافيتين فحسب) وأهم ما يدل على أصالته هو عاطفته الجياشة بالصدق وقدرته على تحليل ذاته وعمق مشاعره وأحزانه على شبابه المهدد وآماله فى الخلاص الأخير ، ويكفى أن نذكر القارىء بأغنيته القصصية أو « بالاد » المشنوقين بصورها الواقعية المخيفة عن الأجساد المعلقة فى المشانق وقد أحرقتها الشمس والتهمتها الطيور الجارحة وموسيقاها العذبة التى تردد لازمة تتكرر وتحولها الى قداس جنائزى تختلط فيه رهبة الموت بقسوة العالم والبشر بمخاوف الشاعر من أن يلقى نفس المصير « لقد طحن العـذاب

أعصابى ، وعلمنى أكثر مما علمنى أى شىء فى أرسطو ٠٠ » ألهم شعره عددا كبيرا من الشعراء مثل روسيتى وسوينبيرن وهينلى وبرشت فكتبوا عنه أو ترجموا له أو ضمنوا شعرهم بعض أشعاره ، كما كتب فيكتور هيجو وروبرت لويس ستيفنسون قصة حياته ، وظهرت عنه مسرحيات وأفلام سينمائية عديدة ٠٠

٥ ـ ديوجين : نسبة الى الفيلسوف اليونانى ديوجينيس الكلبى من سينوب فى آسيا الصغرى ٠ ولد حوالى سنة ٤١٢ ق ٠ م ومات فى كورنثه سنة ٣٥٣ ق ٠ م بالغ فى مفهوم القناعة السقراطية حتى وصل به الى الزهد فى كل مظـاهر الحيـاة المتحضرة ، وجعل من الاستغناء والعودة للطبيعة وانكار الأعراف والقوانين واجبا يلتزم به الانسان الى حد الكلبية والحياة التلقائية الصرف ٠ رويت عنه حكايات ونوادر مشهورة منها أنه كان يقيم فى برميل ولما زاره الاسكندر وطلب منه أن يعبر له عن حاجة يحققها له طلب منه أن يبتعد لئلا يحجب عنه ضوء الشمس ! ومنها انه سار فى سوق أثينا فى وقت الظهر وهو يحمل فى يده مصباحا وينادى أين الانسان ؟ أين الانسان ؟ (راجع عنه قصة الكاتب السطور بعنوان « قصة كلب يبحث عن انسان » نشرت فى مجموعته ، الحصان الأخضر يموت على شوارع الأسفلت ، دار المعارف بالقاهرة سنة ١٩٨١) ٠

٦ ـ هما الشاعران عبد يغوث الحارثى ومالك بن الريب التميمى اللذان سبقت الاشارة اليهما ٠

٧ ـ عن بيت ورد فى أحد أناشيد الجوقة فى مسرحية « أنتيجونا » لسوفوكليس ٠

٨ ـ عن حـكمة مشهورة للفيلسوف الرياضى المتصـوف باسكال (١٦٢٣ ـ ١٦٦٢) ٠

٩ ـ كاليبان Caliban هو اسم وحش بشرى شائه الخلقة فى ملهاة شكسبير « العاصفة » ولعله أن يكون تجريفا لكلمة كانيبال cannibal التى تعنى آكل لحوم البشر وهو « شبل » الساحرة العجوز «سيكوراكس» التى نفيت من وطنها الأصلى فى الجزائر الى جزيرة بروسبيرو ٠ استبق شيكسبير بهذه الشخصية العجيبة تلك الحلقة المفقودة بين القرد والانسان التى طال الجدال حولها عقب اعـلان نظرية داروين عن أصـل الأنواع والانتخاب الطبعى ، ويعد كاليبان تجسيدا للشهوات الوحشية وانفعالات الحقد والكراهية ، وقد ورث عن الساحرة قوة عقلية جبارة لا تخضع الا لسيد الجزيرة الموحشة ـ وهو الدوق المنفى بروسبيرو ـ ولا تذعن الا لحكمته وتدينه وعبقريته ٠

١٠ ـ اشارة الى الحادثة المشهورة عن الراهب البوذى الذى أحرق نفسه أمام المعبد احتجاجا على حرب فيتنام ودعوة للسلام ٠

١١ ـ اشارة الى عبارة هاملت المشهورة فى مناجاته « أكون أو لا أكون تلك هى المسألة » ٠

١٢ ـ اشارة الى الهى الفن والنور والنظام (أبوللو) والنشـوة والحقيقة المفجعة (ديونيزيوس) عند اليونان ، وهما قطبا كل حيـاة وابداع عن نيتشه ٠

الدمعة الثالثة

الكابوس

الدمة الثالثة :

الكابوس

(ليست حيـاة الروح أن تشيح بوجهك عن الفساد والموت ، بل أن تحدق فيهما ...) .

١ ـ هيجل فوق العرش :

قصر مهجور . يبدو كالنسر الهرم الجاثم فوق السفح ، يحتضر وحيدا من ألم الجرح . تحملنى قدماى اليه عبر صحار جرداء ، تحت سماء دهمتها السحب السوداء . جحافل قطعان وجيوش ذئاب ، سفن غرقى يهرب منها البحارة والفئران ويبكى الربان ، خيل جامحة تسقط فى الميدان ، أقنعة الأبطال المهزومين ، دروع تسقط فى الطين ، وملائكة تنفخ فى الأبواق ، كلاب تنبح فى الآفاق ، ومواكب انس وشياطين ، ترقص تركع تسـجد للتنين . أدخل من باب القصر كأنى أدخل فى قبر ، يهتف صوت يأتى من فوقى ، من تحتى أو ينبعث من الصدر : هذا قصر العقل المطلق . حدق فى عين الموت وحدق . فحياتك أن تلقى الخطر المحدق ، تتحداه فتنجو من قبضته أو تغرق . أدلف من البوابة الحديدية الصدئة ، يختلط وقع قدمى الثقيل بأنات العظام التى أدوس عليها ، بالرطوبة وطعم الملح ورائحة العفن وسواد الظلال المعلقة كالمعاطف السوداء ، فى الأركان ـ لا أكاد أدنو من العتبة حتى تنفتح أمامى القاعة الرهيبـة ، فى آخرها ، فوق الـدرجات

(★) هذه رواية قصيرة كتبتها قبل ما يقرب من سبع سنوات . كنت أعيش وحيدا فى كهف صنعاء الطيب الأمين ، وأكثر من قراءة البردونى والمقالح وعبد الصبور ، ومن تأمل مصير وطنى ومصيرى ومراجعة النفس التى راحت تطل « على مشارف الخمسين » . وصحوت ذات ليلة من كابوس ظلت غرائبه المختلطة تلاحقنى فى اليقظة والمنام . هيجل يتربع فوق عرش الصيرورة ـ وكنت أيامها أقرأه وأدرسه ! ـ وجوه فلاسفة وشعراء أخذوا من عمرى ما أخذوا ، وجه الأم الطيبة الراقدة فى قبر ريفى بعيد ، أوراق متناثرة من شجرة عمر وجبل مخيب الآمال . وكان أن دونت الكابوس على الورق فى تسعة أيام لاهثة محترقة الأنفاس . (يوليو ١٩٧٩) ثم بلغت الخمسين وتخطيتها فنسيته أو أنسيته ، حتى رجعت اليه فاخترت منه هذه الصور والايقاعات .

الخشبية الداكنة . تتحجر عيناى على المشهد : عرش ضخم ، يجلس عليه شيخ عجوز ، يخطف بصرى بريق يسطع فى العينين ويخترق السواد والظلال والأطياف المتراصة على جانبى القاعة كشواظ الجمر المتأجج وسط دخان وتراب . تشدنى القوة المجهولة للاقتراب منه ، يجذبنى توقد العينين وبياض الوجه الذى يلمع كالعاج الناصع كلما اقتربت منه ، تصرفنى العينان ويشغلنى الوجه عن الالتفات ورائى أو حولى ، ويفاجئنى الصوت الخارج من قلب العرش ، صوت فى لمعان العينين الواسعتين الباردتين : صل وصب اللعنة ! قدم كشف حسابك ! .

ربى ! أعرف هذا الوجه .. لم أره رأى العين ، لكن أذكر أنى شاهدته ، أغرقت عيونى فى عينيه ، خفت بريقهما وبرودهما الثلجى ، وذهلت من الوجه الواثق من نفسه ، الرائع مثل وجوه الأرباب على قمم الأوليمب . رن الصوت الخارج منه كالقدر الساحق ، يهبط من برج شاهق . من أدخلنى هذا القصر ؟ من كان رفيقى ودليلى ، من هذا الملاك الجالس فوق العرش ؟ أهو شيطان أم القيصر ؟ والأشباح الواقفة على الصفين . كالحة عابسة الأوجه ـ تهمس ، تطرق بالرأس ، تكاد تشير الى ، أتمعن فيها عن قرب ـ حراس أم زوار ، أصحاب مظالم أم حجاب ؟ والشجرة . هذا الجذع الراسخ والأغصان الخضراء . أتظلل هذا العرش ؟ من أين تجىء الخضرة فى هذا القفر ؟ ومشاعل فى كل مكان . توشك أن تطفئها أنفاس الليل الجاثم مثل جبال الأحزان . هل أصرخ ، أسقط فوق الأرض ، أنادى الملك الجالس فوق العرش وأسأل : ما هو دورى فى هذا الحفل أو القداس الملعون ؟ أجرى وأثور وأضرب رأسى فى الجدران وأبكى كالمجنون يأتى الصوت المخنوق الشامخ كنفير القدر الصارخ . يجرف روحى كالقشة فى التيار الجارف : فتش عن جمجمتك بين الاشلاء ! فهناك مكانك بين الموتى الأحياء !

جماجم وأشلاء ـ حقا ـ حقا ـ أفتح عينى ـ أنظر كالممسوس ـ كومة أشلاء تحت العرش ـ وجماجم ثقبت أعينها تتأملنى بعيون الصمت ـ تدعونى وتعاتبنى بلسان الموت ـ أصرخ فى غضب يشعله المقت : ما هذا ؟ عرش فوق الأشلاء ؟ مأدبة وحوش وبرابرة تلتهم لحوم الغرباء ؟

ـ بل رب اغريقى بلع الأبناء ـ غضب الرب الحى الفرد على نفسه ، فالتهم الفرد ليصبح ذاته ، وتجلى فى ثوب الروح المطلق ..

ـ صور سوداء مخيفة ، لاله يأكل نفسه ، كالميت نفض الأكفان وغادر رمسه .

ـ كى يخرج فى ثوب انقى ، يتألق بالنور الأعلى .

ـ لا أفهم يا مولاى ٠

ـ عجبا ! مع أنك عشت طويلا مع أفكارى ، وسهرت ليال تبحث عن أسرارى ـ أسريعا ينسى الزائر دارى ؟ خذ يا ولدى مفتاح السر ٠ حتم وقضاء أن تكتمل الدورة ، كى تسمو فوق الأطلال الخربة ، مملكة الله الحرة ـ يا ولدى تلك هى الرؤيا ـ رحت أسجلها فى نوبة غضب أسطورى ـ ليلة كنت وحيدا فى « يينا » ٠ ثم عكفت عليها وصــببت رؤاها المرة فى أطر التجربة ٠

أطرقت حزينا ٠ ـ كشــفت عن حيرة نفسى ـ حيرة وجهى ويدى الساهمتين ـ كعصفورين وحيدين أضاعا العش ـ قال الملك الجالس فوق العرش :

ـ هل تذكر يا ولدى العملاق « خرونوس » ؟ لما ابتلع بنيه فلم يفلت منه غير « زيوس » ؟

ـ ويعود زيوس فيثأر منه ويجبره أن يتقيأ أولاده ؟

ـ لكن الرب الذى أعنيه لا يثور على أولاده مثلما يثور على نفسه ، على خروجه الشقى عن ذاته ، على الطبيعة التى خلقها فازدهرت بألوانها وأشكالها ٠ لقد انتشر وتبدد فى هذا « الآخر » ، ابتعد عن نقطة المركز ، أحس أنه أراق جــوهره الخالص فى اللانهائية التى لا تعرف راحــة ولا استقرارا ٠ عندئذ يتولاه الغضــب الجبار ويملكه الســخط فيـدمر ما شادته يداه ، يبتلع الصور والألوان والأشكال ويمزق أعضاءه بيديه ، ويسحق العظم ويهرس اللحم حتى يسيل ، وفى السعير الذى يغلى ويفور تتطهر نفسه ، تترك وراءها كل الشوائب ، ترتفع نقية متلألئة فى النور الباهر ، فلقد عاد الرب لذاته ٠٠ عاد الرب لذاته ٠٠

ـ صورة رب جبار مظلم ٠ العدم يمزق نفسه ؟ أيكون الهدم بناء ، ويصير الموت هو البعث ؟ أشار بيده أن أسكت ٠ كف بيضاء كقطعة ثلج ٠ تلقى طيفا أسود ٠ أشبه بالمروحة السوداء :

ـ هذا شىء لا منــدوحة عنه ، نهر الجدل الجبار ، صراع الذات مع الآخر ـ اغتر الشــيطان الســاقط بجماله ، فتحدى الله ، فثارت ثورته وابتلعه ! لكن الطبيعة المبتلعة ترتفع فى ثوب متالى ، فقد ماتت حياتها لتبعث روحها ، وهى فى ثوبها النقى الجديد قد انتصرت على الشر وصمدت لوهج الألم وحريقه المشتعل فى أعماقها ٠ أهمس فى خوف ، كلماتى تسقط فوق الأرض وترجف ، قطرات دماء تجرى من جرح ينزف ٠ وتشير الكف البيضاء الخافقة كمروحة سوداء :

— أحسبك تقول كما قال الناس : الجورب حين يرقع خير منه حين يمزق ! أما الوعى فلبس كذلك — مـا من وعى حق الا وهو ممزق ، بين الأضداد يعيش ويحترق ويومض كوميض البرق · تلك حياة المطلق · نهر صراع أبدى . جدل التاريخ المنقل بالمأساة ، معركة الظلمة والنور . الموت مع الميلاد — حيـاة وموت ، فعل ورد فعل ، جـذب ودفع ، تحليل وتأليف . ملاك وفلاحون ، مستعمرون ومستعمرون نواة موجبة وكهارب سالبة . ركود « الين » ودفع « اليانج » تطور الروح التى تبعث الحياة فى الطبيعة والانسان · تلك هى التجربة الأولى ، نبعت من نهر الجدل الجارف كالجيش الزاحف · على ضفافه نبتت كل التصورات والمفاهيم ، اتسعت صـــورها وامتدت غصـــونها فى الظـاهريات والتاريخ والدولة والدين والفن · · ·

— فى المنطق أيضا · · كم عذبنى المنطق !

— ألم أقل فى مقدمته : يمكن القول بأن مضمون الكتاب تصوير الله فى جوهره الأبدى ، قبل خلق الطبيعة أو أى روح متناه ؟

— هذا هو ما قلت · فى البدء كان الرب المطلق المباشر ، ثم غضب على ذاته التى ضاعت فى الآخر ، فسحقت قوة السـلب الرهيبة وجوده المباشر أو عدمه الخالص . فعاد الى ذاته فى وحدة أرقى وأغنى — وحدة تتمزق فوحدة جديدة !

— الآن فهمت · البذرة تتبعها النبتة فالتمرة · الطفل برىء وسعيد ، والشـاب يتابع خطواته ، وأخيرا يأتى الشيخ على عكاز يتأوه · طاحونة هذا العالم لا تتوقف أو تنكص ، والخطوات ثلاث لا تختل ولا تنقص ، أنصت يا ولدى لرنين الخطوة فوق السطح وفى عمق القاع ، غابات العالم ترقص أو تحتضر على الايقاع . تضربه كف الجدل فينفذ فى الاسماع · هذا يا ولدى هو سر العالم ، سر حياتك ، موتك ، كل الأوجاع !

يسكت صوت العرش · يدير صاحبه رأسه الضخم ويريحه على يده · تنوه العينان الزرقاوان فى الفراغ ، القوة والجبروت تشـع عليه وريح اليأس البارد تعصف منه · تنفذ فى ثقوب الجماجم فتئن وتشكو كأنين الناى — أتلفت حولى ترتعش الشجرة ، توشك أن تدنو منى ، ترتعش النار من المشاعل وتتساقط ومضاتها كحبات الندى الملتهبة فوق الوجوه على الصفين · هذى أقنعة أم أوجه أبطال منسيين ؟ أتقدم منهم ، تتأمل عينى قسمات الوجه وتجعيدات الجبهة وأخاديد الزمن ونقش القدر المسطور — اعرف بعض ملامحها ، أتذكر أنى عشت ليال أتأملها ، ألعنها ، أستوحيها .

أندب حظى معها ، أسـترحمها أن تغفر عجزى وقصـورى ـ أعرف وجه أرسطو . أفلاطون وهيراقليط وجه الكندى والفارابى والحلاج ، وتفاجئنى عينا ديكارت الواسعتان السوداوان . والوجه الضامر ـ وجه الفأر المذعور ـ تلمع فيه العينان الزرقاوان . عينا كانط الطيبتان الناقبتان . آذكر زينون وأسأله اين سلحفاتك والسهم ، أين آخيل ليشهد بعد زوال الحلم ، أن المجد خداع والشهرة وهم ـ هل يبقى غير الصمت الخالد يا أرباب الحكمة والفهم : ها أنا أتأملكم ، أمثل بين يديكم مدحورا أبكم وأصم . هل أذنبتم أنتم أم أذنبت وضيعنى الوهم ـ ولمن ندع الحكم ؟ ترتعش الشجرة ، توشك أن تمسح رأسى بأناملها الخضراء ـ أتأملها ، تنحسر الخضرة . تتدلى منها الأغصان الصفراء ـ أبدأ فى عد الأوراق فألمح وجها وضـاء ، نتألق فيه الطيبة أنجذب اليه ، تنفرج الشفتان وينسـكب الصوت شعاع ضياء : دع يا ولدى الأوراق ـ بعد قليل تنظر فيها وتقلبها بالكفين وبالأحداق ، كم أشفقت عليك وأنت صغير عاق ، والآن تحركنى نفس اللهفة والاشفاق ـ تمتد يداى اليها ، أدنو منها ، ينتفض بقفص الصدر ذبيح وجل خفاق ـ أهتف : أنت ؟ أية ريح طيبة جاءت بك ؟ من أرشدك لهذا القصر المهجور ! **ينسكب الصوت بسمعى** : من أرشدنى ؟ من يجعل طيف الأم يزور ، طفلا شـابت منه الرأس وما زال يدور . فى بحر الكون الواسع بشراع الحلم المكسور . يتصارع مع موج البحر فيزيد ويغور ، ثم يثوب لحضن الشط الدافىء كالعصفور المقرور . من أرشدنى للقصر المهجور ؟ من يجعل طيف الأم يزورك كالمصباح المسحور ، يتبع خطوك فى جوف المد المسحور ، جوف التنور . يرعى سهرك بين الكتب الموحشة كأفواه قبور ـ سر يا ولدى وأترك هذى الأوراق الآن ، يحزننى أن تغلبك الأحزان ، بعد قليل سأراك فسر بأمان ، وستأخذ زادك منى وهو كما عودت كثير ، نور من عينى ومن حبة قلبى نور .

نوارى الوجه كما تتوارى الموجة . لمست كتفى يد رعناء ، التفت لأرى رجلا يقف بجانبى ، الى الوراء قليلا ، يجذبنى من ذراعى ويشـير بعينيه ويديه الى باب فى وسط القاعة فى الناحية اليسرى ـ لم يجذبنى الباب كما جذبتنى رائحة زخمة تعبق من دفء اللحم . لمحت على ذراعه الأيسر صينية فضية موشاة بالذهب والفضة والطيور وأوراق النبات . هبت منها الرائحة العطرة فأفاقت كل خلاياى . انفتحت كالأفواه الجائعة بلا استئذان . **صحت بأعلى صوتى** : ما أطيبك وما أذكاك ! كيف عرفت بأنى جائع ؟ **وضع السبابة فوق الشفتين وقال** : حذار ! صاحب هـذا العرش وسدنته غرقى فى الأفكار ـ فاطرد هذا الخاطر كى لا تنزعج الروح وهيا اتبعنى للدار ، فالخطر قريب منك ـ **صحت بغضب** : ماذا تعنى ،

أى خطر أو أخطار ؟ جذب ذراعى . همس بأذنى : انظر ! قلت : لاشيء هنالك ، أنت تخرف . عاد الى الهمس : هناك ! هناك ! أنظر عينيه الحارقتين كجمر النار ؟ يزحف نحوك أنت ـ حذار ! صحت به : من هذا ؟ لا لا شيء .. لست ألاحظ غير ظلال أو أرواح ، نسمات تعبث بالأوراق ولا ترتاح ، ومشاعل ساكنة الضوء كأعماق جراح ـ ماذا تقصد ؟ ـ ألجمه الصمت أو الذعر . تراجع خطوتين للوراء ، بعد قليل رأيته يزحف نحوى فى بطء . تسبقه جمرتان محمرتان . أمسكت بسترة النادل السوداء ، لابد أننى أفسدت أناقته التى لا تناسب رهبة المكان . تشبثت بطرفها وصحت : عقرب ! عقرب يتقدم نحـوى . وعلى يسلط عينيه ويشرع طرف السن المسموم . هيا نمضى ! فالروح المطلق لن ينقذك ولن ينقذنى منه . لن يحمينى من لدغته كل الحكماء .

قال النادل وهو يصحبنى الى الباب : لكنك ستعود اليه ـ بعـد تمام الدورة ستعود اليه ـ سألت : أعود اليه ؟ من أين ؟ أين أنا الآن ؟ قال فى غموض : حتم أن تكتمل الدورة ـ أو لم تسمع كلمات الجالس فوق العرش ؟ قلت وأنا أحث خطواتى وأتلفت مذعورا نحو العقرب الذى تسلل شبحه الأجرد بين الجماجم وغاب بينها : حقا هذا هو ما قال . حتم أن تكتمل الدورة ـ لكن بعد الشبع من المأدبة الكبرى ـ وأشرت الى الحمامة أو اليمامة المحمرة التى يلمع عليها الدهن ، ابتسم النادل فى لطف ، لم يخرج من شفتيه حرف ..

***

٢ ـ صبى فى يده ناى :

وجـدت نفسى فى ردهة كبيرة غارقة فى ضوء النجف البللورى ـ مثل الردهات الناصعة فى فنادق المدن الكبرى ـ على اليسار صندوق خشبى عال ، ومن وراء الزجاج يقف فى الاستقبال عاملات جميلات وموظفون فى حلل سوداء . ينحنون ، لا أدرى ان كانوا يرحبون بى أم يرثون لى . فالبسمات أحاجى لن تفهم أبدا ، وذئاب الغابة فيما يروى تبتسم قليلا لضـحاياها . أبتسـم للنـادل وأسأل عن دورة الميــاه . يرد عرو أيضا بالابتسام . فأعتذر بابتسامة أكبر . أقول لنفسى لعن الله الرعب . هذا من أثر العقرب . يأتى صوته : هل يمكن أن تنتظر قليلا ؟ ـ تتسع البسمة فى شفتيه عن المألوف : أما أنا فستجدنى عندما تحتاج الى ـ ستجدنى دون انتظار . أشم الرائحـة بعمق ، تصبح بسمته ضحكة ، يجرى كالطائر تترنح فوق يديه حمامة جوعى . يختفى عن عينى اختفاء السراب عن عين الظمآن . تخترق السكين مثانتى . فأزم شفتى . يشير

عامل مهذب بابتسامته أكثر من يده الى مكان الحمام · أهبط درجات ، أصعد درجات أخرى ، تخطف بصرى الجدران الناعمة بلون الفيروز · تستقبلنى حسناء بيضاء سمينة · فى خديها غمازة · هى أيضا تبتسم وتضحك · تعطينى الفوطة والمنديل وتلمس يدها ـ خطأ ـ موضع عضو حساس · ترمقنى لحظات تزفر فى وجهى عطر النار من الأنفاس · أبتسم بدورى وأقول بحب : هذا من فضل العقرب ! تضحك ، تخبطنى أسفل ظهرى وتموء : ما خابت نظراتى أبدا ، والعقرب فى داخله عقرب ! ألمس يدها البضة : معذرة يا حسناء · أتمنى أن أشبعك وأروى ظمأك . لكن أخشى يفلت منى النادل ويطير حمامى الزاغل · قد أبقى فى فندقكم أياما أخرى · فانتظرى يوم لقاء عاجل · **تتأوه ·· تنظر فى مرآة :** فندقنا ؟ يوم لقاء ؟ ليتك تعرف نفسك ، تعرف من نحن وماذا نقصـد · لكنك تجهل كل الأشياء ـ تجهل من أيامك أو أعمالك حتى الأسماء ـ قحة وغرور من شفتين وأسنان كالبللور · أغلق خلفى الباب · أفتحه بعد قليل · ما زال الصوت يرن بأذنى والأصداء : ليتك تعرف نفسك ، تعرف من نحن ·· أين الحسناء ؟ حتى أنت تمصين دمائى ؟ أصعد الدرجات منتعشا، ما أجمل صنع الماء ! يلقانى رجل فخم ضخم كالكابوس · يغلق عينيه وسترته ويقول بأدب جم : يا سيد ، أين بطاقتك الصفراء · أتحسس جيبى ، أعجب لعبوس الوجه ، أحـاول أن أبتسـم قليـلا ، ألمح عينـا ترمقنى ، عينا أخرى ، كل الأعين سوداء وكل الأوجه غبراء · أصرخ كالمجنون : ضاعت منى حافظة نقودى ، سرقت ، نشلتها الحسناء !

ـ حسناء ! أية حسناء ؟

ـ أغرتنى ، سخرت منى حين رفضت الاغراء ·

ـ أية حسناء ؟ نحن نراجع كل الاسماء · أين هويتك ·· تكلم ··

لم أتكلم · رشـقتنى الأعين كأفواه البنادق · التصقت بصدرى كذباب الموت الأسود · **تحسست جيبى ثم هتفت :**

ـ سرقت حافظة نقودى ـ هى واحدة منكم · أنتم قطاع طريق ·· أنتم ···

ـ من فضلك لا ضوضاء · فندقنا لا يدخله الا السادة والأمراء ـ أين هويتك ··

تزدحم وجوه حولى . ضاعت منها البسمات · يلتف رجال ونساء · يخترق الصف صبى فى يده ناى · ينفخ فيه فينبعث الصوت الساحر · أين رأيت الوجه الضامر ؟ يتقدم نحو الرجل الضخم ، يمد اليه الحافظة

وتعرف يده الأخرى فوق الناى · أهتف : أرأيتم ؟ حافظة نقودى · خذها ، افحصها أنت بنفسك ـ يتناولها الرجل ، يتمتم معتذرا ، يخرج منها الأوراق · أنظر فى وجه العازف ، يطفو الجزع عليها والاشفاق· يفتح الرجل البطاقة . ينظر فيها ثم يصيح : هل صدقتم ؟ تتزاحم حولى الأوجه . تمتد العين وتمتد الأنف . تهتف أصوات : أعجب موقف · لا اسم ولا عنوان · لا صورة · لا توقيع ولا أختام · أحتج وأبكى ، وأدق بقدمى الارض : هذا سخف سخف ! انى ·· يتدخل الصبى الساحر . يسحب البطاقة بلطف : أنا أعرفه ، قد كلفنى به · ويميل على رأس الرجل ويهمس · يتراجع للخلف وينصرف الناس · يتقدم منى الرجل ويحنى قامته ويهتف : لم لم تذكر هذا من قبل · هذا الفندق تحت الأمر : ماذا تطلب . ماذا يرضيك ؟ تفضل ! ·

يسحبنى الصبى من ذراعى بعد أن ينفخ فى الناى نغمة بارعة ويضع يده تحت أبطى ويقول : سامحهم ، من لا يعرف يجهل · أنا منذ الآن رفيقك ، ودليلك ، خادمك وأكثر · ويخلص ذراعه ويمد كفيه · ترتعش أصابعه على الناى · أسأله ماهذا اللحن ؟ يبتسم ببراءة ويقول : الصعود الى الهاوية !

نتجول من رواق الى رواق ، نصعد درجات ونهبط درجات ، نترك ردهة لامعة لندخل ردهة ناصعة · الجدران يفيض منها الضوء كسطوح زجاج شفاف ، ووجوه الخدم تبتسم وتطرق الى الأرض كأنها تعتذر أو تخفى سرا · ندلف الى قاعة كبيرة تذكرنى رائحتها الحادة بعنابر المستشفيات : نظيفة ، بيضاء ، ناعمة الأسرة والجدران ، ولكنها مخدرة كجسد أبيض ممدود على مائدة الجراح · أنظر فأرى سريرين فى القاعة ، اسدلت بينهما ستارة سوداء ـ يعزف الصبى لحنا عابثا كصفير عصفور نزق ويشير الى السرير الأول ويقول : هذه أول سلمة ، أذهب الى هناك · انها تنتظرك · أهبط بعدها سلمة أخرى وستجد الأخرى تنتظرك ، أسأله : من تعنى ؟ يرمقنى بطرف عينه : أنت الأدرى ـ راجع صفحات كتابك · يرن بأذنى صوت نبهنى فى قاعة العرش : قدم كشف حسابك ! أطرق فى صمت ، أسأله : ماذا تفعل أنت ؟ يبتسم ويعبث بالناى : ما أفعله دوما ، أسمعك اللحن ؟ أكرر السؤال وأنا أضع ذراعى على كتفه : أى لحن ؟ يرفع حاجبه ويقول : كيف نسيت ؟ لحن سقوطك فى الآبار ! يشير الى فأتقدم · يرتفع العزف ورائى · يرتفع أمامى يشبه خطوة طفل عارى القدمين . يتحول أثناء النوم ويبحث عن أبويه ··

ممددة على الفراش كحورية خرجت من الماء ـ الشعر الكستنائى منسدل حول رأسها بغير نظام · والوجه الناصع البياض ، المشوب ببقع

حمراء خفيفة ، يشبه وجه ملاك • وجه صغير شاحب كالهلال النائم فوق السحاب . تشع منه براءة طفل عليل • مسحوب الى أسفل شبه مثلث حاد ، تشعر من نظرتك الاولى اليه أنك مدعو لحماية يتيم • والعينان ضيقتان . خاليتان من التعبير ، والجفنان بلا رموش • تنظران فى بلاهة لا تعرف ان كانت مكرا أو سذاجة أو غباء • توشك أن تهتف حين تنظر فى بحيرتهما الآسنة : هل خلق الله ملائكة عميان ؟ ما ضر لو اتسعت هاتان العينان ، لو ينعكس بمرآتهما ظل خيال أو وجدان ؟ لكنك تغفر وتسامح ، فالفم مفتوح ذابل ، والفجر يطل من الأسنان فيغسل كل سؤال •

ممددة على السرير اللامع ، تجرى يدها الباردة على أزرار الفستان • لاحظت تبلدها وبرود أناملها وشحوب الكف • قلت لنفسك ان اليد والعين مرايا النفس • والنفس المتبلدة تناسبها عين باردة أو كف متجمدة الحس (كل الأرواح تنال الأجسام التى تستحقها ، درس من علم الفراسة) • لكنك كفنت الخاطر فى أكفان النسيان • فاليتم الآسر فجر فيك ينابيع حنان •

ـ أنت ؟ قالتها وأشاحت بوجهها الذابل المستطيل •

ـ أتذكرين ؟ وقفت بعيدا أنظر فى استحياء ، نفس الخجل ونفس الطيبة والتسليم •

ـ أنا الآن أم أولاد •• لم جئت ؟

ـ جئتك من صومعة الزاهد والمنحوس ـ جئت كما يأتى الطيف أو الكابوس • جئت ـ كما قلت ـ بوجه السكير وقلب الصوفى الشاعر ، ويقول العابر فى عرض الشارع ضعة وخنوع • يذهب فى بيت الصمت فيهتف من هب ودب : « فصام » • يكتب عن قدر العالم والانسان فيسرع أرباب الحكمة : مجنون خائب • يبنى سجنا هو فيه سجين والسجان يحنو كالأم فلا يقبل منه حنان ، ذلك أليق بالزهاد أو الكهان • لا تك قديسا وسط كلاب وذئاب • من لا يأكل يؤكل ، والسمك الصالح تبلعه الحيتان ؟

ـ أف ! عدت لنفس الموال ، أ أنت كتاب مفتوح ؟

ـ عفوا •• كم حدثتك عن كتبى ، عن أحلام الغد ـ كم قلت وكررت عليك : هى عندى لقمة عيش أو صنعة ، وهى كذلك متعة ، أما الحب ••

ـ الحب ؟ شبت فى الجسد البارد شعلة نار • عض الشفتين سعار ، هب الاعصار على النهدين وثار ، أصاب العينين دوار •

ـ أجل ٠٠ الحب ٠

ـ لم تعرفه أبدا ٠٠ تذكرين يوم سألتك عنه ؟

ـ أذكر ٠٠ ذنبى أنى أكتم سرى ٠٠ أسرف فى الكتمان ٠٠ كان الشفق الشاحب يكسو الأشجار ٠ أدركت أنك أسدلت على المأساة ستارا بعد ستار ٠٠

ـ حدقت بوجهك ، بالشعر الأبيض فى الرأس ٠ أطرقت وخاطبت النفس ٠ أنا بنت اليوم وأنت الذاهل وابن الأمس ٠ يطفر من عينيك الحزن ويكســـو وجهك لون اليـــأس ٠ أى دواء يشـــفى داء الميت فى الرمس ؟

ـ قلت الحق ٠ لكنك ما قلت الصدق ٠ أحببت سواى وما كذب على القلب ٠ حدق فى عينيك فشاهد غيرى يسخر من بلواى ٠ مرت تلك الأيام تداعى برج الأحلام ٠٠

ـ حقا أحببت سواك ٠

ـ ولماذا مثلت الدور ؟

ـ كان عنيدا مغرورا ٠ فأخذت بثأرى منه ٠

ـ أغرقتك بحنان الأب ٠ فلماذا أنكرت الحب ؟

ـ حقـــا كنت كأب ٠٠ هل تذكر ما أفضيت اليك ، عنـد لقائى الأول بك ٠

ـ أذكر ٠ أذكر ٠ لا أنسى لكن أغفر ٠

ـ كنت كأب ٠ وبهذا حدثنى القلب ٠ لكنى أفتقد بجانبك الحب ٠ أفتقد شباب القلب ٠ حزنك قد سد على الدرب ٠

ـ حزنى ، ما أنا حجر أو صخر ٠ حزنى قدر العمر ٠ وهو الميراث المر ٠ فى بلدى يولد كل الأطفال شيوخا ، يقتل حتى الزهر ٠ حزنى ؟ من مسئول عنه ؟ وطنى ، أرضى ، بذرة أبوى وأجدادى ، أم هذا العصر ؟ سأم الأيام المرة والشرطى الحارس ولى الأمر ؟ الشاعر يا (٠٠٠٠٠٠) يحمل ميزان العالم بين يديه ، ان ثقلت كفته بالأحزان فما ذنب الشعر ؟ أسرع وأطمئنك فلست بشاعر ، لكنى أحيا الشعر ٠٠ أتحسس جرح العالم وأفتش عن وجه الفجر ٠ وأعود كأنى الحصاد العائد بحصاد مر ٠ ولهذا أصمت كالقبر ٠ أكتم سرى ، يوم أموت سيدفن معى السر ٠

أذكر يوم ذهبنا للبستان ، نأكل ونثرثر ، نستعرض أشكال الحيوان. كنت سعيدا كالطفل الأرعن . كالفنان . مشينا على الممشى ، تفرح عينى بالخضرة وتمرح فى عرس الورد وأفراح الطير . أكلمك عن أمنا الأرض ، عن ثوب الطبيعة الحى ، عن الأبدى الفعال الذى ينسج النول الأزلى ، نحن أيضا طبيعة ، نولد ونأكل ونتناسل ونشيخ ونموت كما تموت الأفراد ، لكن يبدو أن الفرد يموت ليحيا النوع . ماذا يمنعنا أن نصبح طبيعة خالصة ؟ هل فكرت فى هذه المسألة ؟ انه العقل ، الفكر . نحن حيوانات . ولكنا حيوانات بائسة مفكرة . نصفنا طين ونصفنا سماء ، نصنع أنفسنا بارادتنا ، بارادتنا نبنى التاريخ ، كل الموجودات بلا تاريخ، الا الانسان . لا يذكر أحد أن النملة والقرد أو الخنزير يسجل تاريخ النملة والقرد أو الخنزير . نعبر بالعقل حدود الكون ، نحاول أن ننفذ خلف السطح ونكشف لب الأشياء . بل نقفز خلف مجرتنا ، تكتشف عوالم أخرى . لا تنس اللغة كذلك . عند الحيوانات اشارات وعلامات . والبعض تطور باشاراته ، لكن الرمز الحافل بالمعنى لم يعرفه سوى الانسان . واللغة أيضا . لكن لماذا لا تتكلمين ؟ هل أكلم نفسى . أمد يدى لأمسك يدك . يرقص فى قلبى حلم العمر ورحلة درب مجهول . تسحبين يدك ، هل خطر ببالك معنى أن تنزع كف من كف ؟ أكتم ، أعتذر . وأغفر ، وأبرر . وأنبهك لألوان الورد وأشكال الشجر وصور العرس الربانى ــ أتكون الجنة أجمل من هذا ؟ لم لا ندخلها ، نسبح فى النهر ونغرق فيه القلب ؟ يمكننا أن نفعل هذا . أقسم لك . فالخلد قريب منا ، والأبدية تدعونا بلسان جميع الأشياء : ذوقوا طعم الجنة قبل الموت ! كذب القائل أن العالم حلم زائل ، أو أن الدنيا جسر عبور . خالدة كل الأشياء تشع خلودا . حتى النبتة فى الحقل ، حتى الشوكة فى الصحراء ، حتى النظرة فى العين . لكنا ضيعنا الدهشة . وغرقنا فى العادات الهشة ، تجرفنا فوق بحار العالم كالقشة ــ وتقاتلنا وتخاصمنا وخلقنا فى الأرض جحيما ــ أتكون جهنم أسوأ من هذا العالم ؟ أتكلم وأثرثر وجبال الصمت عليك ترين . ماذا فى صدرك تخفين ؟ ندخل مطعم الجزيرة . نأكل ونتطلع للبط الوديع ، أعود أحدثك عن سلام الروح ، ترمقنا الأعين وتباركنا عين عجوز طيب ، جرب ما جربه حتى تعب القلب . ويشير الينا طفل يتأملنا عن بعد . هل يرقب منذ اللحظة سر تفتح قلب الورد ؟ تسألينني هل أنت متصوف ؟ **اضحك واقول** : لم أبلغ هذا الشرف العالى بعد . تنقصنى الخبرة والفن .

ــ لكن لا ينقصك الحزن ؟

ــ وجد الصوفية جهد ، رؤيا يكسبها الله لقلب العبد ، فتطيب

النفس وتسكر من خمر الوعد ، ويفيض عليها النور وتترك سجن الجسد الصلد ـ هذا شيء لم أعرفه بعد ٠

ـ ماذا يمنع من بذل الجهد ؟

ـ يمنعنى حبى لك ٠٠

أضحك وأحاول أن ألمس يدك وخـــديك فتبتعدين ، وتعـودين الى الصمت ٠ أشعر لحظتها أن كيانك يتلفت ناحية أخرى ٠

ـ **تسألين لمجرد السؤال :** ومن هو المتصوف ؟

أربت ظهـرك بيدى وأهتف : أنسيت دروس الأمس ؟ وتجيبـين بسخط : هل أذكر شيئا دخل الأذن وما دخل القلب ولا الرأس ؟

ـ معك الحق ٠ من علمك الفلسفة بعيـد عنها بعـد الأرض عن الشمس ٠ لن يدخل من باب الحكمة من لا يحمل معه الدهشة والشوق ٠

تغرقين فى سكوتك من جديد ٠ أتذكر أننى لم أجب على سؤالك ٠ أغالط احساسى ٠ **أضحك وأقول :** المتصوف من لا يملك شيئا أو بالأحرى من لا يملكه شيء ٠ تهللين كطفل نزق مكار ٠ وتصيحين بملء الصوت : هذا أنت ! يغرقنى الصمت ، يدثر رأسى ليل الحزن ٠ ما أغرب هذا ؟ هل يمكن أن ينسدل الليـل نهارا فى عز الشمس ؟ أدرك أنك أبعـد مما فكرت ٠ يقطع صمتى رجل عال كالنخلة ٠ فوق الرأس عمامة كبيرة ٠ تعلوها ريشة طاووس أو ديك ٠ أضحك فى نفسى : ديك الجن ؟ ما أغرب حال العشاق ٠ يكتب بالابر على الآفاق ٠ أرد عليه سلامه ، يجلس دون استئذان ٠

ـ هل أنت هندى ؟

ـ أكل عيش يا بيه ٠

ـ أنا لست بيه من فضلك ٠ أنا مثلك آكل عيش ٠

ـ تحت الأمر ٠ أكشف طالعك وطالع هذا القمر ٠٠

ـ **أسأل :** كم من فضلك ؟

ـ العين بصيرة ، واليد قصيرة ٠ ما تدفعه يا بيه ٠

ـ **أصيح بغضب :** قلت لك لست بيه ولا باشا ٠ أنا مثلك انسان وفقير مثلك ـ والشرط على رأيك نور ٠

ـ **نور والله ونور ٠**

ويمد يديه فيأخذ كفك • يبتسم ويشرق وجهه • ينظر نحوى • يصطنع الخبث • **يهتف باستغراب مغشوش :**

ـ بنتان وولد • أيام هناء والاسم سيبدأ بالهاء • أموال ، سفريات، أعمال تسند لك • فحياتك عمل لا يهدأ • والغد طالعه سعد •

تطرق رأسى تبتل العين • يبتسم الشك على شفتى : والغد رائع • أبحث عن عينيك الخاويتين لأقرأ وجه الأمل الضائع • يمضى الرجل يقول •• أسمع عجلات قطار •• صوت شهيق وزفير يمتد •• يطول •• أنظر فى عينيك وفى عينيك ذبول •• غيم وسحاب وأفول • ينصرف الرجل ونمضى بعد قليل • وأحاول أن ألمس يدك فتفلت منى كالعصفور • قطع الشك يقين • أتساءل : أنا سجان أم مسجون ؟ وأحاول أن أضحك •• أسكب شلال الكلمات • نعبر بالحيوانات • أضحك وأشير لقرد : لست بخير منك • فأنا أحيا فى قفص مثلك • وأشير اليك • أقرأ آيات الكره على خدك وجبينك ويديك • أتكلم عن نظرية داروين • هذا القرد الأعلى ـ أترين ؟ انظرى لوجهه وعينيه وتشريح جسده • هو أيضا يلعب ويضحك ويبدو أحيانا بذكاء الطفل • انظرى اليه والى • ثم انظرى فى مرآتك • الفرق بسيط • بضع ملايين سنين • والمخ صغير الحجم • لكن من يدرى ؟ قد يرقى هذا القرد ويصبح انسانا أعلى •• أسمعت عن الانسان الأعلى ؟

ـ نصل الى محطة السيارات • جسدك بجوارى ، ويدى يمكن أن تصل يديك • لكن البحور تفصلنى عنك • أتأمل وجهك ، خدك ، عينيك• ما يتمنى الانســان محال • والقبلة حلم أو قمة جبل عال • يأتى الرقم المطلوب • نتفق على وعد لقاء •

يوم وقفت لأنتظرك فى « التحرير » • يمضى الناس حوالى وتفحص وجهى عين غنى وفقير ، وتمر اللحظات مرور الخيل فتصهل وتثور ، لم خنت الوعد وكذبت ؟ الحب غريب فى بلد يخنقه حراس الموت ، سقطت كل الأقنعة ولم يبق سوى الصمت ـ الباقى صمت ـ الباقى صمت •

ـ الباقى صمت ـ هذا أصدق ما قلت •

ـ يفاجأنى الصوت • حلوا رقيقا كالحلم • أهتف كلقيط وجد أباه : هذا أنت ؟

يبتسم الصبى ويرفع نايه السحرى الى فمه • ينفخ صفارة عصفور عاشق • وجد العش الدافىء والماء الرائق • تلمع أزرار السترة كالذهب النادر • يبتسم الوجه الفتان الضامر • ويشير بيده ، **فى كل بنان ناى ســـاحر :**

_ هل تدرى من تنتظر هناك ؟

_ مـن ؟

_ انظر خلفك من غير غضب !

٣ _ الطرق على باب جهنم :

يا لك حقا من ساحر · تسحر تذكاراتي كالبوذى الناسك يسحر حياته · ألمح شبحا يتقدم نحونا · قصيرة ، رقيقة الوجه ، على عينيها نظارة سميكة ، تسبقها ابتسامة تبرز أسنان الفك الأعلى الناتئة الى الأمام ، جسمها الضئيل كجسم صبى لم ينم ، لايتميز فيه صدر ولا خصر ولا ردف· والقدمان قصيرتان ، أقصر مما يسمح به جسم قصير · فى قدميها جورب أبيض كجورب التلاميذ ، ويداها الدقيقتان المتدليتان من ذراعين نحيلتين كأيدى عرائس الأطفال ، لا تتحركان الا عندما يصدر لهما الأمر من الدماغ، الدماغ الضخم الذى يكسوه شعر أشقر قصير هو كل شىء فى هذا الشبح الأشقر · فيمن تراه مقبلا تحس أنه السيد الوحيد ، الفارس الذى يركب مهرا ضئيلا لم يجد سواه · يأمر السيد بحكمه فى كل شىء · ما من عضو الا رهن مشيئته : يتحرك بحساب ، يضحك بحساب ، يبكى يصرخ بحساب · سأل بكل الأعضاء ، تسلل لخلايا الدم أحال الجسم المحسوس الى فكر · والطهر يشع عليها ، منها ، حول الوجه ، كالهالة حول وجوه الشهداء أو القديسين · والطيبة تتجسد فيها ، وحنان الأم · لكن هل يسمو الطين العاجز لمقام القديسين ؟

أهمس للصبى الساحر : المومياء · أنظر وراءك فى غضب !

_ يزيح الناى عن فمه · يتشبث بذراعى كى يخفى دمعة · يفتح فمه فيغلبه الدمع · يوشك أن يهتف : ما أبأس حظ القديسين ، أنتم يا أبناء الفانين ! تربت كفى خده · أطبع فوق الجبهة قبلة · أهمس : هى أمى الصغرى · يستنكر هذا بتعجب ، كأمير هبط من الكوكب :

_ عجبا ! هل لك أمان ؟

_ كم ترعانى وتعوضنى عن فقد الأم ·

يتوارى الصبى وهو يصفر لحنا لا أعرف معناه · هل يمكن أن يعزف لحن الفرح المحزن أو لحن الحزن المفرح ؟

تتقـدم يدها خطـوتها المسرعة وتطفر كالعصفور · تنطق اسـمى محذوفا منه حرف العين ·

ـ لم تكن تنتظرنى · اعترف !

ـ أعتذر ، أتمتم لا أدرى كيف أجيب · لو قلت الصدق أجبت بأنى لا أنتظرك · وأنا لا أكذب ·

ـ تميل على بعطف لم أعهده ولا أستحقه · تطبع قبلة على خدى : تعلم أنى معك وان غبت · أبدا لا أنساك ·

أضحك وأقول : طبعا · أنت الأم الصغرى ·

فتجلجل ضحكتها الصافية كما لو كانت تنشج باكية ، لكنى لم أحبل بك · هذا شيء كنت سأندم طول العمر عليه !

أطرق ، أغمض عينى : ذنب لا حيلة لى فيه · لكن ما العمل الآن ؟ تمد ذراعيها وتكاد تحضننى · أتحفظ كالعادة . يغمرنى احساس الذنب مع العرفان · تهتف وهى تشد ذراعى : يسأل مثلك من لا عمل لديه · نعمل ما كنا نعمل · حتى تترك حزنك هل يتركك ، أليس هناك دواء ؟

أسأل نفس سؤالك : لكن ماذا نفعل ؟!

ـ نذهب للغابة · للجبل الأخضر · للزحلقة على الثلج الأبيض · نجلس فى الكوخ قليلا نحسـو القهوة والشـاى · تغسل ثوب همومك بالأمطار · تفتح للنور ذراعيك وصدرك على اله النور يضمد جرحك · تقرأ فاوست ، أو تسمعنى شعرك أو قصصك · لن أفهم شيئا ، لكنى أتذوق لغتك · تعطينى درسا فيها ؟

فى ليلة سـفرى جاءت تزورنى · يدها كالعادة محملة بالهدايا · شيء ضخم ، بل أشياء ، ملفوفة بالورق الملون البهيج والشريط الذهبى · ما أبدع ما تختار · **حتى أمى لا تصنع هذا :** مختارات من شاعرها الأكبر · موسيقى للمتمرد الأصم الذى تعلم ضعفى نحوه ـ أغانى الحب الفرنسية التى تؤكد رومانسية لا شفاء منها · مجموعات الحكمة الشرقية والصينية : من طائفة الزن وتشوانج تسـو · شطائر محشـوة بالجبن الذى أحبه · وفطائر تفاح تعرف حبى له · ربطة عنق وقميص ، أزرار للأكمام ، دهان للحذاء المهمل ، صور محفورة على الخشب للمدن التى زرناها معا والمدينة التى عشنا فيها : للسوق وبوابة مارتن ، للنافورة فى الميدان ، للجامعة وتمثالى هوميروس وأرسطو فوق السلم ، للكاتدرائية والبرج العالى والديك الدهبى عليه ··

ـ كل ما يبتدىء ينتهى ·

ـ أنشـغل بحزم الحقائب وترتيب الكتب · الحجرة مهملة على غير

العادة · كم رتبتها بنفسها ونظفت الدولاب والمرآة ووضعت الفوطة فى مكانها ·

ـ لكن لكل نهاية بداية جديدة ·

ـ تغضب وتشيح بيدها : بالله سألتك لا تتفلسف ·

ـ أصحح خطئى ـ : ولكنى لا اتفلسف · على الأقل الآن · أرجو أن نتلاقى ·

ـ تضع يدها على خدها · تتفحص عيناها عينى · هل يصدق مرة ؟ أؤكد أملى فى المستقبل : ستزورينني حتما ·

ـ يتهلل وجهها وجبينها الذى بدأت تغزوه التجاعيد : حقا ! وأرى الأهرام وأبا الهول ؟ ·

أغتصب الضحكة : وأبا الهول الحى !

ـ تعيد يدها الى خدها · أتحاشى نظرة عينيها ·

ـ ليتك تعرف معنى ما قلته ·

تسكت · تنفرج شفتاها ثم تنغلقان · أقرأ اليأس على وجهها · أحاول أن أفلت من الدائرة · أقدم لها صندوق السجائر فترفض · وصندوق الحلوى فترده شاكرة · ترى ارتباكى فتنهض وتقلب الكتب · تخرج يدها الصغيرة كتابا صغيرا تبحث فى صفحاته **ثم تقرأ** :

(ساكن لا عمق له ، واحد لا يتغير ، نافذ فى كل شيء ، وهو لا يتعب أبدا ، ربما يوصف « أم الكون » أو جذر الوجود · بيد أنى صرت لا أعرف اسمه · خفى ، لكن فى كل مكان ، فعال ، لكن لا يعمل شيئا · طيب القلب أنا مع كل طيب ، وأنا أيضا مع الأشرار طيب · موجود ، لكن لا يعرف فى أى مكان ، يفعل ، لكن لا يعلن عن فعله ، ينتصر ولكن لا يحتفل بنصره · ، لين ،لكنه قوى ، ووديع ومسالم · هو كالماء بسيط ونقى ـ قديس من غير قداسة ، وقوى من غير سلاح ، يملك لكن لا يتملك ، يتمنى ألا يتمنى ـ ليتنى أعرف اسمه) ·

طوت الكتاب ووضعته على حجرها · راحت تتفرس فى وجهى ·

قلت : انه « الطاو » ·

قالت ضاحكة : ما أغباك ! بل هو أنت !

حاولت أن أعتذر : شرف لا أصل اليه · أتمنى لو أعرف نفسى ·
قالت مؤكدة : حقا · ليتك تعرف نفسك ··

تشاغلت مرة أخرى بترتيب أشيائى وكتبى واسطواناتى ـ رحت أردد كلاما لا معنى له وأتمتم بأغنية لا داع لها : هل تسنى لأحد أن يعرف نفسه ؟ حتى سقراط يشككنا فى هذا ـ ما أكثر هداياك ـ اننى لا أجد لها مكانا ـ لو لم تهدنى هذه الكتب والاسطوانات و ·· و ··· و ··· لما وجدت مشكلة فى حزم الحقائب · كانت تكفينى حقيبة واحدة · أثرثر وأحاول أن أضحك وأتغابى وأتخبط كطاحونة · كنت قد سرقت نظرة الى عينيها · غارقة فى الدموع · أرجع للثرثرة التى تبحث كل لحظة عن وقود جديد · لكننى أتبين عجزى · أكتشف براعتى المفضوحة فى الهروب منه · ألمحها تجفف عينيها وتنهض على قدميها وتقول بعدم اكتراث أحمى من السكين : يا ·· يا ··· هل نتمشى قليلا ؟

أجيب كمن خرج من ورطة : نعم · فى الحال ·

نغادر الحجرة الى فناء البيت ـ تتوقف عيناى على كل شىء : المدخل الداكن النظيف ، الدرجات اللامعة باستمرار ، صندوق البريد الذى جرب لهفة الانتظار لخطاب لا يأتى أبدا أنظر فى الفناء الصغير ، شجرة لا أعرف فصيلتها تظلل مرتفعين صغيرين عليها نقش أسود جميل الكتابة المطرزة على نسيج ، تحته يرقد « تاســو » كلب العجوز التى أسكن عندها · لم سمته باسم الشاعر الايطالى البائس ؟ أنظر لواجهة البيت ، نعبر المشى الظليل الى باب السور المنخفض الذى يؤدى للشارع · أتوقف أمام نافذة حجرتى · هل يمكن أن أرجع مرة أخرى ؟ الأيام التى عشتها والليالى التى سهرتها والكلمات والضحكات والأحلام والهموم ولحظات اللقاء المختلسة واللذات البائسة والقراءات والأفكار ·· لماذا يموت شىء فينا كل لحظة ؟ لم يفتح الماضى فمه العجوز ويبتلع كل شىء ؟ كيف نوقف نهر الموت البطىء لحظة واحدة ؟ النهر يجرفنا ، قاربنا ينحرف معه ، والهاوية مستعدة على الدوام · كم مرة عبرت هذا الشارع الصغير كم مرة فوجئت بالقمر يطالعنى خلف الأشجار والبيوت المنحدرة السقوف وأبراج الكنائس كأنه وجه طفل كبير يغرق فى بحيرة ذهبية ؟ كم أيقظنى من أحلامى وأنا متأبط حقيبة كتبى مهموم بالأفكار التى أصارعها وتصارعنى ، ذاهل عن نفسى والأرض التى أسير عليها · كأن الطفل السماوى يتربص فى كل مرة ، وعينه الواسعة الملتهبة ، تنسل الى قلبى فجأة لتســألنى : من أنت ؟ ـ وكم هربت من السؤال ، كومت الكتب والأفكار على رأسى ، استندت لعكازة أمل واه ، خلقت المبررات والمبررات ··

يقظني صوتها : لحظات الوداع كالثمار الناضجة المتساقطة من الشجر . من يدرى متى ترجع لهذه المدينة ، لهذا الشارع ، للقنوات الرقيقة الجارية على جانبيه ، لأشجار السيدر والزيزفون التى عبرت بها كثيرا ..

ـ عبرت بها وبكل شيء . أليس الانسان عابرا على الدوام ؟

وضعت يدها فى يدى وقالت : هذا ما تقوله . ولكننى أشك فيه .

سألت : كيف ؟ آلا ترين كل شيء يصبح ماضيا ؟

ضحكت وصنعت بيدها قوسا دار حول الأفق والبيوت والأشجار : المهم أن يحيى الانسان كل ما حوله . عندئذ يحضر فى كل خلاياه ويملكه للأبد .

ـ الأبد ؟ أليست كلمة طويلة جدا ؟!

ـ رجعت لاكتئابك . لاأمل فيك . أنا مثلا ...

ـ أنت ؟ ماذا تقصدين ؟

ـ هل أصبح تاريخا عندك ؟

ـ تاريخ لا ينسى أبدا ..

ـ أبدا ؟ أرأيت ؟ كلام فى كلام فى كلام .

ـ اننى أعنى ما أقوله . لا يمكن أن أنسى وجودك بجانبى ، هداياك ، قراءاتى معك ، عذابك فى اصلاح كتاباتى ، رحلاتنا مع الأصدقاء فى الجبل والغابة . دعوات الشاى مع الأغراب فى حجرتك ، ألم أقل لك ؟

ـ ماذا ؟

ـ انك أمى الصغرى .

سكتت . قلبت طرفها فى السماء المكفهرة بالسحب الثقيلة . مدت يدها الى شعرها وشدته . تحسست صدرها الضيق ورقبتها النحيلة : ألا تكف عن كلماتك الغبية ؟

ربت على ظهرها . أحسست بعظامه الصلبة الناتئة .

ـ معذرة . كنت أعنى ما أقول . لم يحبنى أحد مثلك ..

ـ وتقولها الآن ، فى ليلة سفرك ؟ ـ يا صاحبى ـ نحن نأتى دائما متأخرين . هل تذكر قائل هذا ؟

ولكننى أحببتك حقا ــ كنت الأم والأخت والمرضة والقديسة ٠

قالت في سخرية أهون منها اليأس : قديسة ؟

قلت بحماس : هذا ما أومن به ٠ لست من هذا العالم ٠ أتعرفين ماذا يخطر لى كلما رأيتك ؟ ماذا أتمناه !

قالت : ماذا ؟

قلت : أقبل طرف ردائك كالمؤمن يلثم طرف رداء ولى أو قديس ٠

صاحت في غضب : قديس ــ قديسة ــ متى تفتح عينيك ؟ ليس بأوروبا قديسات ــ الا فى الصوامع أو الأديرة ٠ العذرية التى تهتمون بها تلاشت من الوجود ٠ أنا أيضا لى أخطائى وخطاياى ٠٠

قلت في هدوء كأنني أعتذر : لا أصـدق ٠ ولو رأيتك مع عشرين رجـلا ٠

ردت في تسامح : الخطأ بشرى ٠ أليس كذلك ؟ كل هذا من فكرتكم عن المرأة ــ ألم تقل لى هذا من قبل ؟

ــ معك الحق ٠ فكرتنا الموروثة من روح البدو تحلم دائما بالمرأة ٠ لا بانسانة واحدة محددة ، شخصية لا تتكرر فى عمر البشرية ٠

ضحكت وقالت : ويستحسن أن ينقلها البـدوى الملثم الراقد فينا ويضعها فى الحريم ٠٠ خصلات شعرها الأسود منسدلة على كتفيها ٠ لحمها أبيض كالعاج ٠ أردافها ضخمة كالناقة ٠ ضعيفة وشاحبة ومستسلمة ٠ وحين ينام معها يحقق نصره المفقود مع العدو ٠ فالعدو يرقد أمامه فى خضـوع وذل ، مهزوما حتى كل خلية فيه ٠٠٠ التفتت بحب استطلاع حاولت أن تخفيه : ولهذا تركتها ؟

ــ تقصدين (٠٠٠٠٠) ؟

قالت بأسى : عندما عرفتك بها تمنيت أن تجد فيها ما تبحث عنه ٠ شعرها الطويل ، عيناها الخضراوان ، حيويتها ونضارتها ويتمها أيضا ، ألم تكن مجنونا بها ؟

قلت وأنا أشيح بيدى : واهانتها لى ؟!

استنكرت : لا يمكن أن تفعل هذا ٠ (٠٠٠٠٠) طيبة وتحبك ٠٠

أردت أن أغلق بابا تأتى منه الريح : لا داعى ٠ انتهى كل شىء ٠ لقد أهانت بلدى ٠٠

حاولت أن تعتذر عنها : ربما كانت فلتة لسان · لا يمكن أن تقصد هذا · أنت دائما حساس أكثر مما يجب · تخلق أوهاما وتصدقها ·

اشرت بيدى لأسدل ستار الختام : لم تكن تكف عن الاتهام : أنتم ·· أنتم ·· أنتم ·· كأننا من طينة الأقزام وهى من طينة العمالقة · انى أشكو بلدى حقا · أحزن لتخلفه البشع ، أحاول أن أقرع أجراس الخطر ليصحو ، أجلده بسياط النقد ، لكنى أعبده ، أدفع عنه الحقد ··· انها لم تحبنى أبدا ·

ـ كنت أشعر أنها سعيدة بجوارك ·

ـ سعادة السيد الذى يسحب كلبا من نوع نادر ··

ـ أف من لسانك القاسى ـ أتظل مازوخيا للأبد ؟ طالما أكدت لى أنها تحبك ·

ـ لنترك هذا · قلت لك « ايروس » يكرهنى · استخسر سهامه فى · هل نجلس فى مكان قريب ؟

ـ أتحب أن نتعشى ؟ مطعمك المفضل قريب ·

ـ لا · لا· لقد تأخرنا · لا نفس لى ··

هتفت كأنها رأت معجزة : أتعرف الى أين ؟ الى حبيبتك القديمة ·

صحت ضاحكا : لا مخلص الا الموت ! فلنذهب اليها ·· ! ··

٤ ـ عروس ماتت فى حضن كتاب :

لم تكن أول مرة نزورها · انها ترقد هناك ، آمنة وادعة فى سلام المقبرة القديمة · أعرف الطريق اليها · أوشك أن أعرف عدد الخطوات الى قبرها ، على اليمين بعد البوابة العتيقة المجللة بالورود والتيجان ، فى الممشى الضيق المخضل بالعشب ، خامس شاهد على اليمين · كم صحبونى اليها . كم حدثونى عنها · أستاذ اللغات السامية الطيب ، ذى الحاجبين المرتفعين كمنقار النسر ، صاحبتى الأولى التى جرتنى اليها وصممت أن تكون أول قبلة تسمح بها الى جوارها وبالقرب منها ، الدليل السياحى الذى أرشدنا لآثار المدينة وانهال من فمه شلال الذكريات والمعلومات الموثقة عنها · وهى دائما هناك · ممددة على القبر بردائها الشفاف الذى لبسته لآخر مرة · وثنيات الرداء منسكبة فى منحنيات رقيقة مع جسدها النحيل كجسد ملاك · ذراعاها متدليان على صدرها فى استسلام القديسات . ويداها تمسكان بكتاب مفتوح سألت عنه فقالوا هو الكتاب

المقدس · تشع من وجهها وعينيها الطيبتين الحالمتين هالة الورع والجمال والرضا ، كأنها « أوفيليا » الطافية على صفحة غدير صاف · يخيل للعين فى كل لحظة أنها تخلص نفسها من الرخام الرمادى الداكن وتطير فوقه · كيف استطاع الفنان الذى نحت تمثالها أن يقهر الحجر ، أن يحوله الى نهر حزين شفاف · أن يثبت الحلم فى طينته ويطلقها فى نفس الوقت من قبضته ؟

كنت أستعيد الذكريات ونحن فى الطريق اليها · ظلت عينى ترصد كل ما تراه ، الشجرة التى رأيت السنجاب يتسلقها فى خفة وجنون ويتلفت نحوى مذعورا ، البيت الملون الواجهة بالأخضر والأبيض الذى دخلته مرة بدعوة من فلكى ومنجم أراد أن أترجم له لوحة كبيرة بأبراج السعد التى تنتظر الملك السنوسى وينوى اهداءها اليه فى عيد ميلاده ، مكتب الصحة الذى طعمتنى فيه ممرضة حنون ضد شلل الأطفال · الطريق الضيق الصاعد نحو الغابة الذى سرت فيه لأول مرة مع زميلة ذاهلة العينين طيبة الوجه ظلت طول الوقت تبدى اعجابها بلوكريشيوس وطبيعة الأشياء ·

يقطع ذكرياتى صوت ينبهنى الى بداية المقبرة : هاه ! هل امتلأت الكأس ؟

قول ضاحكا وأنا أنفض رأسى : ودائما تفرغ !

تسبقنى للدخول وتقول وهى تضحك : غدا تمتلىء بخمر جديدة · منْ يدرى ماذا ينتظرك هناك ؟

نمشى على الدرب المؤدى الى الكنيسة الأثرية الصغيرة · تبين لى أسماء الأشجار التى نمر عليها كأنها زرعتها بنفسها · باقات الورد على القبور ندية لا تزال · تحس دهشتى وتقول : كان أمس هو الأحد ·

أسألها : هل هناك من لايزال يذكرهم ؟ ألهم أبناء هنا فى المدينة ؟ تقول : انها مغلقة منذ ثمـانين سنة · ولكنها أصبحت متحفـا · هذا هو طبع الناس هنا · شيء مهين ومزعج كما ترى · معظم الأسر انقرضت ، بعضـها ما يزال له أحفـاد · ولكن أهـل المدينة يعتبرونهم كأهلهم ، يزورونهم كل أحد ويضعون هذه الزهور ···

ــ والعشاق أيضا ··

ضحكت فى خجل : ولا يطيب لهم العناق الا هنا · خصوصا قرب حبيبتك !

أضحك أنا أيضا : اذا تعالى نجرب حظنا !

نحن يا صاحبى أتينا متأخرين · دائما متأخرين ·

نزور الكنيسة التى زرتها أكثر من مرة · نقف عند رسوم الحائط ونشرح ماسبق أن شرحته بالتفصيل · تحيط عيناها بالنقوش وشموع المذبح والجدران النشعة بالرطوبة والسقف المزين بصور الملائكة والقديسين كأنها تعانق أشياء فى مسكنها الخاص · تتمتم شفتاها بالأدعية وتصنع علامة الصليب ونخرج · نمضى الى العذراء صاحبة الكتاب . تقف أمامها خاشعة كأنها تراها لأول مرة · أتلمس معهـا الشـاهد والنقش، وأمر باصابعى على حنيات الرداء والوجه المستطيل الحزين والعينين المغمضتين فى الحلم الطويل ·· تتراجع للوراء وتجلس على مقعد نمسح التـراب بمنديلها عنه · تتأمل وجهى وأنا أتجه نحوها وأجلس بجانبها · تعرف أننى سأغرق فى السؤال عن حقائق التاريخ أو سأتمادى فى التفلسف عن الحياة والموت والاستشهاد بالعبارات المحفوظة · تتأمل النائمة قليلا ثم تقول : ما رأيك أن تتزوجها ؟

اضحك وأقول : هو الحل الوحيد !

تستطرد : لا تسخر · انى جادة ·

أهتف : والقرن الذى بينى وبينها ؟

– لا يهم · مثلك لا تصلح له غيرها ، ألا تبحث دائما عن المحال ؟

– وأعيش فيه أيضا · ولكن ماذا يقول أهلها ؟

–اطمئن · كلهم ماتوا · نعقد الزواج الآن ؟

– والشهود ؟ ملائكة وشهداء وقديسون ويسوع نفسه ؟!

– لا تكن سخيفا يكفيك شاهد واحد ·

– تقصدين شاهدة ؟!

– نعم نعم · وسأتكفل بمصاريف العرس ·

– المهم أن ترضى الجميلة · ألا ترفضنى هى أيضا ؟

– لا تهرب · دائما تنهزم قبل بداية المعركة · سترضى حتما ·

– ثقتك فى محلها ، ما دامت لا تسمع ولا تنطق ! هيا نسألها ·

– لن نسألها · سنعقد فورا ·

أقف وأشدها من يدهـا · نلقى النظرات الأخيرة على العـروس الصامتة · تتطفل يدى على وجهها الحالم الحزين وذقنها المدببة الحادة وكتابها

المفتوح على صدرها وقاعدة الشاهد الجرانيتي · تأتي وتمسك يدى · تمد احداها الى اليد التى تلمس الكتاب · تتمتم شفتاها وتخرج منها مقاطع لاتينية أحاول أن أتابع معناها · وتغمض عينيها وتستغرق فى الصلاة · أتعجلها بعد أن لاحظت الشمس قد غربت منذ وقت طويل ·

ـ أخشى أن يقفلوا البوابة !

ـ فى ليلة عرسك وتخاف ؟ يا للغباء الأزلى !

أضحك · يمنعها الخشوع من الضحك · بعد قليل تسير بجانبى صامتة · نخرج من البوابة ونسير فى الطريق الى مسكنى · القمر هلال متعب نحيل يطلع على استحياء · السكون يغمر المدينة ، وأوراق الشجر الصفراء تخشخش تحت أقدامنا · نفترش الظلال الشاحبة · جدران البيوت وأعمدة المصابيح وقوائم الاعلانات · أفكر فى بلدى . فى مدينة الضوضاء التى سأعيش فيها . فى القرية البائسة التى تنتظرنى . فى الهاوية التى تفتح فمها وتهدد بابتلاعى ، فى دوامة التخلف التى ستجرفنى كحبة الرمل الى هاوية الانقراض المحتوم · وتغرق فى الصمت · فيم تفكر هى أيضا ؟ أسترجع الذكريات ، كلها أصبحت ذكريات ، تتداخل الأماكن والأزمنة والأحداث والأشخاص وتتصادم كقطيع هارب أمام العاصفة . نصل الى مدخل البيت الذى أسكنه · تقف وتمسك بيدى : تأخرت · لابد أن أعود ·

ـ لا أدرى كيف أشكرك · السكون يغطى كل ما حولنا · عيون المصابيح تسدل علينا رموشها الفضية · لا نأمة ولا حركة فى الشارع الهادىء · أفاجأ بصدرها على صدرى · تضم ذراعيها حولى وتشدنى الى وجهها · فمها على فمى · لأول مرة يتدفق الدفء وحرارة اللحم فى دمى · ترتجف شفتاها المبللتان بالدموع · يرتجف الصدر والظهر · أتحصن فى قوقعتى الحجرية ·

ـ آه يا (········) لو تدرى كم أحبك ···

فى المدينة الكبيرة كنت أمر عليهن كل يوم · أخرج من محطة القطار الأرضى ·· (المترو) وأطلق عليهن من برج عينى حمامات التعجب والرغبة والشهوة · كن يقفن دائما هناك ، يسندن ظهورهن الى بيت عادى لا يلفت النظر ، على الرصيف المواجه لبستان عادى أيضا . فى الناحية الأخرى من الميدان مقهى صغير يجلس الناس على طواره فى الصيف . حسبتهن فى البداية لا عبات سيرك ، فسراويلهن قصيرة تكشف عن معظم الساق ، فى أقدامهن أحذية عالية الكعب ، على وجوههن أحدث ما اخترع

صناع أقنعة الاغراء · لكنى لم أكن أرى خيمة ولا أسمع طبلا ولا بوقا ، لا صيحة قرد ولا زئير أسد ولا صراخ سباع البحر · وأعبر الميدان الى اليمين لأمشى على الطوار (المؤدى الى مكتبة كنت أتزود منها بزاد العين والقلب . بالكتب الجديدة والوجه الحى الباسم أبدا فيها) وكنت أخطف البصر اليهن لأسرع بالوقوع فى شبكة خجلى وارتباكى ودقات صدرى المتلاحقة · ذات مساء أمر بالميدان فى طريقى الى مسكنى البعيد ، ويفاجئنى الصوت الناعم كسطح الوردة والوجه الأبيض كوجه طفلة صبغوا شفتيها وخديها بالأحمر : ألا تحب أن نبقى معا بعض الوقت ؟ (أتطلع فى وجهها ، أتخيل وجهى يصفر ويعكس ألوان الطيف) لندع أجسادنا تتحدث لبعضها · هذه هى اللغة الوحيدة الصادقة ·

ـ نعم · ولكنى · والوقت متأخر ·

ـ يبدو أنك مثقف ، عيبكم أنكم تقرأون كثيرا · تعال لنقرأ أسرار الجسد · أنا لا أحسن الكلام · أنت غريب فيما يظهر ·

ـ نعم ـ ·· أخشى ··

ـ الى متى تخشى ؟ شعرك أبيض · الحب دواء الخوف ـ هيا ـ بضع سلالم ··

ـ لكن ··· ـ لكن ـ لكن ـ لكن ! أعنى الشرطة ، والجيران ، و·· كم ···

ـ لا تحمل هما · شرقى أنت ؟ لن نمكث طول الليل · لن نخطفك لدينا · الشرطة تحرسنا وتؤمننا ·

مشيت بجانبها صامتا · عند المدخل رمقتنى حبشية فارعة القامة منفوشة الشعر كالمروحة المجدولة من حبات سوداء ، ضحكت أخرى بيضاء سمينة ، فخذاها المتورمتان يثوران على السروال الضيق المخطط · تفتح لنا امرأة لطيفة الوجه مدورة العينين السوداوين ، قصيرة الشعر ، فى أدب مسرف تدعونا للدخول · أنظر فى الردهة اللامعة والأبواب المغلقة · وأتشمم روح السكون والترف والكتمان · أقف وأتردد ـ يارب الشهوة والحب ورب الملك ، لم توقعنى فى هذا الشرك المهلك ؟ ! تمد الفتاة يدها فتمسك يدى · هيا ! هل تستكثر لحظة حب ؟ تبتسم السيدة التى فتحت لنا الباب وتودعنا فى صمت ـ أحس يدها الناعمة ، أخجل من نفسى · جف عصير الشجرة ، لم تبق سوى الأوراق الصفراء ، يا زهر ربيع العمر ألا يصدمك شتائى ؟ ندخل حجرة ساطعة الضوء ، جدرانها الخضراء تورق فى النفس الراحة والأمن · الفراش مرتب ، والسرير عريض ، والى اليسار دولاب بمرآه · تسبقنى الى الفراش وتسحب على نفسها الغطاء ـ لحيرتى

وخوفى من النظر فى المرآة لم ألحظ أنها كانت قد تعرت تماما . تخجل
منى ؟ الحمام أمام الباب . هيا فاتت خمس دقائق . والباقى عشرون :
أذهب للحمام وأخلع ملابسى . هناك أيضا مرآة . لو تكسر كل مرايا
العالم ! أرجع فى « روب » فضفاض . أغلق خلفى البـاب . منظـرك
بديع ــ أأثير الضحك الى هذا الحد ؟ معذرة ــ هـذا البطن ، آثار السن
ــ بل أنت عجوز طفل ــ أول مرة ؟ أدخل تحت الغطاء . أضع الرأس
على الكف ــ مالك ؟ تتفكر فى مشكلة الكون ؟ ــ أتأمل وجهك . أقـرأ
قصتك وطبعك ــ ليس لدينا وقت . ليس لدينا وقت . ادفع مايرضيك،
عندى وقت ــ فلنتكلم .. تغضب وتضرب الفراش . عندى عمل آخر ــ
أى زبون أنت ؟ انهض ، أخرج من محفظتى أوراقا أعطيها اياها ــ أهمس:
فليعرف كل منا الآخر ــ لكن عندى موعد . تنظر فى ساعتها . فاتت
عشر دقائق . عندى موعد . أنسل الى جانبها ، أتحسس كفيها . وأميل
على الصـدر . أمسح خديها . تهتف : هيـا . هيا ــ تتفتح كالوردة
للشمس ــ أتملى فى عينيها وأمد الشفتين . تضحك ساخرة : يالك من
رومانسى . أعرف هذا النوع . لكن ليس لدى الوقت ــ عندى موعد ــ
تنظر فى ساعتها . أغبى أنت ؟! احترق الوعد ــ أتحسس يدها ، خديها،
ألثم جبهتها والشعر ــ هيا هيا ــ لا أبدا حتى تعطينى قبلة ــ تدير خدها
ناحيتى ــ خذ ! لا لا . وأمد الفم . يتأهب صدرى للقاء الصدر . ويداى
لتطويق الجبهة والشعر . تقترب الشفتان من الشفتين ــ تصرخ كالمجنونة:
لا .. لا .. ما هذا ؟! هل أخطأت ؟ حتى لو تدفع لى مليون . هل يصلح
هذا من غير القبلة ؟ تتنمر تتفرسنى عين التاجر يطرد شحاذا من بابه :
القبلة لحبيبى وحده . لا يأخذها مخلوق غيره . حتى لو كنت أمير الهند
وملك الصين ! ــ افترضى أنى محبوبك ؟ يكفى ثرثرة . ضيعت الوقت .
تنظر فى ساعتها ــ تنفخ تتأفف تلوى شفتيها باشمئزاز . انطفأ الجمر ،
العطر تبخر .. سكن القارب والمجداف انكسر على الصخر . معـذرة ،
لكنى لاأستغنى عن قبلة ، فى بلدى ... فى بلدك ــ قامت غاضـبة ،
بدأت تلبس سترتها والسروال . وأنا أرمقها بعيون الطفل المذنب ــ عد
لبلادك ان شئت ــ ألقت فى وجهى الأوراق ــ هذا عمل لا عش للعشاق ــ
أرجوك احتفظى بنقودك ، وكذلك بالماركات ، يمكننى أن أعطيك سواها

ـ تطوى ذراعيها على صدرها • تطيل النظر الى ـ هذا كرم منك • لم تبق سوى خمس دقائق ـ ذنبك أنت ـ أدخل فى سروالى وقميصى •• أعرف ياسيدة البيت طريقى • عندك موعد • تفضلى أنت •• يارب السهم النافذ والقوس ، هبنى أن أجد القبلة : كأسا تفرغ فى كأس . عين تغرق فى عين ، قلب يدق فى قلب • نهر يجرى مع نهر ليصبا فى البحر • ابن تاب عن الذنب وعاد الى الأب ، وشعاع بعد الغربة يرجع للشمس ••

***

٥ ـ البحر البحر البحر :

ـ من ؟ أنت ؟

ـ أنسيت ؟

ـ حسبتك خنت •• وظننت بأنك مثل الناس تخليت ••

ـ أنا مسئول عنك ؟ تركتك للأحلام ولذ ••••

ـ أسكت • أسمعنى عـزفك فوق النـاى • فلعـل اللحن يريح البال • هذا أفضل • ليست كل الأشياء تباع وتشرى بالمـال • أو ان شئت فلذ بالصمت •

ـ معك الحق • لكن ليس لدينا وقت •• حتى للصمت ••

ـ وقت للغد والأمس ولا وقت لدينا لليوم •• هيا • هيا •

ـ أمرونى أن أصحبك ••

ـ ولماذا الأمر ؟ تسعدنى الصحبة ••

ـ هيا •• هيا •• أزف الوقت ••

ـ الوقت •• الوقت •• والأبدية ضيعناها خوف ضياع الوقت•• والى أين ؟

ـ البحر ! البحر ! البحر !

هتفت كما هتف جنود الاغريق القدماء • البحر ! البحر !• بعد الظمأ القاتل فى الصحراء ، يتعرى الظامىء ويذوق الماء ••

ـ ليس الأمر كما تتصور • أخشى الندم عليك وخيبة أملك ••

ـ تخييب أملى ـ تخرجنى من هذا الكهف المظلم ، من ليـل أتخبط فيه الى ليل معتم ، وتقول بأنك ستخيب أملى ؟ هيا للبحر ••

يطرق رأسه ، يغمض عينيه ، يتدلى الناى على صدره . كيتيم حاروا فى أمره . نترك ممشى ، ندخل ردهة ، وتمر علينا الخدم ، الزوار ، العمال ، وكهان المطبخ لاتأبه . أحس الجوع ،بدأت أحشائى تتأوه . ياصاحب هذا الفندق ، أين النادل وحمايته الموعودة ؟ أيجوع الضيف لديكم وموائدكم ممدودة ؟ تلفح وجهى الريح وملح البحر يرطب جلدى . بعد قليل يبدو الشاطىء تسطع حبات الزبد على البعد ، والموج الهادر يصخب فى أذنى ويحتد ، لاتبخل ياموج البحر ولاتنس الوعد ، أحرقنى الظمأ الكافر فى صحراء المجد ، فاغسل بالدمع الصافى من عينيك ذنوب الأمس وهم الغد . وأعد اللحد أو المهد . تلمس قدمى رمل الشاطىء ، أنظر فوقى : قمر هادىء ، بدر كالزورق تلمع فيه لآلىء .

ـ لم لاتتكلم ؟ نايك ـ لايترنم !

ـ انى مرغم . أمروا بالصمت وكتمان السر المبهم .

ـ البحر أمامك والجنة بين يديك . ماذا تكتم ؟

ـ أنظر حولك .. لن أتكلم .

أتلفت حولى . أنشق أنفاس البحر كسمكة يعيدها الصيادون للماء بعد أن جفت على اليابسة . الى اليمين صخرة سوداء ، داكنة الحجر ناتئة التجاعيد . أمعن النظر فأرى نسرا يعلوها : كتلة عابسة لاتتميز عنها . بين الحين والحين يرف جناحيه ويهبطان . عيناه جمرتان ، أيسلطهما على ؟ الى اليسار ، بعيدا عنا بقليل ، أراها ترقد ساكنة ، آمنة فى ضوء القمر . تحرك شدقيها وتمضغ بسلام . أشد رفيقى من كمه . أهمس له : بقرة ؟ ماذا جاء بها ؟ لا عشب على الشط ولا مرعى . ماذا تجتر ؟ يغوق الصبى فى صمته . تخرج الضحكة كالغصة : تجتر الذكرى !

ـ هيا نتجه اليها . هذا ما قالوه . أعطونى أيضا مرآة .

ـ مرآة ؟ لاتنس الباروكة أيضا .

ـ لاتهزل . لسنا فى عرس ..

ـ هل نحن بمأتم ؟

يعود لصمته . يتقدم نحو البقرة بهدوء ـ مازالت تحرك فكيها وتجتر فى سلام . لايبدو عليها أنها تنتبه لوجودنا أو للبحر الممتد وراء ظهرها . لن يخطر ببالها أن ترفع رأسها لترى القمر الحالم فوقها . غارقة فى نفسها ، غائبة عن العالم كله . عن الأرض التى ترقد عليها ، عن الواقفين أمامها ، ربما كانت غائبة حتى عن لذة العشب الذى تجتره . فى عينيها السوداوين الواسعتين بحيرة رضا واستسلام . **أهتف فى غضب :**

ـ هل جئنا البحر لنشهد بقرة ! البحر يحب العرى ألا نتعرى ؟··

ـ أسكت · حذرتك ألا تهزل · هاهم يأتون ··

ـ لا أدرى أين أطلوا . كيف تلاقوا ، هل ينشق البحر أم الأرض ويخرج منها المردة . عملاق أسود ، عملاقان ، ثلاثة ، خمسة ـ غربان سود فى هيئة بشر · يتقدمون نحونا · كلما ظهرت ملامح وجوههم ذعر القلب كفأر يرتجف أمام القط · نسخ واحدة من صنم واحد : يتحرك فى بطء ، شعر أسود . جلد أسود ، سترة صدر سوداء وسروال أسود ، ربطة عنق سوداء ثبت فيها فص أسود ، فى أيديهم شىء يبدو كحقائب سوداء · يقتربون ، تسبقهم تكشيرة وجه قاس أسود · أرتعد وأبحث فيهم عن أجنحة سوداء ، ذيول سود ، قرون أو منقار أسود ـ يتحرك جبل الليل الأسود . يفتح فمه ، يخرج منه الرعد الأسود ·

ـ المـرآة ··

ترتعش يد الصبى وهو يمدها اليهم بالمرآة ·· مرآة صغيرة ، منقوشة الأطراف بزخارف خشبية عليهـا ورد وأوراق شجرة مذهبـة ـ تنطلق الغضبة منهم كزئير الأسد الجائع ·

ـأحمق ·· وحرام فيك المأكل والمشرب ··

يتأوه الصبى ويحنى رأسه : مولاى · سادة قدرى · أخطأت فماذا أفعل ··

يتلفتون لبعضهم ويضحكون · رعد وصواعق ومنون : ماذا يفعل ؟ ماذا يفعل ؟

ويصرخون بفم واحدة :

ـ يا حشرة ·· اسحبه من أذنيه وقرب وجهه ، من وجه البقرة ··

يتقدم منى · ينظر فى عينى ·· لم يجبره شىء أن يسحبنى من أذنى ·· فأنا أخطو نحو البقرة · وأقرب منها عينى ووجهى · يضع المرآة أمام البقرة ـ لا يطرف فى عينيها رمش · تمضغ بسلام ·

ـ أنظر وجهك !

لا أتكلم · أردت أن أقول : الأمر مطاع يا سادة · أرتجف ولا أعرف ذنبى ·

ـ منذ سنين ولم تر وجهك · تنظر فى المرآة وتحلق ذقنك وتسوى شعرك ، لكن لا تبصر وجهك · حان الوقت فهيا ·· ثبت قلبك ·

أغمض عينى وأفتحهما • الصبى بجانبى يسلط المرآة على وجه البقرة ثم يسلطها على وجهى • أتطلع فيها • كيف أصدق ؟ هل هذا وجهى ؟ أتلفت نحو البقرة ـ نفس السحنة • نفس الجبهة والشفتين ، نفس العينين الصافيتين • أتحسس فكى • يتحرك • يمضغ يرتفع ويهبط ، تتأملنى عينا البقرة • أتأمل عينى فى المرآة • نفس النظرة • نفس الحسرة ، نفس الحيرة فى قاع بحيرة • أفيق على صوت الرعد : أعرفت الآن ؟

يشيرون للصبى فيميل جانبا • يمدون اليه يدا واحدة فيستجيب بحركة سريعة • يخرج من صدره سكينا لامعة • يحس وحشتى والكلمات التى لم أقلها : النـاى مع السكين ؟ يأخذونها منه ويختلس نظـرة الى ويهمس : انى معك فلا تحزن • هى للبقرة ••

تميل أجسامهم الضخمة كجذوع الأشجار العتيقة وينحنون سـدا واحدا أمام البقرة • بضربة واحدة تفتح البطن • عجبا لم لم تنزل قطرة دم • والبقرة تجتر وتحلم • وكأن السود صغار منها ترضع ، أو راعية تحلب لبن الضرع • يرفعون رؤوسهم وكأنهم رأس واحدة مخيفة تتفرس فى • ماذا أبصر ؟ أوراق تخرج من بطن البقرة ـ أقلام أقلام أقلام •• كتب كتب كتب لا يظهر فيها رسم غلاف أو عنوان ••

ـ أرأيت ؟

ـ أنحنى وأفحص بعضها • انها كتبى • هى نفسها التى فرحت بها ذات يوم • ألمح فيها أوجه ثوار ، زهاد ، حكماء ومجانين ، شاعرة تبكى ابنتها ، أبطال مآس مهزومين وشهداء مكسورين • والبقرة تجتر وتجتر من عينيها يسقط دمع مر • ينهضون على أقدامهم • يردون السكين للصبى • يزأر صوت واحد :

ـ بطن الشاعر أو بطن البقرة ؟

أرفع وجهى للقمر الساكن فى وهج بحيرة ـ أنظر للموج الهادر يبدأ ويعيد الكرة • تلمس كف كتفى بحنان • تسحبنى فى رفق • يبرز منديل أبيض • آخذه وأجفف دمعى • أسمع صوتا يأمر :

ـ هيا للصخرة والنسر ••

جرونى الى الصخرة • النسر هناك ، يشتعل الجمر بعينيه يرفرف بجناحيه • أتردد ، تدفعنى الأيدى • هيا •• لا تتلكأ • أنظر للعازف فوق الناى ، يشد القدمين حزينا مثلى ، أبدا لا يرفع عينـا عن ظلى : انقذنى • انشد لحنك غنى ، كن فى المحنـة عونى ـ يضحك العمالقة الخمسة ، ينشدون فى صوت واحد : لن ينقذك اليوم سواك • والمنقذ

من ينقذ نفسه • أهتف : كيف وأنتم تجتمعون على ؟ كيف سأفلت من قبضتكم ؟ ويغنون غناء الجوقة : نحن نعرفك بنفسك • نحن نعرفك بنفسك !

نقترب من الصخرة ، يتهلل وجه النسر • تسرى الرعدة فى أعضائى وأناديه : يا سيد هذا الصخر ، ان كنت ملاكا أو شيطانا خلص روحى من هذا القهر • يتبادلون النظرات ، يرفعون رؤوسهم للنسر ثم يحنونها خشوعا • يزداد خفق الجناحين وتوقد العينين • أوشك أن أهتف به : جوعان فى مأدبة النسر الجائع ، ظمآن يقيد بالحجر الظامىء •• أين الخير وأين الشر ؟ ينادى أحدهم : الصبر ! الصبر ! وسيأتى دورك قبل الفجر •

فى لحظة يلتفون حولى •• يصرخ أحدهم فى الصبى فيفيق ويمد اليهم يده بالحبال • ينهمكون فى ربط يدى وساقى على الصخرة • أنظر وجه القمر وأضرع للبحر •

ها أنا مربوط للصخرة • أنتظر عذابى من أيدى السحرة • أتوقع أن أجلد أو تبقر بطنى كالبقرة ـ الشر الكامن فى أعينهم يطلق شرره ، بعد قليل سيغادر وكره ••

لكنهم لايتحركون • جلسوا أمامى فى صف واحد ، كأنهم يتفرجون على قرد مغلول • يتغامزون أحيانا ، يخرج أحدهم من جيبه جريدة مصورة ويتسلى بقراءتها ، يستغرق الثانى فى تأمل القمر والبحر والشاطىء ، يخرج ورقة من جيبه يسندها على حقيبته كأنه يتأهب لكتابة قصيدة ، يدفن الثالث رأسه بين يديه ويستسلم للنوم وأسمع شخيره ، يتطلع الرابع الى ساعته وينظر للنسر ، أما الخامس فيراقبنى ويرصد حركاتى وكأنه سيقدم تقريرا علميا عنى • بعد قليل ينهشنى النسر • أعرف ألا أمل ولا فائدة من الصبر • أصرخ فيهم : سفاحون وجلادون ، أسنان جراد ملعون ، هل غفلت عنكم عين القانون ؟ أظننتم أن الأرض خراب والناس نيام لا يصحون ؟ من أين خرجتم ! من علمكم حمل السوط مع السكين ؟ مرغتم وطنى فى الطين ، يا أكلة لحم البشر النهمين ، صرتم أمراء وسلاطين، وبنيتم عرشا فوق قبور المهزومين ، هل يلمع تاج الملك على جثث المقهورين؟ هل تدرون ؟ أم أنتم لا تدرون • أنكم الجلادون المجلودون • أن الواحد منكم سجان وسجين ، جزار مطعون من نفس السكين ؟ قارىء الجريدة تائه فى صفحاتها • والمتململ لا يكف عن النظر لساعته • والنائم لايصحو بل يرتفع شخيره • أما الجالس فيلكز جاره ويقول بصوت عال : النغمة القديمة ، مسكين لا يعرف شيئا ـ يزداد يأسى فأعاود صراخى :

ـ أنا من جيل مهزوم • حاولنا نصلح وضع الكون المشئوم • خرج

العالم من محوره . زاد الظلم على المظلوم · يا كم قلنا وكتبنا والجرح قديم ، حتى صرنا كالبوم · الحرية تذبح والعدل يتيم ...

ضحك كأنى ألقيت دعابة · أغرق فى الضحك وقال : قلنا وكتبنا ! جبل الأقوال وثرثرة الكاذب والدجال · أين الأفعال ؟ أين الأفعال ؟

ينتبه النائم · يلقى القـارىء جريدته من يده ، ينظر بقلق الى ساعته ويعتدل · يشير المترقب للنسر فيتحفز ويرتفع جناحاه ويندفع كالسهم نحوى · فى لحظة يصـل الى هدفه · تؤلمنى الطعنـة ، ينفتح الجرح · يرجع الى الصخرة ، يتحفز ، ويرفرف بجناحيه ، ينطلق الظل الأسود ، تزداد الطعنة ألما · يندفق دم · تسقط قطرات من منقاره · تنفذ عيناه بلحمى كوميض البرق · أصرخ من ألمى :

ـ النسر يفتت كبدى · ينهش لحمى ويمزق جلدى ·

يردون بصوت واحد : ذنبك أنت ·

ـ لا المعجزة صنعت ولا الكون المقلوب عدلت ·

ـ لكنك قد فكرت · والنار سرقت ·

ـ والسارق أصبح مسروقا · والفكر تدلى مشنوقا · ما عدت جديرا باللعنة ··

ـ فلماذا تخنق مخنوقا ·· ؟

ـ اسأل نفسك · اسأل هذا النسر !

لم يحتج الى سـؤال · فسرعان ما انقض كالصـاعقة الكاسرة على كبدى · لم أستطع أن أتحسس الجرح ، اذ كانت يداى مربوطتين الى ظهرى · لكننى بصعوبة نظرت اليه · هالنى انه لم يعد يؤلمنى ، اذ بلغ الحد الذى يتخطى الايلام ويصل الى الغيبوبة · أردت أن أفتح فمي وأصيح: أين رسول الآلهة من الأوليمب ؟ أين عطارد أو « مركور » ؟ لكننى يئست من العثور عليه · فربما كان الخمسة الموكلون بعقابى هم عطارد ــ مركور ــ وربما يكون هو نفسه قد نسى دوره واختفى أثره · وعم أتراجع أو أتنازل ؟ جسدى عروه وفتحوا بطنى · لم يبق هناك سر · حتى حافظتى يمكنهم أن يفتحوها ، ولابد أنهم سألوا مدير الفندق عنى ، أو سألوا العازف الصغير ، من يدرى ان كان مدير الفندق نفسه هو الذى أرسلهم الى ؟ أخذت أنفاسى تتلاحق . غام الأفق بعينى ، غطتنى سحب الغيبوبة ، وأفقت على عزف الناى وريش يتناثر فى الجو · هل تذرو الريح جناح النسر ؟ ونظرت اليه · كان كجنح الليل ، تكوم كالحجر الصلد ، وانطفأ بريق المجد ، والريش

يحلق فى الجو . ويصبح أجنحة . تنبت فيه القدم ، الرأس ، المنقار ، العين • وينادى أحد الجلادين على : أنظر ما أخفيت ، العش امتلأ ففر الطير •

لم أعرف ماذا يقصد • كان الريش لا يزال يتطاير ، وأنا أتابعه شغوفا به ، وأراه يتخلق أمامى طيورا مختلفة الأشكال والألوان • رفع جلاد آخر صوته وأخذ يقول : لأنك أخفيت النار ، كتمت السر ، لا استدفأت ولا أدفأت الغير ، ولهذا ضاق القفص وفر الطير ••

أخذوا يرددون وراءه : فر الطير •• فر الطير ••

عيناى مشغولتان بمتابعة الريش والطيور • والحياة التى تتخلق كالسحر تمنعنى أن أكترث بصياحهم • وهم كذلك لا يكترثون بى ويواصلون غناءهم الرتيب :

ــ كتبت وقلت • لكن لم تك أنت • لم تك أنت •

أغاظنى كلامهم فصحت بهم : لم أكتف بالقول • فعلت • ما كان بوسعى قدمت . ضحكوا واستمروا فى الغناء : لكنك خلف قناع عشت •

قلت وأنا أشيح بوجهى : يكفى أنى ما قصرت • لم أقس على أحد وقسا الزمن على ••

ضحكوا وأخذوا يصفقون : وعلى نفسك أنت قسوت •• أنظر هذا الطير الغاضب يخرج من كبدك ، يخرج فى صمت • نحن فتحنا القفص فرفرف فى الجو وراح يغنى عذب الصوت•أما أنت فقد أهملت ، وترددت •

ــ يخرج من كبدى ؟

تؤلمنى رقبتى وأنا ألويها لأنظر فى كبدى • حقا كان الريش يخرج منها • ينتشر فى الفضاء كقطع متناثرة من قوس قزح • أسمعهم يضحكون ويقولون : تأمل هذا الطير • وانظر للوجه • وستنكره أو ستعرفه على الفور • تدوى الطيور حول رأسى • تتمهل قليلا أمامى لأتفحصها • أحقا أعرفها ؟ أنكر بعض الأوجه ، لا أذكرها ، أعرف بعض ملامحها : سلطان يعشق جاريته ، والجارية تحب العبد ، وهذا الطير : ايزيس الملكة تهوى الفلاح المنحوس ، وتعلمه ، تبعث فيه الروح كما فعلت أوزيريس •• ما هذا أيضا ؟ قارون تتبعه سبع طيور • يا للذاكرة المثقوبة كالغربال ! والحكماء السبعة ، ومن هذا ؟ هو أوديب ــ أوديب يدافع عن نفسه ، ان أجرم فى حق الشعب فان الشعب كذلك شارك فى جرمه ، وأب يحتضر ويلقى الأبناء عليه التهمة ، تنتظر الزوج وتغزل ثوبه ، حين يعود ويغرق فى الدم كفبه تصده ، تنكر وجه القاتل ، ترجع للمغزل تنسج ثوب الزوج الحق

وتنتظره ، أطفال تبحث عن آباء . آباء تبحث عن أبناء ، ووجوه أناس أعرفهم ، فلاحون وخدم وقضاة ، رسامون وشعراء ولصوص مهرة ، دجالون وجلادون ونهازو فرص فجرة ، أبطال أساطير ومساكين وثوار وضحايا الثورة ... الخ . كانت الطيور تحلق فى الجو وتقترب منى وتدوى فى أذنى ثم تبتعد وتختفى . لم يمض وقت طويل حتى كانت كلها قد ذابت كقطع السحاب التى تسوقها الرياح أمامها وتحرقها أشعة الشمس فتشف قليلا قليلا حتى تتلاشى . صفت السماء وهدأ الدوى والطنين . وانكفأ النسر على نفسه وأخفى رأسه بين جناحيه واستسلم للنوم . وسكن الالم فلم أعد أشعر بوخزه واحتراقه . وتطلعت أمامى فاذا الجلادون الستة واجمون كتماثيل قرود متراصة فى مدخل معبد . وانطلق صوت الناى ، حنونا ، منسابا فى شفافية شعاع القمر الذى ازداد توهجا فى السماء كتفاحة ذهبية . كانت هى الساعة التى تسبق طلوع الفجر .. غلالة تغطى وجه الأرض ، رمادية داكنة ، تشبه سحابة غبار فوق أرض معركة لم تتضح . كنت قد تعبت وثقلت جفونى فتراخى جسدى وتمدد وسرى فى كل شىء كما سرى فيه كل شىء . واذا بالناى يفتح عينى ، والصبى الساحر يبتسم عن فم عذب نضيد الأسنان . لولا القيد فى ذراعى وساقى ، لولا الخدر الباهت الذى يلفنى كالضباب ، ولولا ان النسر ما يزال فى مكانه ، والتماثيل الستة صامتة كالأصنام أمامى ، لولاها لقلت لنفسى : كابوس زال . ولكن ها هو الصبى يعزف كأن لم يكن شىء . واللحن يشبه أن يكون تحية ترحيب واستقبال لموكب قادم . ويبعد الصبى الناى عن فمه ويناديني باطمئنان : ها هو قادم ! أهمس من مكانى : من ؟ يدير الصبى ظهره الى . يفتح ذراعيه كمن يستقبل ضوء الفجر الطالع بعد هزيم الرعد وقصف الريح بليل عاصف : بشر لا كالبشر ! اله أو شمس !

***

٦ ـ البطل الشمس :

كان يتمشى على الشاطىء فى جلال أبوللو وجماله . كيان أسطورى عالى الجبهة ، شامخ الأنف كبطل رومانى ، منسدل الشعر على الكتفين ، لا هو بالطويل النحيل الذى يشرئب عبثا للسماء ، ولا بالقصير السمين الذى تجذبه العناصر للأرض . يقترب قليلا فى مشيته الرائعة كجيش زاحف ، تبدو عيناه الواسعتان السوداوان كعينى نسر هبط من الأوليمب لتوه ، حلق فوق البشر وعبر حدود الحياة والموت . وقف الصبى مفتوح الفم يتأمل عينيه ، وفمه الدقيق ، وذقنه الحاد المدبب ، ولابد أن العينين

الواثقتين اللامعتين استغرقتاه فظل يحدق فيهما ونسى الناى على فمه ٠ كان ينحنى على الرمال أحيانا ليلتقط قوقعة أو يفحص حيوانا بحريا أو يتأمل قطعة حجر ٠ ثم يفتح ذراعيه وصدره القوى العريض للشمس ويهتف :

لو لم تكن العين شعاعا من نور الشمس ، ما أمكنها أن تبصر ضوء الشمس ٠ أيها الصبى الوديع الجميل ، أنت محظوظ اذ تعيش فى بلاد الشمس ٠ كانت روحى تتضور جوعا للدفء ، فذهبت لروما وصقلية وألقيت العبء ٠ عبء ضباب بلاد تخنق أنفاس المرء ٠ أنت محظوظ يا ولدى ٠ لم لا تتكلم ؟ ألا تحسن غير الغناء ؟ وهذا الناى الذى أراه ٠٠ أتكون صبيا لساحر ؟ أغرانى هذا الولد الماكر واشتهرت أغنيتى عنه ٠ جرب مثل معلمه أن يقرأ بضع تعاويذ تسخر روح الأشياء ٠ نسى حروف السر ففاض الماء وأغرق جدران المنزل والأبهاء ، يا ولدى لا تتعجل سير الزمن ونضج الأشياء ، كسلحفاة « زينون » أرادت تسبق خطو أخيل العداء ــ خذ نايك واعزف أغنيتك للبحر وللأفق الوضاء : هل تذكرها ؟

رد الصبى بصوت واهن ران عليه الخجل : لست صبى الساحر يا مولاى ــ أنا الصبى الآخر ٠ ذلك الذى روض الأسد الشرس بغنائه وعزفه على الناى ٠

يتعجب السيد ويرفع حاجبيه الثقيلين : حقا ؟ انه كذلك صبى ساحر ٠ استطاع بقوة اللحن والايمان أن يسيطر على فوضى العناصر والغرائز ، ويخلص العجوز والأم وطفليا من خطر الوحش ويؤمنهم من أخطار الطبيعة عندما تثور البراكين وتغضب الزلازل والأعاصير ٠ ذلك هو سر الفن يا ولدى ، لغز المبدع الذى ينتصر على طبيعته الحية بالفن والدين والأخلاق ــ كانت أقصوصة صغيرة ، لكنها من النوع الذى يحار الانسان كيف وفق لكتابتها **هل تذكر أغنيتك فيها :**

الخالد يحكم فى الأرض
نظرته سادت فى الأفق
الأسد انقلبت حملانا
والموج تراجع للخلف
والسيف اللامع قد أمسى
يتجمد كمدا فى الغمد
الأمل تحقق والفن
وتجلت معجزة الحب

ليس عجيبا أن أجد صبيا مثلك يسحره نور الشمس الطالع ويواجه قوة هذا العنصر السيال بالعزف والغناء · شيقة وممتعة هذه الأرض ، يبدو أن عقلي الباحث عن كل جديد لن يشبع من أرضها وسمائها ونباتها وأحجارها · الأبدى فعال فى كل مكان ، خصوصا فى هذا الجزء من العالم· لكن بالله عليك : أين أنا الآن ؟

هتف الصبى فرحا : فى الشرق ·· الشرق الطهور ··

وضع السيد يده على ذقنه وقال : نعم · نعم · لابد أن تكون هذه قطعة من الشرق · ثم مضى يردد بصوت هادىء يخرج من صدره ليعود اليه وينفذ فيه : لله المشرق ، لله المغرب ، الأرض شمالا ، والأرض جنوبا، نرقد آمنة . ما بين يديه — أهى بلاد شقيقى ، توأم روحى فى المشرق ؟

صاح الصبى : حافظ ؟ لا — بل أرض المتنبى ، وجميل بثينة ، وكثير عزة ··

تعجب السيد وأخذ يتلفت حوله ويتطلع الى الشمس البازغة فى الأفق كأنه يريد أن يشدها الى صدره : حقا — ليتنى عرفت عنهم أكثر مما عرفت — لكنى هاجرت بروحى الشرق . جددت شيخوختى وشعرى بالحب والغناء ، وتطهرت من نبع الخضر ، وحومت قصائدى حول أبواب الفردوس — هذا الدفء ، هذه الشمس ، لنبتهج يا ولدى بيومنا العابر الجميل ··

كان الحديث ودفء الشمس قد ساقهما الى التجول على الشاطىء · وكانا قد وقفا تحت الصخرة يتطلعان للأفق ويجوسان على الرمل والحصى. ويملآن صدرهما بنسيم الفجر النقى · لم يرفع السيد رأسه الى الصخرة الا عندما غلبنى الألم على بهجة الاستماع اليه فخرجت منه الآه · حانت منه التفاتة الى الصبى ونظر الى أعلى وصاح : ويلك ! من هذا المسكين على الصخرة ؟ هل نتكرر فى هذا الجزء من العالم مأساة اللص الأعظم ؟ شاركه الصبى فى التطلع نحوى . غام الأسى فى عينيه وعلى خديه وأطرق برأسه · صاح السيد غاضبا : هل يصنعون هذا بكل الثائرين ؟ أيبعثون المأساة القديمة فى كل مكان ؟ هذه الصورة القديمة من أيام شبابى · لقد نسيتها وانتصرت عليها · ألا أستريح حيا ولا ميتا ؟

رفع ذراعه وأشار الى : أنت ! من قيدك الى الصخرة ؟ أنت ؟

صحت من الألم : مشنوق تتدلى رأسى فى بستان المشنوقين . ربطوا ساقى فى الصخرة ··

ـ مـن ؟

ـ ستة جلادين ، والنسر الأسود فتت كبدى ، مزق لحمى كالمجنون·

ـ ومركور ؟ هل بعتوه اليك لتخضع للطين ؟ وترد النار الى الآلهة الموتورين . لا تفعل أبدا ··

ـ ماذا تقصد يا مولاى ؟

ـ ان البشر ضعاف يحتاجون لمن يخلقهم ويسويهم ، ينفخ فيهم سر الكلمة . سر النار ويهتف فيهم : كن فيكون · من يفعل هذا غير الشاعر ، من يبعثهم ، يهدى الخلد الى الفانين ؟ لست وحيدا فوق الصخرة ، فعلوا هذا بألوف قبلى وألوف بعدى ، أنا من نسل بروميثيوس المسكين · لما كنت شبابا مثلك ··

ـ قد جاوزت الخمسين ··

ـ لا تيأس ، فاليأس مهين · والروح المبـدع يهزم سيف الزمن المسنون · فى ريعان شبابى كنت رسول النار الى الطين ، عشت وغنيت وصغت بمطرقتى : ثوارا ، أبطالا ، فنانين ، ورجالا لا ينهزمون ولا يقعون على أقدام الجلادين . يثقفون بأنفسهم ، يتحدون ، يحبون · فالقلم الخالق يكتب ويعبر عن خلاق فى الصدر دفين ، فاخلق يا ولدى ··

ـ جف معين الخلق ويئست نفسى ··

ـ غامر واستغن بيومك عن أمس ·

ـ تعبت ·· تعبت ·· وعشت وحيدا أحمل بؤسى ·

ـ أنا أيضا جربت الوحدة والصمت · لكنى عشت وأحببت وأبدعت، فقهرت الموت ·

ـ كيف ؟ أجبنى ·

ـ مت لتكون ! ·· بذلك تقهر موتك · ضح بنفسك كى ينشأ كل أرقى منك · فالقطرة تجد نفسها عندما تنعدم وتصبح لؤلؤة ، والفراشة تجد نفسها عندما تحترق فى لهب الشمعة · **غن معى يا ولدى :**

واذا لم تصغ للصوت القديم ·
داعيا اياك مت كيما تكون ·
فستبقى دائما ضيفا يهيم ·
فى ظلام الأرض كالطيف الحزين ·

ـ أ أموت لأحيا ؟ أو لم يشبعنى زمنى موتا ؟

ـ كل ما يهوى الوجود ، سوف يهوى فى العدم . عش يا ولدى ..

ـ كيف أعيش ؟

ـ فى اللحظة . فى أيام شبابى جربت اليأس . أوشك أن يوردنى حتف النفس . لم أتردد . أمسكت القلم لأخلص من قبضته ...

ـ ما أكثر ما سود قلمى ، بحر مدادى لم يغسل ألمى ، ما قربنى شبرا من نفسى ..

ـ أكتب ما يمليه عليه الحس .. وكن نفسك يا ولدى ..

ـ أفعل هذا جهدى ..

ـ الفعل . الفعل . ها أنت نطقت بنفسك . فى البدء الأول كان الفعل . هذا ما كنت أقول وأعمل . والخالد يعمل فى كل مكان ، ينشط فى كل زمان ، لا يتخلى عن مغزله أبدا . فلماذا لا تفعل مثله ؟ الخالق فعال ـ كن مثله ـ والخالق يبدع ، فلماذا لا تبدع مثله ؟ خلق الانسان ليخلق ، ولهذا استخلفه الله على الأرض لينطق يبدع يخلق ..

ـ سأحاول .. لكن ..

ـ لا تترك لحظة ! عش فى اللحظة فالانسان فقير لا يملك الا اللحظة ، فليحرث هذا الحقل بنفسه ، وليزرعه ويجرب حظه ، هذا ما يفرضه الوعى وتفرضه اليقظة ..

ـ لكن اللحظة نعبر . تفنى كالقطرة فى بحر الزمن وتهدر .

ـ املأها بالعمل المثمر نغدو القطرة لؤلؤة .. والحبة جوهرة ، والأبد سيطبع خاتمه فوق الزمن المدبر . أتقول بأن اللحظة تهرب منك ، سوف نعود شقيقتها تتوسل لك : املأ كأسى ، لا تتردد ، جدد خمرى تتجدد ، فالنشوة منك اليك ..

ـ النشوة . والخمرة والكأس ...

ـ بهذا تعرف سر النفس !

ـ ما أطيبك وأحكمك .. فهات الكأس !

أقبل السيد الكبير على وأخذ يفك الحبال المربوطة حول القدمين والساقين . أحسست أنفاسه الدافئة نرف على وجهى كأجنحة النسيم .

ثبت بصرى فى عينيه السوداوين ، شمسان هما أم أفق يسع الكون ؟ وأنا أشعر بين يديه شعور الابن حيال الأب ، يختلج الاعجاب بصدرى والرهبة والحب ..

تحمس الصبى فأخذ يساعده فى فك قيودى . ولست يده جرحى فنادى : أنظر يا سيد .. جرح وبقايا دم . مال السيد على ومد يده القصيرة المكتنزة فلمس الجرح . ابتسم وقال : لا بأس عليك ولا ضير ، أنا أيضا عشت وفى جنبى جرح مر ، جرح الشعراء قديم لا يندمل مع العمر ، ينفتح اذا كتب القلم ويبتسم كثغر نضر ، فاغمس قلمك فى هذا الحبر ، كى يحيا الشعر ، كى يحيا الشعر ..

هل تحتمل النملة أن يمدحها الأسد أو النمر ؟ قلت وفى عينى الحسرة وخدودى تحمر : يا مولاى لقد هرب الشعر . وانحسر الموج عن الصخر ، صار عجوزا أعمى فى زمن الغدر ، يجلد بسياط الذل وأكل العيش وطلب الستر ، داس على جثته أقزام العصر — أنظر يا مولاى لهذا النسر ..

أدار وجهه ناحية الصخرة المقابلة . كان النسر لا يزال منكفئا على نفسه ورأسه مدفونة بين جناحيه — أحس بعينى النسر البشرى فارتجفت عيناه قليلا واضطرب جسمه الجاثم كالليل أو الهم . ابتسم السيد وقال : أعرف هذا النسر . يعرفه المبدع أنى كان على اليابسة أو البحر ، فتت كبد بروميثيوس ولن ينجو منه انسان حر ، ينتشل اليأس من هاوية اليأس فيصبح كالريح العاصف كالموج الهادر فى البحر ، من صدرك يخرج هذا النسر ، القلق الجامح والألم الجارح ، والفرح الطافح والبشر . لا تخشى النسر ، لا تخش النسر ...

قلت : وهؤلاء ..

سأل فى رفق : مـن ؟

أشرت اليهم . كانوا ما يزالون فى مكانهم ، قابعين أمام الصخرة كأطلال جدار عتيق ينظرون الينا صامتين .

قال السيد : أشباح هؤلاء أم آدميون ؟

— بل جلادون ..

صاح السيد : من أنتم ؟ من أرسلكم . من كلفكم بالأمر الملعون .. أقضاة أنتم أم متهمون ؟

وقف أحـدهم وهو يتلفت الى رفاقه · مد ذراعيه للأمام ثم رفعيما لوجهه وتنحنح قليلا ثم قال : معذرة يا سيد ــ نحن ·

صاح بغضب لا يصدر عمن كان رزينا متئدا مثله : أعرفكم · أتذكر سحنتكم · هل أنتم فى كل زمان ومكان ؟ باسم الفن وباسم الشعب لسعتم جسدى كالحشرات ، سممتم بئر حياتى كالحيات . لا تتوهج نار تطفوها ، لا يزهر شجر حتى تجتثوه ، لا يرتفع بناء حتى تلقوه بالأحجار ؟ بشر أنتم أم دود . ووجوها أنظر أم أقنعة كلاب وقرود ؟ ··

قلت : جلادون ودجالون · غرزوا الناب بلحمى طول العمر · حتى ضاق الصدر ، اختنق الصدر ··

زعق الواقف وردوا عليه فى صوت واحد . بل نحن خرجنا من هذا الصدر كما خرج النسر ، نحن رؤاه ، هواجسه . أحلام صباه ظنون الفكر ، يأمرنا تصدع للأمر · عشنا معه فى السراء وفى الضراء وفى الخير وفى الشر . جعنا وظمئنا معه ، ذقنا الحلو وذقنا المر ، ليلا ونهارا ناديناه ودعوناه فى الجهر وفى السر : انهض وتحد القهر . وافتح عينيك وقلبك للشمس والق بجسدك فى البحر ، حتى غضب علينا . نسى ملامحنا . ألقانا فى قاع البئر · ضقنا يا مولاى بصمت القبر ، فحملناه اليوم ــ كما تشهد ــ فى الفجر ، كى يتطهر بالنور ويخرج من عنجهه الدر . لم نأسره ، حاشا لله ، ولكن أنقذناه من الأسر ، كى يبصر ، يعرف ، يعمل ··

قاطعه السيد : يعمل ؟ ماذا يعمل ؟ لا ينقذكم الا العمل الحر · يا أولادى تلك وصية عمرى ···

قلت ساخطا : أولادك ·· كشفوا عريى ، نهشوا لحمى ··

احتج الأسود الذى يتحدث بلسانهم وقال : من يأكل من لحم مر ؟ نحن تركناه لهذا النسر · ينهش كبد النائم فى كهف الغيب أو السر ···

ضحك السيد فجأة · لم تأت الضحكة من فمه ، بل راحت تنتشر فى كل أعضائه فتهتز وتتمايل وتعلو وتهبط كالقارب الذى تجرجره موجة هادرة ·· نظر الى وفى عينيه وميض الشفقة والحب ، والتفت اليهم كأنه يستأنف كلامه :

ــ لا تنسوا ·· وهو رسول العمل الحر ··

وقفوا خاشعين . خفضوا رؤوسهم وأخـذوا يهزونها فى خضـوع كالرهبان الصغار أمام الكاهن الأكبر · قال كبيرهم : نصدع للأمر ·· نصدع للأمر ···

وقف السيد على الصخرة كالقائد الذى يصدر أوامره بالزحف · سطعت جبهته الشامخة فى ضوء الشمس واحمر وجهه كالشارب النشوان وأخذ يشير بذراعه الممدودة الى الأمام والخلف : هيا للعمل الحر · وأقيموا الأرض الحرة كي يحيا فيها شعب حر · هيا الآن وقبل فوات العمر ، فالحرية يغزوها انسان حر ، يعمل ويغنى · فى كل مكان يزرع شجر الخير ·· شقوا الأرض هناك ، اسقوها حتى تخضر ، والأكواخ البائسة أمام البحر ، يسكنها نمل أغبر وجراد مصفر ، ابنوا فى موضعها المعمل والساحة والقصر ··

قال كبيرهم مستفسرا : هل تبنى الكلمة وتعمر ·· ماذا تقصد ؟

قال فى حماس : لتكن الكلمة عونا للعمل الحر · هيا انتزعوا من قبضة هذا البحر . أرضا ينمو فيها الزرع ويعبق فيها الزهر ـ شق قناة يجرى فيها ماء النهر ، كى يسقى الأرض الظامئة فتلهج بالشكر ، أو يطعم شعبا محروما عذبه الفقر · شق قناة فى هذا القفر ، ليس كثيرا من رجل الفكر ·· هيا هيا ·· شقوا الأرض ، أزيحوا الصخر ·· حان الوقت لأمضى ·

قلت : ألا تبقى معنا ···

التفت الى فى حنان ووضع يده على كتفى : أما أنت فغير نفسك ، واحمل قلمك فى الحال كما تحمل فأسك · بدأ طريقك فأتم الرحلة ، وتحدد قدرك فاسلك سبله ··

***

٧ ـ أمسك بالقلم وامسك بالكأس :

ذهب السيد كما جاء ، لم نعرف الى أين كما لم نعرف من أين · أخذنا نتطلع اليه وهو يخطو فوق الصخور كفارس غريب امتطى صهوة الريح والجبال والسحاب · أخذ السود الستة يتابعونه بأبصارهم ، كرجال الفلك الذين يرصدون كوكبا سطع فى السماء ثم اختفى · رحت أنظر اليه كأنى أنظر فى نفسى ، لابد أن أجيال البشر قد عاشت وتناسلت وبنت وخربت وتحملت كى تغذى جنينا فى أحشائها وتنميه وتربيه وتصبر على المخاض · مئات السنين لكى يهبط أرضنا الكئيبة ، ويسطع فى سمائنا مثل كوكب رحيم يعرف كل شىء ويغفر كل شىء ويعطى المثل الأصغر للأبدى الحى الفعال على نول الزمن الأزلى · ظهرت كواكب عديدة مثله فى سمائى وسماء الناس . أحببت كثيرا منهم ، وتعلمت على أيديهم ،

منهم أعمى مجدور الوجه . شعت منه ألسنة اللهب الحارق بالثورة والصدق، منهم من يسبح فى الآخرة ومنهم من غاص بأعماق الطين ، من ثار وفار وحطم عصره ، من عكف على هندسة الكون وترتيبه ، من غنى وحده ، أو عزف على قيثار الحلم ومدن الغد ، من أضحكنى فى ليل الصمت ، من أبكانى ، زرع بنفسى شجر الموت ، من أحيانى فى صحبته فسئمت صحابى، أهلى . جيرانى — لكن هذا النور المنسجم الهادىء ...

انتبهت لصوت الناى فى يترقرق حنان لم أعهده ، لابد اننى جبت متاهتى على رنينه الشجى . كان الصبى يعزف تلك الأغنية التى أنشدها للسيد ، وصاحبت وقع حركاته وسكناته حتى خلت انه يتبع الشبح المتلاشى بروحه أو يحاول أن يسترجعه بحنين شكواه . ولابد انه لم ينس وجود الستة بعيونهم السود وستراتهم السوداء وحقائبهم السود ، يقفون هناك يشيعون صورته الغائبة كما يشيع اللحادون جثة كبير سمعوا عنه وأدوا نحوه مراسيم الواجب واستراحوا منه ..

— هيا للعمل ...

دوى صوت كبير الجوقة الكالحة كصوت بوق أو نذير . كان معنى الاشارة الآمرة أن يكف الصبى عن عزفه ، أن أهبط من مكانى على الصخرة، أن أقبل على فصل العذاب الجديد . وقبل أن أستجمع بقية قوتى لأنحدر على الطريق الوعر الملىء بالحصى والحجارة المدببة كالسكاكين التفت لأنظر للنسر . كان قد غادر موضعه ، هل طار ليلحق بالسيد ؟ ..

سبقتنى الجوقة الى مكان العمل . وسبقنى الصبى الى المتول بين أيديهم . فى لحظات فتحوا حقائبهم ، أخرجوا منها ملابس العمل الزرقاء وسرعان ما ارتدوها ، أخرجوا منها — لشدة عجبى — فئوسا وجرافات صغيرة بأيد طويلة ، وأكياسا وجرادل وعصيا كالملاعق الكبيرة تنتهى بعضها بأطراف مسنونة كالأشواك .

— هيا للعمل ..

هتف كبيرهم فانطلقوا بأدواتهم أسرع من خفقة جفن . هم أنفسهم الذين بدوا منذ قليل كأفراد الجوقة فى قداس أو مأساة ، أصبحوا الآن يجرون ويذهبون ويجيئون بفئوسهم ، وحفاراتهم الصغيرة وعصيهم وأكياسهم . راحوا يشقون الأرض ويخرجون التراب فى أكوام لا تلبث أن تتراكم كالكثبان الصغيرة ..

— هيـــا ..

كنت قد وقفت أراقبهم لا أدرى ماذا أفعل ٠٠ سرحت بى الأفكار على الرغم منى كأننى أشاهد شريطا يدور فى الخيال حتى نبهنى الصوت من جديد : للعمل ٠٠ أتظل حياتك تحلم وتفكر ٠٠

تحركت ولكن فى غير اتجاه ٠

خذ فأسا واحفر ، أو لم تسمع ما قال السيد ؟ ٠٠

قلت معتذرا : نتعلم مسك الفأس كما نتعلم مسك القلم ٠٠

ـ ماذا تنتظر اذا ٠٠ أتكون يداك أحن على الأرض البائسة من العامل والفلاح ـ هل تخشى أن تجرحها ؟ ان الأرض ترحب بجراح فوق جراح ٠

ـ لا أخاف يا سيدى ٠ ولكن لا أدرى ٠٠

ـ هيا ٠٠ هيا ٠٠ يكفينا ثرثرة وهراء ٠ تعالى وجرب أن تفتح صفحة هذا العالم ، أن تقرأ فيه بالآلة والعتلة والفأس ٠٠

ـ الفـــأس ؟ ٠٠

ـ نعم ٠٠ ألم يسبق لك أن لمست فأسا ؟ تنوحون على الفلاحين دون أن تجربوا الفأس ٠٠ تمجدون الأرض وتنزهون أيديكم وستراتكم اللامعة من الطين ٠٠ هيا ٠٠ هيا ٠٠

تذكرت المرة الوحيدة التى لمست فيها فأسا ٠٠ كنت فى الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة من عمرى عندما زرت الحقل ، فى يدى كالعادة كتاب ، وفى قلبى عرائس الأحلام وآمال المستقبل وحسرات الحاضر ورياح السخط وأشواق البعد تصطخب فى الضباب ٠ كان الكتاب قد استهوانى على الرغم من صعوبته ، فقد كان بالفرنسية التى لم أحسنها ، ورحت بعنادى أستشير القاموس الصغير بحجم الكف الذى لم يكن يترك « سيالة جلبابى » الأبيض ٠ قصة حب كانت ، والبطل اليائس ـ كانت محبوبته تخلص للزوج المنتظر المخلص ، زوج يعرف واجبه ويؤدى عمل الدولة كالساعة أو دورات الأفلاك ـ البطل اليائس عقد العزم على الانتحار ، يجلس الى مكتبه ليكتب رسالة يطلب فيها خدمة من صديق ، والخدمة أن يرسل اليه غدارة ٠٠ وثعبان النيل الصغير ينمدد ويسحب جسمه المتلوى اللامع ويقترب منى ٠ التفاتة سريعة الى شاطىء الترعة ، سرحة قصيرة مع دموع البطل المنتحر ، وانتفاضة مذعورة يغيب فيها العقل ويتحول الجسد الى عصفور مخبول أو حجر مندفع بقوة لا يعلمها ٠٠ جريت من الحرن المكوم بالقش الى حظيرة البهائم ٠ أخذت ألتقط أنفاسى المبهورة أمام

الأبقار والحمير التى رفعت رؤوسها عن العلف وراحت تنظر الى متعجبة ـ لم يكن الفلاح العجوز الضئيل الوجه هناك ـ جريت الى حجرته وأنا أهتف : ثعبان ! ثعبان ! خرج الرجل من الحجرة فى هدوء كعادته ، بين يديه ابرتان كبيرتان وخيوط من الصوف الأحمر ـ قال فى هدوء : هل أمسكته ؟

ـ أمسكته ؟ ·· لقد جريت منه ··

ـ شاطر ، أين رأيته ؟

قلت وأنا أتخفى فى ظله : عند الجرن ـ لابد انه تسلل فى القش ·

ـ فى هذا الحر ·· كان يزحف (نعم يزحف ، فى حياتى ما كرهت مثل الزواحف ، الدودة ترعبنى ، البورص يشيب شعرى ، يكتم نفسى أكثر من تمساح ، عين الثعبان تلسعنى فى النوم وفى اليقظة ، ترهبنى أكثر مما ترهب حمامة مسكينة يهم بابتلاعها ـ لن أنسى المنظر فى حوض الزجاج !) قال العجوز : سنجده ان شاء الله ـ اتجه ناحية الترعة · مشيت وراءه ، قال لى : استرح أنت وذاكر دروسك فى الحجرة ـ هل يهمك أن ترى ثعبانا مقتولا ؟ استرح أنت وسأحضر وأعمل الشاى ، مرت لحظات قصيرة . عاد بعدها رافعا الفأس فى يده ، يتدلى من حده ثعبان صغير ينزف دما ـ ها هو يا عم ـ لعنها الله ـ ننفضها عن رؤوسنا وأرجلنا كالبراغيث ـ صحت به : ارمه فى الترعة ـ ادفنه فى التراب ! ادفنه ؟ أنت طيب القلب · ها هو راح ! وذهب الى الباب وطوحه بذراعه السمراء البـــارزة العـــروق ـ اقتربت منه وأنا أنتفض · أمسكت الفأس لأول وآخر مرة !) ·

كانت عينا الكبير تحدجنى بنظرات كلدغة الثعبان · تقدمت أتناول فأسا مدها الى أحد الرجال الباقين فى صبر يحسد عليه · همس الصبى : تقدم ، تقدم ، افعل ما يقولون · طمأنته : لا تخش على · وأخذت أرفعها وأنزلها فى الحفرة التى بدأت تتسع · أخرجنى الصوت الغاضب من صمتى : احفر جيدا ، ما هكذا الحفر ·· أنظر لرفاقك ·· علموه كيف يمسك الفأس ويصوبها ·· أقبل أحدهم على · أمسك ذراعى وشدد قبضة يدى على طرف الفأس ، رفعها بقوة وهوى بها الى القاع · أنت الأرض بحشرجة المحتضر · ظهـــر التراب تحتها بنيا غامق اللون كجلد حيوان مسلوخ · تناثرت حبات التراب فى عينى فاحمرت وسحت منها دمعتان تقطرا على خدى · قهقه الكبير وأخذ يلكز رفاقه فى جنوبهم فيجاوبونه بالضحك ·· مال أحدهم على جنبه فى عمق الحفرة ومسح العرق عن جبهته وأخذ يضرب كفيه : مثقفون ·· مثقفون ··

زعق الكبير عندما رآني جامدا كتمثال بلله المطر ، أتلفت يمينا ويسارا ، أعتذر عن الذنب ، أعجب من ضحكاتهم وأمد بصرى للبحر أسترحمه . وللبقرة التى كانت لا تزال ممددة على الشط تمضغ وتجتر فى سلام وكأنى أدعوها أن تقف فى صفى ٠ صرخ الكبير : لا تتلفت للبقرة ـ تمتمت معتذرا : أنا أفعل ما تأمر به ـ صرخ من جديد : هل عدنا للأيام العكرة ؟ ثبت عينى رغما عنى على البقرة ـ وسط الصخب والضجيج، بل وسط اهتزاز الزلزال نفسه يمكن أن يفزع الانسان لحظة الى واحة أمن خاطفة كسراب ـ **قلت** : أنا لا أهمل عملى ، أفعل ما فى وسعى ٠ علت صرخته حتى صمت أذنى : أتسمى هذا عملا ؟ علينا أن نكمل شق القناة ٠ هل نسيت الجنة التى سنزرعها هنا ؟

قلت : لا لم أنس ٠ فأنا أعيش لها ٠

صاح : اذا فاعمل ٠ اعمل ٠٠ تردد صوت الناى ، متأرجحا يهتز على ايقاع الأذرع الصاعدة الهابطة ، وضربات الفئوس فى بطن الأرض ، وسقوط التراب على حافة الحفرة كسقوط الحجارة فى ماء آسن ، كنت أعمل جهدى لكى أستحق صفة العامل ٠ أحاول أن أبعد عنى الأفكار المتزاحمة على كلسع البعوض أو همس السحرة ٠ وتجنبت النظر الى الكبير الذى كان لا يزال يحدق فى وجهى ٠ أيقظنى صوته : مجتهد ٠٠ لكنه لا يستطيع ٠٠ لا يستطيع ٠٠ ألقيت الفأس لحظة لأستريح وشددت قامتى قليلا ٠٠ استمر يقول : خطر الذاتية ! ميئوس منه ٠٠ لم أدر كيف أدفع التهمة عنى ، لم أدر كذلك كيف أدفع الوجوه التى بدأت تتزاحم حولى، والطيور التى ترفرف على وجهى ٠ سحقا لى لو عرفوا هذا ! هى نفس الطيور التى خرجت من كبدى ، نفس الأوجه : ايزيس وأوديب وأوفيليا ، سرب الحكماء السبعة والملك سليمان وعيسى بن هشام ، أطفال وعجائز ، فلاحون وشحاذون وأبطال مآسى ، حمقى ومجانين ، خدم وأرامل وبغايا، وملوك ، فنانون وصحفيون وثرثارون ودجالون ومنسيون ومحتضرون ٠٠٠ صرخ الكبير صرخة خفت معها أن يرجع النسر على دويها ، وقف الصبى مذعورا لا يدرى ماذا يفعل بيديه وذراعيه ولا بالناى المتدلى من رقبته تصفر فيه الريح ، دوت كصاعقة اخترقت السماء فى طريقها الى قلبى ٠ يبدو أن الجرح انفتح فقد سقطت قطرات منه على جانب الحفر : ميئوس منه ٠٠ ميئوس منه ٠٠ ألقى الرجال فئوسهم على الحافة ، نفضوا التراب عن جنوبهم ورؤوسهم وتثاءبوا ٠ بدأوا يخرجون من الحفرة واحدا بعد الآخر ، وعندما تلمس أقدامهم الكثبان الصغيرة المكومة على طول الحافة يلوون رؤوسهم نحوى ويهزونها ٠٠ هممت أن ألحق بهم وأغادر الحفرة ٠ صاح الكبير : ميئوس منك ٠٠ ميئوس منك ٠٠ حاولت أن أتكلم ، تحركت

شفتاى ولم يخرج صوت ، نفضت التراب عن جسدى العارى المحترق بنار الشمس ووضعت يدى على الحافة كى أقفز • انهالت ضربة فأس طاحنة فوق يدى ـ سحبتها والألم الخانق يلطمنى ويطلق من صدرى حشرجة كلب مطعون أو مدهوس • شل السمع وغام البصر وجثم الجبل على • نفذت صيحته بعد قليل فى أذنى : الحفرة لك ! ردد الخمسة وراءه : الحفرة لك •• الحفرة لك •• **وعاد يطلق زئيره المسعور :**

يشقى ليشق قناة •

يجتهد ليحفر حفرة •

والحفرة تصبح قبره •

ويهلل الرجال الخمسة ويتمايلون طربا ويرددون على وقع التصفيق:

يشقى ليشق قناة •

يجتهد ليحفر حفرة •

والحفرة تصبح قبره ••

***

٨ ـ رأس هش •• رأس هش :

يشير أحدهم الى الصبى الواقف تجاههم على الجانب الآخر من الحفرة كشجرة صفصاف صغيرة تتدلى خصلات شعرها المنفوش فى الماء • يحول بصره عنه ويغيب فى صمته • يهتف به الكبير أن يعزف شيئا على نايه • يجمد ويلتم على نفسه كالحجر • يصرخ فيه : يا أحمق • الحفلة تحتاج الناى ! يجلس على الأرض ويدفن رأسه بين كفيه • تقذفه يد بحصاة • ينتبه قليلا ثم يغرق فى غيبوبته • أتابع كل شىء كالمتفرج ، أهم لأقفز من الحفرة فتهوى القبضات كالمطارق على يدى • **يعلو صوت الجوقة :**

تتمنى الموت ولكن لا ترضاه •

تشكو عبء وجودك لكن تحياه •

خفاش الحزن يعشعش بين ضلوعك •

لا الشعر يعزى القلب ولا العلم يجفف نهر دموعك •

العالم يرقص حولك والدنيا تضحك لك •

فلماذا تقبع فى الظلمة يضنيك الضنك •

تأكل خبز الأوهام ويأكلك الشك ؟

نحن ضحاياك وجلادوك ونحن الآسر والمأسور ٠

عشنا فى كهفك مغلوبين وخاصم أعيننا النور ٠

ماذا يضنيك ؟ تكلم ! أفض بما يشقيك ٠

الحب ؟ تسرب منك ٠ الأمل ؟ تعثر فيك ٠

لماذا ضيعت الحب أضعت الأب والأم وضاع بنوك ٠

ميئــوس منك ٠

ميئــوس منك ٠

داؤك ميئوس منه ، جرحك لا حيلة فيه ٠

نجمك ــ لو تعلم ــ نحس ، دربك ــ لو تدرى ــ تيه ٠

أخــذوا يرفعون أصواتهم ويصــفقون ، يتمايلون ويهللون ٠ بدوا كالجياع على مأدبة القيصر اللئيم ، يمدون أيديهم ويملأون أفواههم ويتلمظون ويتجشأون ويمصون الأصابع والأظافر المسنونة كالأنياب ٠ بعد الضجة والضحك الصاخب تعبوا ٠ كاد أحدهم أن يغرق فى النوم ، تثاءب ، أعدتهم الثؤباء ، فركوا الأعين ، مسحوا دمع الفرح من الجفنين ٠ هب الكبير واقفا ، أدار ظهره الى وصاح : ماذا نفعل به ؟ ردوا فى صوت واحد : نهيل التراب عليه ٠ أعجبهم القول فأخذوا يرددون كأنهم يشتركون فى مظاهرة : نهيل التراب عليه ٠٠ نهيل التراب عليه ٠٠

استدار الكبير نحوى ٠ مد يده فقبض على رأسى ٠ كانت دافئة من وهج الشمس ، نقشت فيها الريح جحورا وأخاديد ٠ شدد قبضته الحديدية عليها حتى تأوهت : هذا الرأس ؟ قالوا فى صوت واحد : رأس هش ، رأس هش ! جذب الشعر الهائش نحوه وتخلله بأصابعه وعاد يصيح : هذا الرأس ! ردوا فى نفس واحد :

رأس هش ٠٠ رأس هش ٠٠

عش لغراب البين ومخزن قش ٠٠٠

قلب عينيه فيهم باعجاب ٠ عاد يسأل : حيرنا ، ماذا نفعل فيه ؟ صاحوا بحناجرهم كالنيران تردد كلمات نشيد محفوظ : لن يبرأ صاحبه أو يهنأ بالعيش ، حتى يقطع هذا الرأس ويذبح كالكبش ــ تهلل وجهه كمن جاءه الجواب المنتظر بعد صبر طويل : ماذا أيضا ؟ شق حناجرهم سيف صياح المستغيثين لاطفاء حريق : القوه لكلاب الحى ارموه لسباع الوحش ٠

أسكتهم باشارة من يده . التفت الى الصبى كما لو كان يعاتبه لانه لم يرافق المنشدين باللحن المناسب . لزم الصبى صمته ومد يده محاولا أن يلمس رأسى ثم سحبها كمن لسعته الجمر . وقف الكبير ومد ذراعيه نحو السماء والأرض ، ثم خفضهما ووضع يده اليمنى على رأسى بينما كانت يده اليسرى تتحرك كالعصا التى تقود فريق العازفين فى وقار **وتتثنى كظل راقصة فى معبد :**

صدت عنه بلقيس وطردته من بهو العرش .

لو يلقى فى ظهر طريق ما اكترث بجثته نعش !

كأنه نثر أمامهم كنزا . مدوا أفواههم المكتنزة باللحم الأحمر ، فتحوها ، برزت منها الأسنان ، اهتزت أيديهم مع أرجلهم طربا ، صاحوا :

جزوه ليخرج منه الطيش ،

يذبح كالكبش ،

يذبح كالكبش !

مد الكبير ذراعه دون أن يلتفت نحوى . قبض على شعرى فصرخت . ضحك ورنت ضحكته عالية الصوت ، صاح كذئب يصرع شاة يغرز فيها الناب ويلقمها حجر الموت :

رأس هش ! رأس هش !

***

٩ ـ الموت على باب اليمن وكسر المرآة :

أبدا لن أنظر ليلا فى مرآة ..

فقد وجدتني واقفا على باب اليمن . شغلتنى طلعته المجيدة الراسخة عما حولى . رحت أتأمل الأثر البديع الذى أطفأ الزمن أنواره : عمودان ضخمان يقفـان على الجانبين كشجرتين عظيمتين غرستهما يد الماضى . ضيقتين فى أعلاهما ، منحدرتين بميل لطيف الى أسفل ، كتمثال ملكة بضة بلا رأس ولا أذرع . تفتح ساقيها المتلئتين بذكريات التاريخ فتمر منها مواكب غزاة ، وطغاة ، وأمواج حفاة وعراة . **نبهني صوت يهتف :** سيمر الموكب بعد قليل . ولكزنى صاحب الصوت فى صدرى ومد لى حزمة ورق أخضر يقطف منه ويمضغ . التفت اليه ، هل هذا وجه بشرى أم وجه جرادة ملتحية ؟ وعبرته العين الى وجوه أخرى متحلقة فى دائرة

متسعة ، نفس الوجوه الذابلة الصفراء ، نفس العيون الجاحظة المتعبة ، والأرجل الناحلة الحافية السمراء . وازدادت الحركة فى الميدان الصغير ، بشر وحمر وجمــال ترتع حرة كأنها فى مهرجان يمتطى صهواتها شيوخ وقضاة وحراس . وطبول تدوى من بعيد وأصداء أبواق . **قلت لجارى :** اليوم يتم الاعدام ؟ انفتح فمه الساخر عن أسنان صفراء : وهل اليوم هو الجمعة ؟ **أسرعت أقول :** غدا الجمعة .. فلماذا هذا الجمع الحاشد ؟ **افتر فمه ووجهه الضامر عن بسمة ماكرة :** غريب أنت ؟ قلت : انسان مثلك . وأوحد بالله .. قال : لكنك من بلد آخر ؟ **قلت :** من دار الاسلام . المصحف واحد ، والهم كذلك واحد . بالله عليك . ماذا يجرى اليوم ؟ قال بعد أن اطمأن قليلا : غدا بعد صلاة الجمعة يقطع سيف الجبار رقاب الكفرة . أما اليوم فيلقى الجبار رعاياه . **سألت :** مجلس القضاء الأسبوعى؟ تدخل جار : بل يعرض معجزة وكرامة . لم يترك لى وقتا للتعبير عن الدهشة . فقد لسعته ولسعتنى فى وقت واحد لطمة سوط مفاجئة من « عكفة » الامام . لقد أخـذوا يقطعون الساحة الصـغيرة وأيديهم تلوح بالسياط ، وتضرب بها الوجوه فتستقيم الصفوف وتشهق الصدور وتتعلق العيون بالموكب المنتظر .

أخيرا ظهرت طلائعه وأخذت تقترب ، يتقدمها فرسان الامام وحراسه، جراد آخر بلحى سوداء ، يزحف على أقدام حافية ، تبرق فى وجه الظهيرة عيونهم المحمرة وحناجرهم الحادة وسيوفهم الطويلة المدلاة من خصورهم ، وبنادقهم العتيقة المصوبة الى الصدور . كانوا يسيرون على أقدامهم أو من فوق بغالهم وجمالهم فيهشون الحشود ويصيحون : الامام ! الامام ! ثم يتراجعون ويتحلقون حول محفة كبيرة محمولة فوق أعناق عبيد سود تتدلى ضفائر شعرهم الأجعد من جانبى رءوسهم الصغيرة . وأخذت المحفة تتمايل حتى توسطت الدائرة المرصوصة كالسور الطينى . أرسلت عينى الى وجه الامام . مستدير أبيض ، تحوطه لحية اختلط فيها الشعر الأسود بالأبيض . والعينان متسعتان ينفذ منهما بريق كحد السيف . أزرار بيض بأزرار سوداء ، حوله حزام عريض أخضر يلمع فيه الزمرد والياقوت ويرقد فى جرابه خنجر ظهر مقبضه الفضى الموشى بالذهب .

تفرست العينان السوداوان الواسعتان فى الجموع . دوت الطبول والأبواق وصرخ العكفة : مولانا آمين .. مولانا آمين : وطلع خلفه شيخ قصير فى ثياب فقيه أو قاضى الشرع : اليوم ترون كرامة الامام . هل توضأتم أيها الناس ؟ تردد صوت واحد : نعم آمين ! رن صوت الفقيه : ستصلون وراء الامام . وتصلى معكم القطط والكلاب . خيم الصمت على الجموع . نظروا الى الفقيه وهو ينحنى أمام الامام كأنه عابد يقدم البخور

للصنم المعبود · مد ذراعيه الى أحد الحراس الذى ناوله كلبا كبيرا كان يحمله على كتفيه · وضع الكلب خلف الامام الذى وقف وقفة الصلاة ورفع ذراعيه بالشهادة · صاح الفقيه : انظـروا ! حتى الكلاب تأتم بسيدنا الامام · حتى الحيوان الأعجم يركع ويسجد وراءه · فحذار حذار !

سرت همهمة بين الناس · لكنهم كتموها وهم يبصرون الكلب يرفع ساقيه الأماميتين ويحاكى فعل الامام · رفع الجميع أذرعهم · دوت الشهادة كموج البحر · وانحنى الامام راكعا فركع الكلب وراءه · وخفضت العيون المتعجبة أبصارها ومالت جذوعها راكعة · وسجد الامام فسجد الكلب · وخرت الجباه على الأرض كما خرت رأس الامام وكلبه الضخم · ونفذت صيحة الفقيه : كرامة الامام ! معجزة الامام !

اندفعت أشق الزحام حتى توسطت الساحة ، وقفت تحت المحفة العالية التى تتم عليها المهزلة · ارتعشت عيون العبيد واهتزت ضفائر شعرهم وأنا أهتف : دجال ! دجال ! دجال ·· دجال !

ذعـر الحرس ودبت فيهم الحـركة · صلصلت السـيوف ودوت السياط · لكن الذهول سمر أقدامهم فى الأرض · راح الصراخ يشق صدرى وحنجرتى : هذا صنم كافر · طاغوت شيطان فاجر · هل نعبد صنما أو نعبد رب الأكوان ؟ أو لم نتحرر بالاسلام ؟

قال الامام فى هدوء : وأنا سيف الاسلام ··

التف الحراس حولى · رفعوا البنادق العتيقة والسيوف الطويلة اللامعة وصوبوها الى صدرى ووجهى · أشار لهم الامام فتحولوا الى أصنام· ثم أشار الى لأقترب منه : شيطان كافر ؟ خرج الصوت اللاهث : بل متاك انس · لكننى أحيا فى ضوء الشمس · نفذ صوته الحاد فى أذنى : ونحن ؟ أموات نحن ؟ **انطلق الصوت الهادر المشروخ** : أنت وهم ؟ تحيون ولكن فى الأكفان · فى كهف الماضى العفن المظلم كالديدان · بل أنتم لا شىء لا فى الحاضر أو فى الماضى · بل خارج كل زمان ·

قال الامام وهو يمد نحوى فم أفعى سام : وأنا ؟ أين أكون ؟ صمت : أنت الصنم الطاغوت · أدخلت اليمن بكهف الصمت الملعون · وأقمت السور الطين · وغدا ينهدم السور ويندفق النور وتنهار سجون وسجون ·

ضحك الامام وقال فى ثقة العارف : غريب أنت ؟ من أتباع الكافر ماركس والفاسق لينين ؟ أنا أعرفك وأعرفهم · طاشت ثورتكم يا مسكين· قلت فى هدوء : الثورة آتية والفجر قريب ·

ضحك وقال : من أين ستأتى يا مجنون ؟ نحن هنا فى ظل المصحف يحكمنا الشرع ٠

صحت فى الجموع : بل تحكم بالسيف وتقتل بالسيف ٠

قال وهو يشير الى حراسه : أنت حكمت على نفسك ٠ هيا يا حراس٠ لا لا ! انتظروا ٠ وسيحكم فيه هذا الكلب !

باشارة من يده قفز الكلب من فوق المحفة على صدرى ٠ جثم على ولفحتنى أنفاسه الحارة ٠ انغرزت أسنانه فى لحمى وسال الدم من وجهى وذراعى وساقى ٠ صارعته وصارعنى ٠ لو كان كلبا واحدا لقاومته وطرحته أرضا وجثمت عليه وغرزت فيه أسنانى ٠ لكن كلابا أخرى هجمت على وأخذت تنهش لحمى وتلعق دمى ٠ كلاب مسعورة من كل لون وجنس وشكل ٠ من أين جاءت ؟ هل أطلقها « العكفة » بعد أن دربوها ؟ هل كانت هى الأخرى تصلى وراء الامام ؟ وانهالت على اللكمات والصفعات من كل جانب ٠ وانضمت الكلاب البشرية والجراد الملتحى الى المعركة ٠ والجميع يهتفون ويزغردون ويرقصون على جثمانى : غريب كافر ٠٠ كلب ثائر ٠٠ نحن ننفذ حكم الشرع ٠٠ نحن ننفذ حكم الشرع ٠٠

لا أدرى كيف خرج الصـوت من جثتى الغـارقة فى الدم والطين والعذاب : حكم الشرع هو العدل ٠ عودوا للرب الحق ٠٠ للرب الحاكم بالمصحف لا بالسيف ٠ نحوا الطاغوت الحاكم بالسيف ٠ يقطر منه الدم أنهارا منذ معاوية ويزيد والحجاج على الأعناق يرف ، نحوا السياف ونحوا السيف ٠٠٠٠

وأشار الامام فتنحت البنادق والسيوف والسياط ٠ والتأم البنيان المرصوص من الجراد الملتحى فى دائرة كثيفة التفت حولى كأنها سـور صنعاء الطينى ٠ ووجدتنى وسط الدائرة لا بشر حولى ولا كلاب ٠ جثة وحيدة ما زالت تتردد فيها الأنفاس ٠ وعندما فتحت عينى لم أجد أحدا حولى ٠ أين ذهب الجميع ؟ بماذا حكم الجبار ؟ من سينفذ حكمه ؟ ومتى يعمل فى السيف ؟ تحسست رقبتى وقلت لنفسى : انتظرنى الجبار الى الغد ٠ بعد صلاة الجمعة يقطعك السيف ٠ وأفقت على دقات رهيبة على الباب ٠ قمت متثاقلا وفتحت الباب ٠ جرادة ملتحية تقف أمامى ، بين يديها سلاسل وأغلال تصلصل بالموت القادم فى الليل ٠ نحن الحراس ! أرسلنا الجبار اليك ٠ أمر وأمر الجبار مطاع ٠ أن نضع الأغلال بساقيك وكفيك ٠٠ هيا هيا ٠٠ كف غريب كافر ٠٠ هيا هيا ٠٠ ساق الكلب الثائر ٠٠ وغدا نقطع رقبة زنديق فاجر ٠٠٠

قبضت يد على يدى • حاولت يد أخرى أن تضع الغل فى ساقى • انتفضت صارخا : انتظروا أن أصلح شأنى • وأردت أن أتجه نحو المرآة المثبتة أمام فراشى المضطرب الدافىء • أمسكنى الحارسان ولفا ذراعيهما حولى كأنهما شبكة حديدية تلتف حول سمكة هاربة • صاح أحدهما : ويلك ! لا تنظر ليلا فى المرآة ! ورفع الآخر الأغلال الثقيلة وأطلقها على المرآة فتحطمت وتناثرت شظايا ••

ثم صاح وهو يقبض على يدى ويحكم السلاسل حولهما : أو لم ننهك عن هذا ؟ لا تنظر أبدا فى مرآة ! لا تنظر أبدا فى مرآة •••

***

١٠ ـ وجه المحبوبة والسياف وتنفيذ الاعدام :

فى ساحة الاعدام ـ الشمس فى الأفق قرص ذابل الاحمرار ، تنور تخبو فيه النار ، أوراق الشجرة تكاد تلامس رأسى ، جذعها الخشن الناتىء يحك ظهرى ، يوجعه ، يوشك أن يدميه ـ أفتح عينى المحترقة بلهب السهد، أنظر حولى وأمامى ، أتلفت للخلف ـ وجوه •• وجوه •• أقنعة سوداء وشيلان بيضاء ، وعباءات وعمامات ، أصوات تختلط على سمعى ، همس وصياح ، دمدمة وأنين • تفتح عيناى ، تفتح أذناى كأبواق تنفض عنها الكف تراب سنين ، من يتزاحم حولى ، لم يتجمع هذا الحشد وينظر فى ، الشمس تميل الى الغرب ، عربتها المحمرة تتوارى خلف الجدران ـ مكتب البريد أمامى ، أمامه السور الحديدى المنخفض وبابه الصغير الذى طالما دفعته بيدى ، خلفى ثلاث قباب بيضاء مدورة كبطون الحمام ـ وعلى خطوات منى حجر صلد ، يرتفع على كتف منصة ، كالمذبح فى قلب المعبد ، الحجر نظيف لامع ، والمنصة تنحدر بانفراج نحو الأرض • والعشب الطرى يبزغ من الأرض وتلون أطرافه أشعة صفراء ذابلة ، تتناثر فيه نقر الماء وآثار الأقدام على الطين ، تلسعنى ذبابة ، أريد أن أرفع يدى فأكتشف القيد فيهما ، سلسلة حديد صدىء تربطها باليد الأخرى ، تؤلمنى قدمى ، تحز الجلد والعظم سلسلة أخرى أكبر منها : لو حاولت القفز سأبدو كغراب يحجل ، لن أجنى الا سخرية الطير المتربص بى ••

لكزتنى فى جنبى أصابع خشنة كالحوافز : تبتسم وتضحك وتكلم نفسك ؟ أو لا تشعر بالهيبة ؟!

أرفع وجهى كى أعرف مصدر هذا الصوت • يختلط على الأمر • ست وجوه تحدق بى ، ستة أجسام كجذوع النخل • أتفرس فيها ، أنكرها ، أتعرف فيها الأعين والجبهة والحاجب والأنف : نسخ واحدة من

صنم واحد • رأيتهم من قبل ـ لكن الملبس يتغير ، سترات بيضاء ، حزام بنى حول الخصر ، يبرز منه مقبض خنجر • المقبض من عاج ، يتوسطه فص أحمر ذهبى ـ السروال ملون ، تجرى فيه خطوط حمراء وبيضاء وزرقاء ، فى القدمين صنادل من جلد أو مطاط ، تبدو منها الأصابع والأظافر المغبرة • ستة وجوه ، ست لحى سوداء ، ست عيون غائرة تذكرنى بعيون الأسرى من بابل نقشت فوق جدار الكرنك • تلمس كف شعرى وتشده • **يتردد صوت واحد** : رأس هش ! رأس هش !

الآن تذكرت ••

ـ هل أنت على استعداد ؟

يجيب صوت من خلفى : طبعا يا سادة • ألتفت اليه • يجلس متربعا على العشب ، يمضغ ورقا أخضر • وجنته اليسرى منتفخة •

ـ فات أوان التنفيذ ••

ـ ننتظر القاضى ورسولا من عند الجبار ••

تلمع عيناه بذكاء فطرى • فك مفتر عن بسمة طفل أو عذراء • شعر اللحية يبرز فى غير نظام • الأنف قوى حاد • والوجه كحجر أثرى ناتىء • ينظر فى خجل للأرض ـ كل عيون الناس تحدق فيه وتنتظره ـ يتدلى من الحزام الملتف حول وسطه سيف طويل فى جراب ، أراحه على الأرض وراح يمضغ بغير اكتراث •

طيبون هؤلاء الناس • طيبون وأصلاء • صامتون أيضا ، يتركون لك حرية البكاء • أيديهم الخشنة السمراء تشغلهم عن سقطات اللسان • الأنامل النحيلة كأسراب النمل ، تتحرك ، تمتد وتقبض ، تخزن وتفكر ، تتكلم من غير كلام • طيبة هذى البلدة ، والرب غفور ـ يتجول فيها شبح الزمن الميت ، يتثاءب يتنفس يزفر أبخرة من مسك وعطور ، فى كل مساء يلمع فوق مآذنها سيف يحمله سيف ، يهتف يتأوه ويرف • ويهب حريق فوق مآذنها فى منتصف الليل وعند الفجر ، تعلو ألسنة اللهب تسبح ، تدعو بالخير وتنذر بالويل ، تطوقها جبال سوداء كظهور مردة شادخين ، أخذوا يهدهدونها على بحور الذاكرة والليل والشعر • مجهولا سرت اليهم، أسعى فى الطرقات غريبا ، أقف بقلب الساحة مجهولا ينظر فيه مجهولون (آه يا مدن الضجة والأحزان ، حاصرنى قيظ جحيمك ، زحف على الطوفان، تختال القردة فيك وتزهو بفحولتها الخصيان ، أهرب منك اليك وعن ظلى التائه أبحث بين النيران ••) •

أسمع هرجا وسط الجمهور • يبكى طفل حط على عينيـه جيش

ذباب · وتنوح عجوز طيبة الوجه انكسرت فى جبهتها سفن الأيام ووقف الموت على الباب · يهتف شاب : عاش العدل ! نصر الله الاسلام ! تضطرب الأيدى الخشنة والأذرع والأجسام ، تقترب من السور الشائك ، تسرى الهمهمة كشبح يجرى فى الليل الحالك · يقف حمار كان يتجول وحيدا ، يمد الرأس والأنف ، يحك رأسه بالسور وينهق ، تتسلل عنزة خلال الصفوف ويتفرس فى وجهها السامى المستطيل باستغراب · وصل القاضى ورسول الجبار ـ ترك السياف القات ووقف على قدميه · ابتسم وخبط على صدره العارى وتحسس مقبض سيفه · انحنت جذوع الشجر السوداء وقدموا أنفسهم : نحن تتبعنا أثره ، مجهول حاول أن يزرع فى الأرض الطيبة بذور الفتنة ، راقبناه وعرفنا سره ، وذهبنا للجبار وأبلغناه أمره ـ ها هو مربوط فى جذع الشجرة ·

اقترب القاضى منى · ووقف رسول الجبار بجانبه يحمل أوراقا ملفوفة · نظر القاضى فى وجهى ، لمست كفاه كتفى ، تمتم وتنحنح ، حمد الله وسبح باسمه · كانت شفتاه تتحركان ولا يخرج منها غير حروف مقطوعة الرؤوس · لم أفهم شيئا مما قال · سقطت فى أذنى بعض الكلمات: تلك حدود الله ، فاحكم بالعدل ، تقطع أيديهم ·· أرجلهم ·· كان وجهه كوجه فأر ، على عينيه نظارة بنية سميكة تستند على أرنبة أنفه ، فوق رأسه عمامة بيضاء ملفوفة بعناية ، على كتفه شال حريرى مذهب الأطراف، حول وسطه حزام عريض من الصوف تتدلى منه مسبحة سوداء طويلة · فى عينيه اصرار تكسر حدته الرحمة والعطف · أما الرسول فكان يقف وراءه ويده على خنجره اللامع ، بينما تدير اليد الأخرى اللفافة الصفراء المربوطة بشريط حريرى أحمر · وجهه عريض بارز الوجنات ، مكتنز من أثر النعمة ، وعيناه واسعتان تلمع فيهما حدقتان شديدتا السواد يحيط بهذا البياض · ما أشبههما بعينى الجبار ! لم أرهما الا فى الصور والكتب القديمة ، لكنهما أرقا **ليالى ونفذا كالخنجر بلحمى** : عينان كعينى ثور هائج ، واسعتان مخيفتان كبئر مسموم ، معلقتان كدوائر النار فى السحب، فى الهواء ، فى أوراق الأشجار ، شررهما المتقد يضىء فوق قمم الجبال · يلتصق بأحجار الشارع ، يتوهج فى البيوت وعلى الجدران ، تتسلط على القرية فى كل وقت وكل مكان ، عينا نسر شرس منهوم ، رفرف فوق سطوح المدن ، تدلى منه سيف يقطر بالدم ، يرعب حتى النمل الراقد فى الشقوق والجحور ، كم تلمع هاتان العينان فيسيل منهما طوفان الليل والخوف الأصم · ارتعدت ، جرفتنى قشعريرة الحمى ، **وربتت كتفى كف القاضى الحانية** : هدىء روعك يا ولدى · فالعدل سيأخذ مجراه ·

التفت الى الحراس الستة ـ اهتز الصنم الأكبر وتكلم :

_ مجهول دلف الى الفندق في وقت مجهول ·

سأل القاضي ، لمعت عينا السياف : ماذا يفعل ؟

_ لا نعلم · يهذى ، يهمس ، يحلم ·

صحت غاضبا : هل حرمت الأحلام ؟!

هز الصنم رأسه وانفرجت شفتاه : بالطبع · الأحلام الفاسدة بذور الفتنـة ·

استعاذ القاضي بالله : المؤمن لا يحلم · والعاقل لا يفشى أبدا سر الحـلم ·

تقدم رسول الجبار وقال : عين الجبار على الكفرة _ لا تخطىء منهم شـعرة ·

بدأ كبير الأصنام يشرح القضية ويلقى التهمة : راقبناه مع الأيام · وصبرنا حتى جاوز سن الخمسين · وفحصنا الأحلام ودققنا فى الأوهام · ليتكم كنتم معنا حين دخلنا فى رأس القاتل ورأينا الخنجر · ورأينا بركان الثورة يتفجر ، طوفان الغضب يدمر _ ورأينا مدن الأحلام · يمشى فيها ناس من نوع آخر ، قيم وشرائع أخرى ، أفكار وعلوم تشعل نارا كبرى ··

استعاذت الأصنام الخمسة من النار · تمتم القاضى وهو يقترب منى : ماذا تفعل يا ولدى ؟ أتعلم ؟

_ بل أتعلم · لا أزعم أنى أعلم · حظى من زاد العلم قليل وحصاد العمر ضئيل ·

_ حياك الله · تكلم · ماذا كنت تعلم ؟

_ أن الانسان كريم حـر · الله استخلفه فوق الأرض ، لينظر . يسأل . يعمل يحتج ويرفض ويفكر ··

_ نعم بالله · وتفكروا ، وانظروا ، وفى أنفسكم ···

اعترض أحد الأصنام قائلا : يا مولانا لا تغتر بقوله ···

أسكته القاضى باشارة من يده : هذا ما حث عليه الشرع ···

تدخل صنم آخر : اسألنا نحن به أدرى _ طفنا معه فى أبهاء الحلم ، وسمعنا همس الشفتين خلال النوم ، ورأينا أسراب الطير الغاضب تخرج من كبده ···

صحت : من كبدى ••• هل أنتم ؟

قالوا بصوت الجوقة : نحن •• تذكرت ؟ أو لم تسمع يا مولانا ما قال الآن ؟

سأل القاضى : ماذا قال ؟

قال أحدهم : يرفض ••

قال الآخر : يندهش ويحتج ويرفض ••

قلت : شىء لا أخجل منه • ليس بانسان من لا يحتج ويصرخ لا •

قال الصنم مؤكدا : هذا ثابت فى الأحلام ••

صحت بصوت مخنوق : أحلام لا تؤذى نملة ••

هتف الصنم الأكبر الذى لم يستطع أن يخفى فرحه : والأحلام تفجر ثورة •• وتحرك سيف الكفر بأيدى الكفرة •••

استعاذ القاضى من الفتنة والكفر •• تحسس السياف جراب سيفه وعبثت يد الرسـول بمقبض خنجره اللامع • تحفزت العيـون وساد السكون •

قال القاضى : أين هويتك يا ولدى ؟

تقدم منه الرسول وأحنى رأسه • مد يده فى صدره وأخرج حافظة بنية داكنة • أخرج منها بعض الأوراق وقدمها له • تفحصها القاضى ثم هز رأسه وقال :

ـ بيضـاء ••

ـ **لا اسم ولا عنوان •• لا أتبين الا كلمات** : كن اياك ••

أكد الصنم الأكبر وهو يهز ذراعه فى الهواء : ألم نقل لكم ؟ مجهول يحمل رأسا مجهولا ـ يمضغ خبز الأحلام المجهولة ، تخرج منه طيـور الأحلام المجهولة • هذا خطر الأخطار ، حمدا لله فلم تغمض عين الجبار ، عن هذا الرأس الهش الثرثار ••

وضع يده على رأسى وشد الشعر حتى صرخت • لمعت عين السياف وطافت بالرأس والرقبة • ضغطت وجوه الحشد على السلك الشائك وعلت الهمهمة • خفض القاضى رأسه وارتعشت جفونه وجرت أصابعه قليلا على المسبحة قبل أن يقول : مجهول لا تعرف عنه هوية • اقرأ يا ولدى نص التهمة • تلك حدود الله وهذا أمر الجبار ••

انطلقت صيحة من صفوف الحشد الواقف عند السور · تماوج الزحام وانشق عن امرأة تصرخ وتشير : انتظروا ·· انتظروا · لوح القاضى بذراعه ففتح الحراس سياج السور الصغير · اندفعت فى ثيابها السوداء ، وموجة شعر أسود ترف حول وجهها · تسلقت درجات المنصة الحجرية ، تقدمت من الشجرة التى ربطونى بها · وتبينت الوجه · نفس بريق العينين ، والوجه الشاحب كالقرص مدور ، آه يا قمرى الأوحد فى ليل العمر ··

سأل القاضى : هل تعرف صاحبة الوجه ؟

قلت وأنا أثبت عينى عليه : حلمى الأكبر ــ يسعى الانسان وينسى، وينام ويحلم ، لكن لا ينسى الحلم الأول ··

غضب القاضى ، دمدمت الجذوع الستة ، اهتزت أغصان الأذرع واضطربت أوراق الأيدى · **هتفت صائحة** : يا قاضى العدل · أنا أعرفه · أستحلفكم بالله دعوه ·

ندت عن الجذوع السوداء ضحكة خشنة · ابتسم القاضى : ندعه ؟ قد صدر الحكم · أمر الجبار وان الأمر أهم · اقرأ يا ولدى التهمة ··

بدأ الصوت يرتل البنود المدونة على اللفافة الصفراء · ثبت كيانى عليها فلم أصغ لما يقول · صدمت أذنى كلمات المجهول ، الأحلام ، الثورة ، أشواك الفتنة · نادتها روحى : أنت ؟ تأتين الى ؟ وأرى وجهك وأكلمك وأسمع منك؟ الآن أموت قرير العين · حلمى الأوحد يتحقق فتلذهب كل الأحلام ، انى الآن أكفر عنه أمامك ، هل تكفيك الآلام ؟ ما زلت بآخر أنفاسى أذكر تلك الأيام ··

ــ وأنا أذكرها · كنا جيران ··

ــ كنت أعيش ، أفكر ، أتنفس لك · كالصوفى الزاهد لا أقصد الا وجهك · أقرأ ما أقرأ ، أكتب كتبا عنك ولك ·· حين تمرين وألمح وجهك بالصدفة ، ينفذ كالقمر الناصع من نافذة الشرفة ، وتهلل سفنى الغارقة على صخر الوحشة ، أفرح كالطير المقرور وتعرونى الرعشة، وجد الطائر عشه · أبدا لم تكترثى بى . ما صعدت النظر الى ، ما أحسست بيتم القلب ، حين أتيت وزرت الأهل . سلمت عليهم ما سلمت ، قالوا ، قلت ، وأنت لزمت الصمت · كنت أحبك أنت وغيرك ما أحببت ، غيرك ما أحببت ، غابت عينى وتحيرت ، مر جواد اللحظة وترددت ، لم يرجع

أبدا ، فات الوقت ، فات الوقت . ركضت سنوات العمر وشرقت وغربت، طوفت بمدن البشر ، عرفت ، جهلت ، نسيت ، وغرقت ببحر الاثم طفوت ، وتطهرت وعشت ومت . غيرك ما أحببت . تعبر أيامى المقتولة ، أصحو ، أعمل ، أضحك ، أحزن ، وأنام ، لا أبصر الا وجهك ، الا عينيك ، ويقتل يوم يتبعه يوم ، تقتل أعوام . وجواد اللحظة مر ولن ترجعه الأحلام . لكن أحيانا أحلم أنك جنبى ، فأكلمك وأضحك معك ، وأضحك من أوهامى، وأمد يدى باللقمة نحوك ، أغلق شباكى حتى لا تؤذيك الريح ، أشكو الأيام اليك ، وسخرة أكل العيش ، وأشد غطاء الفرش عليك ، أقبل وجهك قبل النوم ، أمر بيدك على أوجاع القلب وأسحبها فوق الصدر ، وأقبلها ، وأوسدها رأسى لتنام .. أنتبه لنفسى ، أعرف انى كجنين فى بطن الأم ، يسألنى عقلى : لم تتناول هذا السم ، لم تستسلم للأفكار الثابتة وعقدة أوديب وسائر أمراض الوهم ؟ ما أغبى العقل المغرور وما أغبى الطب ، يتوقف عند الظاهر لا يسبر غور القلب . أحيا كالناس وتحيين ككل الناس ، وندور ونأكل نسخط نرضى نلقى الأولاد الى العالم نشكو ظلم الزوج .. جحود الأبناء .. الأهل .. الأصحاب . ونسعى فى أسواق الرزق ، ولكن هل ينطفىء الحلم ؟ الحلم الأول محفور فى الجلد اللحم العظم ..

– هل تحلم أبدا ؟ السياف أمامك والسيف يهدد بالقتل ..

– هل ينجو الانسان من الظل ؟

– قرأوا التهمة .. والتفوا حولك ليفكوا القيد ..

– يكفينى أنظر فى عينيك ..

– لم جئت ومن جعلك تدخل من هذا الباب ؟

– لما أغلقت بوجهى الباب ، سدت فى وجهى الأبواب ، ووقفت على باب العالم ، أطرق ، أطرق ، لايفتح لى ، تنكرنى السدة والاعتاب ، ويطردنى الحجاب ..

– العين بعين ، والأذن بأذن ، هذا هو نص الحد ..

– لا .. لا داع للأعين والآذان ..

دوى الصوت فى أذنى . استطرد بعد قليل : نحن ننفذ نص الحكم .. هيا يا سياف . وضع ذراعيه حولى ، لفحتنى أنفاسه الثقيلة . فك القيد عن اليدين ، وانحنى ليفك الأغلال عن القدمين . هتفت حبيبتى : افتح عينيك ! ..

همست : يكفيني أنظر في عينيك ٠٠٠

قال الجذع الأكبر الذي أمسك يدي اليمنى : نريحه من هذه اليد ـ تكفيه الأخرى ٠ أمسكها السياف ، هزها قليلا ، لمس الرسغ ، طلاه بدهان أسود ٠ لمع حد السيف ثم هوى ٠ صرخت من الألم ٠ ربت على كتفي : عندي لك زيت مغل من أفضل نوع ٠

انتهى لأذني صوت : وماذا يعمل بهذه ؟ يمكنه أيضا أن يستغني عنها ، هوى الحد على رسغ اليد اليسرى ـ طش الزيت المغلي ٠ اختلط صياح بنشيج بكاء ٠ ضحكات تعلو ، لا زلت أميز منها : يمكنه أن يكتب أو يرسم بالفم ٠ هذا أيضا فن ٠٠ تحسست يد خشنة ساقي اليمنى ٠ أزاحت الشعر عند التقاء الساق بالفخذين ، دهنتها بعلامة سوداء ، وهوى حد السيف ـ لم أقو على الصراخ ٠ حتى الكلاب تكف عن العواء عندما يذبحها الألم ٠ في ضباب الغيبوبة تحدرت همسات وهمسات كقطرات المطر ـ تسقط الآن على رأسي ٠٠ يتردد صوت : رأس هش ! رأس هش ! شدوني الى المنصة ٠ كفان ثقيلتان تقبضان على شعري وتضعان جبهتي على الحجر ٠ أملس ناعم ، انداحت قطرات رطبة ٠ الكف الثقيلة تدعك الرقبة ، تزيح الشعر عنها ، تدلكها بدهان لزج ٠ تغمض الأعين ، تنكتم الأنفاس ، تهرول أقدام الذعر بلا صوت ، رأس هش ! رأس هش !

أبكي ، أفتح عيني وأتحسس رأسي ٠٠

***

١١ ـ العودة الى بهو العرش :

الدموع لا تزال في عيني ، صدري يرتجف وينشق كأرض روعها الزلزال ٠ تلمس كتفي يد خفيفة ، أفتح عيني فأراني أستند على جدار وأراه :

ـ أنت ؟

ـ تحلم كالعادة بالناسوت وبالناموس ؟

ـ أحلم ؟ ٠٠ بل فزعني الكابوس ـ أتحسس ذراعي ويدي ، أمد الساقين ـ أتذكر وأمر على رقبتي وأضغط على عروقها ولحمها بشدة ٠٠

ـ حاذر ٠٠ تخنق نفسك ٠

أضحك وأقول : كالعادة ! يقترب مني وينحني علي ـ يتفحص وجهي ويثبت عينيه في عيني ـ يسألني برفق : كيف وصلت الى القصر ؟

قلت : القصر ؟ هل هذا ..

ضحك وضرب الكتف وقال : سرت بنومك حتى جئت اليه ، سافرت وعدت من الأسفار ، لتبكى جنب جدار ..

جففت دمعة جرت على خدى ونفذت فى شفتى : كلب مكتئب يحتضر وحيدا بجوار جدار .. مد يديه فأخذنى من يدى : تحلم أبدا ، لا تعرف حق الجار على الجار . ينتظرونك ..

سألت وأنا أنهض على ساقى وأنفض الغبار عن رأسى وصدرى وسترتى المبللة بحبات الندى : ينتظرون ؟ من ؟

ضحك وقال : جيرانك ، فى بهو العرش هناك ..

ــ جيرانى .. بهو العرش ؟

ضحك ومد ذراعه فتأبطنى من ذراعى : هل ينسى الجار الجار ؟ وأنا أيضا ..

قلت وأنا أضغط على يده : لا لا .. لكنى اشتقت لنايك ، رحت أفتش عن ظلك فى الساحة ، قرب الشجرة ..

سأل : ما هذا ؟ عدت لأحلامك ؟ انى أنتظرك منذ الفجر . زعموا انك أفسدت حياتى . قلت غريب مجهول ــ غضب مدير الفندق ، هدد وتوعد : كيف تسرب ؟ ليس لديه هوية .. أين ذهب ؟

ــ طفت بمدن الناس وجبت متاهات القلب ، وأشار العقل فسرت على الدرب . ها أنت ترانى ألفظ أنفاسى بجوار جدار وكأنى ...

غضب وصاح : لا تلفظها .. يكفى تعذيبه لنفسه !

ضغطت على يده : معك الحق .. أقسى من عذب نفسى هو نفسى ..

أقبل على البوابة يفتحها . صرت ضلوعها الحديدية الصدئة وتساقط عنها التراب . نظر الى وغمغم : مفتاح السحر معى ، أنظر ! وضع الناى فى ثقب القفل الضخم . قفل صلب مغبر . أهمله الزمن الأعمى فتراكم عليه نسج العناكب . هتفت : تفتحه بالناى ؟

ابتسمت عيناه وقال وهو يعالج القفل العجوز : سحر .. سحر .. أنسيت كلام السيد ؟

قلت : الناى يروض حتى الوحش ..

ضحك وقال وهو يخرج القفل من المزلاج ويدفع الباب : والغابة فى الداخل ، يسطع فى ظلمتها العرش ــ أدخل .. فوحوش أخرى تنتظر هنـــاك ..

خطوت الى الداخل ووضعت قدمى على العتبة · قلت قبل أن أنزل من على الدرج : كما تنتظر النار القش ! ··

نفس القاعة والبهو · العرش يشع فى آخرها كهودج ذهبى وسط السحاب الأسود · أشباح تتجول وظلال تتحرك فى صمت ـ أتقدم فى اتجاه العرش كأنى أتزاحم فى موكب أرواح معتمة تنتظر القارب والملاح الشيخ · الجماجم كما هى تحت قدمى الكرسى كبقايا حيوانات راكعة فى ذل ، والجالس فوق العرش استسلم للنوم · افتقد بريق عينيه الواسعتين الباردتين ، أنظر فى شعره الأشقر الجميل المنسدل على أذنيه ، أتطلع للجبهة العريضة كلوح مصقول من الرخام وهى مائلة على مسند الكرسى · تعب الرأس وغربت فيه الشمس ! جاءت أجيال أخرى ورؤوس أخرى ، وانحدر القرص المتوهج فى أحضان الظل ، لا يبقى ملك فوق العرش ولا يسلم نجم من زحف الليل ··· أتلفت حولى ، أين الكهنة والسدنة فى هذا المعبد ؟ كانوا يقفون حواليه ، ينتظرون الأمر من الرب الذى ابتلع نفسه وابتلعهم ·· ها هم يجلسون فى صمت ، لولا بصيص شعاع ينفذ من السقف والنوافذ التى أسدلت عليها ستائر القطيفة الداكنة لتعثرت فيهم · أغمضوا عيونهم وناموا مفتوحى الفم ·· هل ينتظرون من ينفخ نسمة ريح أو بركان ، أو عاصفة تحييهم ، تنفض عنهم كفن النسيان ؟ وما زالت الشجرة كما هى ، ممتدة الغصون ، جذعها الملىء بالأورام والنتوء كجسد مجدور تمد جذعها فى الأرض وتتشبث بالطين على الرغم من كل شىء ·· تملكنى الخوف ـ أخشى أن أرى العقرب يظهر فجأة وينبش أصابع قدمى ـ كان قد تسلل أمام عينى الى أقدام العرش وغاب بين الجماجم ، من يدرى ان كانت هناك عقارب أخرى فى انتظارى ؟ أصيح من الذعر : أنت ! لم لا أسمع صوتك ؟ **ينساب الصوت بلطف** : أنا لا أتخلى عنك ·· أسأل فى ذعر : انى أتعثر فى هذا الليل · لم لا تشعل شمعة لحنك ؟ **يتسلل صوت ينفذ فى الجدران** : لا يظهر نجمى الآن ، دورى لم يقبل بعد·

أصرخ فى أحجار الحكماء على الصفين : يا حكماء ! ··

لا يتحرك حجر ، لا يخفق صوت · أعود فأصرخ على أشرخ جدران الصمت ! يا حكماء الزمن الغابر ، عذرا ، يا أنجم هذا الزمن الحاضر ، يا حكاما فى مملكة الأوهام ، اصغوا لنداء رعيتكم ··

يتثاءب أحد الأحجار · يفرك عينيه وينفخ فى وجهى كالاعصار : مـــن ؟؟

أصيح : شبح يستنجد بالأشباح !

يدمدم غاضبا : هل تجلد حتى الأرواح ؟

هتفت محاولا أن أهدئه : انى منكم ، أهرب منكم واليكم ..

سأل فى ضيق : ماذا تطلب ؟ لم تنشلنا من بحر النوم ؟ تصرخ وتثرثر وتهيل علينا اللوم ؟ لا تزعجنا ، أرجوك ولا تتبختر بين عمالقة العالم كالقزم !

قلت أكثر عن ذنوبى : لفظتنى الأبواب فجئت اليكم أتمسح بالأعتاب، نبذتنى المدن الحجرية لا جيران ولا أحباب . قالوا ليس لديه هوية . لا اسم ولا عنوان ولا ألقاب ..

قال : ومتى تعلم أن الفكر غريب يخطو بين الأغراب ؟ يحيا فى زمن لا يتقيد بزمان ، يسكن بين الناس ولكن لا يتقيد بمكان . يرسم وجه زمان لم يولد بعد ، يهدى ويحرر من أسر المهد وسجن اللحد . يتلمس خلف رداء الحاضر نبض الأبد الممتد ..

قلت فرحا : أرأيت ؟ أنا أيضا أسمع هذا النبض وأنظر فى هذا البعد . ونهاية كل الأشياء أراها خلف بدايتها ، فأرى العظم وراء اللحم ، والكفن الأبيض فى ثوب العرس . أنا أيضا رحت أحدق فى عين الموت وأتحداه ، يأتى أو لا يأتى لن أخشاه .. حاولت ..

قال متذمرا وهو يتثاءب : ماذا حاولت ؟

قلت مندفعا لأسرق انتباهه : حاولت على قدر الجهد ، أن أبعثكم أحياء ، وأذوب نفسى فيكم أعجنكم بدماء القلب .

تحرك حجر آخر . مد ذراعيه الى الأمام والوراء ووضع يده على فمه ليمنع تثاؤبه أو ضحكته العالية . قال بسخرية مرة : حاولت .. وحاولت .. لم تحيا أبدا فى الوهم ؟ لم تقفز من قمة حلم لتغوص بهوة حلم ؟ عش يومك يا ولدى ..

قلت محتدا : من قال بأنى لا أحياه ؟ انى أنظر ..

قال بصــوت ممدود يتحشرج من أثر النوم : خلف رداء الظــاهر والحاضر ؟! وهم .. وهم .. من بؤرة هذا الحاضر تبصر ماضى الأزمان ، وبعين الظاهر تجد اللب الكامن فى الأشياء وفى الأبدان ، وعلى مصباح الحاضر تهدى للدرب الصاعد فى أحشاء الأيام .. أوهام .. أوهام .. عض بأسنانك فاكهة الحاضر ! ..

قلت كأنى أعاتبه : من لايحمل تجربة الزمن الغـابر ، لن يدرك معنى الحاضر ـ هاأنا أحمل فوق الكتفين جبال الأجيال ، وأوجـه وجهى للخلف وأستقبل غرر الآمال · من لايشرب خمر الآباء فلن تسكره كأس الأبناء ، من لايأكل زاد الآلاف من الأعوام ، لن يتذوق خبز اليوم الراهن أو مايأتى من أيام ··

تلوى صوته وتمطى كسلحفاة هرمة : حفنـة كلمـات من مقبرة الأموات · أد الواجب نحو اللحظة ، وتعلم مما فات · لم تجزع من شبح الآتى ؟ ماهو آت آت ··

قلت منتصرا : هاأنت تردد كلماتى !·· فى القطرة سر البحر ، فى اللحظـة سر الأبد الهادر كالنهر ·· فيهـا الجنـة ان شئت وفيهـا النار ··

تثاءب بصوت مرتفع · انبعث منه أنين كمواء قط عجوز يبعد اليد التى تعبث بشاربه ولحيته وتطرد عنه النوم : اذهب ياولدى ، عد من حيث أتيت ، وترفق بظلال عبرت وعظام ·· اذهب · اذهب · أكمـل سمرك فى مأدبة الأبد ونادم كأس الأحلام ··

قلت أناشده كالدية ، كالشحاذ يريق الدمع وماء الوجه ليأخذ من كف بخيل لقمة : ياأرباب الحكمة قولوا كلمة ، مصباح الحكمة صار يشع الظلمة ، حاولت أن أكلمكم ، أنتشل قواربكم ، أنشر أشرعة خواطركم فى وجـه الريح العاصف بالنقمة ، أخلع عنكم كفن النسـيان وأستحلفكم بالانسان ، أجعل منكم شاهد صدق فوق الزمن الطافح بالبهتان · معذرة، فاض القلب بما يحمل فانطلق لسانى ··

جاءنى صوته المتثائب الذى يقـول آخر ماعنده ليمنع كل كلام : نحن جسور ياولدى ··

أسرعت بالرد قبل أن يسقط فى حفرة نومه : أنا أيضا جسر تعبره الأقدام ، بعد قليل ينسى أو تطويه الاحزان ·

قال فى حسم كبريق السيف : فابن الجسر بنفسك ·· ولكل زمان جسر ثان ·· وانس المطلق لا تبحث عنه وسـل زحام الفانين ·· الفانى ··

سألت فى حيرة : أولا يبقى شىء ؟ هـل الانسـان مجـرد انسان ؟

قال فى حالة ذبول ينهى آخر فصل فى المأساة : لن يبقى الا من حول

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

نهـر حيـاة الانسـان ووقف بوجـه الظـلم الزاحف كالطوفان . أما التجريد ..

سألت : التجريد ؟

قال : حاذر سم العقرب ..

سألت بلهفة وأنا أحـرك قدمي في كل انجاه خشـية أن يكون العقرب قريبا مني . لم يتركني في ارتباكي فقال : يلدغ صاحبه فيعيش ويمشي بين الناس كميت في الأكفان _ لدغ العقرب لايشفي منه الا سم العقرب ..

ابتهلت اليه أن يفسر كلامه : ماذا تعني يامولاى ؟

قال وهو يسدل السـتار ويسحب الغطاء : أعني ماقلت . عـانق جسد الواقع ، عض الحاضر بالاسنان !...

سكت الصوت . على الشعاع الذابل في المساء ، المتسلل في حياء من السقف والنوافذ مع آخر أنفاس الشـفق الوردية رأيتهم هنـاك ، متراصين كالتماثيل التي تحركت ثم سكنت ، ملتحمين كأنهـم جـدار قلعة عتيقة في وجه الحصار . حياة متعبة حفر عليهـا الزمن أخاديده ، شعور مسدلة ، ووجوه كالأقنعة الراقدة في انتظار المهرجان ، يشـع الجمال الحزين من بعضها كأنوار فنار وسط أمواج الليل والبحر ، وتطل القتامة من بعضها الآخر كلعنات الشيخوخة ، بعضها مستسلم راض ، وبعضها ساخط مزموم الشفتين ، حرص قبيل الموت على أن ينقش آخر حرف في لغة السخط على هذا العالم . رحت أمـلأ عيني منهم . سنين أضعتها مع هذا ، وشهورا في صحبة ذاك . أما الجـالس غير بعيد منـه فمـا زلت أمنى النفس لعلي أعرفه وأحـاوره وأزور الـدار ، والآخر في الصف الثاني ، والثالث والرابع والخامس .. لكن هل يتسع الصدر ؟ أتمد عذارى القدر الساخر في خيط العمر ؟!

***

١٣ _ صوت الأم ووجه الأم :

هبت عاصفة لا أدرى من أين .ارتجت النوافذ والستائر وخشخشت الجماجم تحت العرش . سقطت أوراق فوق الأرض . وارتجف القلب . كانت الشجرة العجوز قد اهتزت وترنحت ، واستسلمت الأغصان المتدلية كأذرع الخاشعين في الصـلاة لهبات الريح ، ترنحت رؤوسـها بعنف ،

أخذت تقاوم في اصرار المهزوم ، وتناثرت الاوراق على جانبى العرش . فوق رؤوس الحكماء . أوراق خريف صفراء . تقدمت وخطوت بضع خطوات نحوها . انحنيت وأخذت أجمعها فى بقعة واحدة . ربى ! لم ترتجف يداى كأنى ألمس أشلاء متمزقة من جثمان ؟ لم تسر الرعدة من كفى لذراعى للصدر وتنفذ فى القلب فيخفق كالمجنون ؟ تذكرت الحشرات التى تبتر أعضاء من جسمها فتتركها وتمضى .. هل تتلفت وراءها لتتحسسها وتدقق فيها ، هل تحاول أن تعيدها لمكانها أم تشمها وتلعب بها ؟ وبماذا تشعر أم تنظر فى وجوه أولادها الذين يموتون أمام عينيها ؟ هل خلقت لغة تستوعب هذا الموقف وتعبر عن هذا الاحساس ؟ أخذ الصدر يرتج كباب يطرقه الزوار الملثمون فى الليل ، مرت أصابعى على الأوراق تتحسس ملمسها ، تتذوقها وتشمها وتضعها على الأذن ، كأنها قواقع تفشى سر البحر وتهمس بنجوى الأمواج . وصل الشلال الى حنجرتى ، تسلق أحبال الرقبة ، ثم تفجر وتناثر من عينى . بللت الدمعات خدود الأوراق ، انساب بكاء الناى من الجدران . هذا تعب العمر . ورق مصفر .. ورق مصفر . ثمر مر . ثمر مر . كنت كأنى المحكوم عليه بأن ينضح ماء من بئر ليصب ببئر . لا البئر امتلأ ولا انطفأ الظمأ الحارق كالجمر . تعب العمر . تعب العمر . تبدو الأوراق ــ الكلمات كأسراب النمل الخارج من جحر . تشعر بالزلزلة القادمة على نور الفجر . فتعاف جحور الكلمة وكهوف الشعر . وتزور كهوف الفقراء وتلسعهم بالسر . وتفتش عن مأواها فى بيت العمل الحر ! تعب العمر ..

ــ تتعب وحدك . تبكى وحدك . وتنام كما ودعتك وحدك . كجنين فى جوف الرحم فلا تتحرك ..

رسول الصوت يبارك سمعى كحنان الناى . أتوقف . أنشغل بتقليب الأوراق ، أتذكر وأفكر .

ــ ياولدى تعب العمر حصاد .

ــ أرفع وجهى نحو الوجه الناصع عند الباب . يتألق خلف الشجرة كالبدر وراء سحاب .

ــ أمى . ها أنت ترين حصاد العمر .. كم هو مر ..

ــ فى عينيك فحسب . ارفع وجهك .. كلمنى ..

جمعت الأوراق . أخذت أحصيها . أردت أن أرفعها اليها .. هتفت بها :

ـ هل ألقى الذنب عليك ؟ أم ألقيه على نفسى ، بلدى ، زمنى ؟

ـ ومتى تتحرر من أسر الذنب ؟

ـ لن أنس يوم وداعك آخر مرة · ياللعصفور الطائش فى قفص القلب !

أجرى كى ألحق بالعربة ، أجمع كتبى ، مسوداتى ، كومة أحذية وجوارب وملابس رتقت ثقوبا فيها بيديك ، ولقيمات من بعض الزاد وبعض الرزق من الرب · أسرع ملهوفا كى أنضم الى الركب ، ركب الكلمات المنثورة والمنظومة فى مسبحة الرغبة والفكرة ، أو فى عقد الثرثرة عن المستقبل والثورة ، أزمات الفن وأوجاع الشعب ، فى منتديات السمر الموصول مع الصحب ، أهرب من ناموس القرية ، من سأم الزمن الميت ، من رعب الأب ، تضعين القبلة فوق جبينى ، فوق الخدين ، أسرع لا ألتفت لقلق العينين ولا أشعر بالمرض الزاحف نحو القلب ، تقفين على الباب وداعا للطير النازح للغرب ، سافر فى طلب الحكمة ، ها هو يرجع بحصاد الرحلة ، أوراق لا تشبع نملة ··

ـ أذكر ـ لم نتلاق وأودت بى العلة · سافرت وجئت ، زرت القبر ، قرأت القرآن ، ذهبت بعين مبتلة ، أقسمت تصون العهد وترعى ـ يوم وداعك ـ حق القبلة ·· ظلت روحى معك تراقب نومك ، سهرك ، خيبة أملك فى نفسك · بلدك ، فيمن حولك ، تكتب تكتب ما يمليه عليك القلب ··

ـ أكتب أقرأ يشقينى صمت الشعب ، وضياع الكلمة فى قاع الجب ··

ـ ما ضاعت كلمة حق أو كلمة صدق · لم لا تخرج من هذا القبو ؟

ـ فشلى ·· خيبة أملى فى الخلق ·

ـ لم تظلم نفسك ؟ انى أشعر نحوك بالزهو ··

ـ فشلى كالجبل على صدرى ووجودى هم ، أبكى ضيعة عمرى ، ضيعة جيلى فى سوق الوهم ، بين الحاكم والحارس والشرطى العابس ضاع الحلم ضيعة ··

ـ قم وارو الأرض بعرقك واروبذورك بالدم ·· اطرح أشواك العقم · ماذا تنتظر ؟ ··

ـ لقد شاب الشعر · جفت أغصان العمر وشاخ الورق الذابل واصفر ·· فالى أين أفر ؟ ··

ـ يا ولدى الصبر · ستدور الدورة يا ولدى ويطل ربيع مفتر الثغر ، وتمر يداه على شجرتك فتخضر ··

ـ تخضر ·· ؟

ـ ويجيء الفجر ·· ربي ··

ـ أمي ·· ما زال الوقت ··

ـ قد قضي الأمر ·· أوشك ديك الفجر يؤذن فتفيق الطير ··

ـ انتظري ·· مدي يدك ···

ـ سيجيء الفجر ·· الفجر ··

يتوارى الوجه وينسحب النور·ووراء الشجرة يبقى صمت الجدران· تختلج ستار· ينقر عصفور لوح زجاج النافذة ، يطل قليلا ثم يطير · تتكاثف الظلال وترقص في غيبة الشعاع · يفتح باب خلفي يرعد صوت غاضب : ليمض المجهول الى المجهول · ليس لديه هوية ، لا اسم ولا عنوان ، أفسد عقل صبي ساذج ، أغوى المشرفة على الحمام ، وأساء لسمعتها ولسمعة هذا الفندق · فليطرد من حرم المطلق · فليطرد من حرم المطلق · لن نقبله حتى يصبح نفسه ·· حتى يتحقق بالسر الأكبر : كن اياك ومت لتكون ··

لمست يد كتفي · هتفت : أنت ؟ همس : أنا أعرفك ·· تعال ··

أخذني من يدي · دل خطاي في الظلام نحو الباب · سرنا نتعثر بين ظلال ورسوم ، وتخرفش تحت أقدامنا الأوراق الصفراء·صرخ فجأة : حاذر ! العقرب خلفك ! ألمح عينيه تلمع كالجمر وتتربص بك · اجر ·· اجر ·· فتح الباب بسرعة ــ خرجت الى الشارع · الليل بدأ يزحف ، ونسيم رطب يستقبل وجهي ويبلل شعري · يقف على الباب · لا ينسى عزف اللحن الساحر ·· يسألني في لطف : الى أين ؟ أضع يده بين يدي وأضغط عليها : هل أعرف من أين أتيت لأخبرك الى أين ؟ يربت كتفي وينظر في عيني : سأكون في انتظارك وأعزف لك عندما تولد مرة أخرى ! أغتصب ضحكة : تكفيني مرة ! أرى النادل مقبلا يلوح بصينية · تقفز منها يمامة تقف على كتفي · يشتد الجوع ببطني والظمأ في فمي · وفجأة تلدغني العقرب ·· تلدغني العقرب ···

(صنعاء ــ يوليو (١٩٧٩)

الدمعة الرابعة

نــم بســـلام ٠٠٠

بكائية الى صلاح عبد الصبور

الدمعة الرابعة :

نم بسلام ...

نم بسلام . يا شاهد عمرى وضحيته ، يا جرح العمر وأمل العمر ، نم بسلام حتى نلقاك ، نم بسلام .

الانسان الانسان عبر . لم يمض وحيدا . فسفينتنا عبرت معه للشط الآخر . حملت زاد الأحلام ، وبقية نار تخبو تحت رماد الأيام . ماذا نملك بعدك الا أن نتغطى بالآلام ، أن نسأل روحك : يا روح الشعر ! زورى أحبابك فى ليل القهر ، جودى بالمعنى والالهام ، مطرا يروى هذا القفر ، عودى ، لا تنسينا ، لا تتخلى ، ففراقك مر ، والوحدة بعدك فى هذا القبر المأهول أمر . الانسان الانسان عبر ، افترش الحصباء ونام ، وتغطى بالآلام (١) ، فعليك سلام ، وعليك سلام .

***

كيف رحلت يا أعز الراحلين ، عن مجلس الرفاق والحديث ذو شجون؟ قد كنت أرجو أن أكون أول الذين يذهبون ، كاظلل كالسحاب فى سكون. فكيف أبكيك وليس لى بيانك المبين ، والعمر قد تدلى من مشنقة الضياع والحنين . فارسنا الحزين ، يا صوت جيلنا الممزق الطعين ، يا أنضج الثمار فى بستاننا الضنين ، ودفئنا وشمعنا فى عتمة السنين ، ألن نراك بعد اليوم لن نعاين الجبين ؟ والضحكة التى يضج فيها ألف فارس حزين، تمدنا بآية اليقين ، ألن ترن بعد اليـوم لن تطل من حدائق العيـون ؟ يا فرحنا وجرحنا الدفين ، أى جنون غالنا أى جنون ..

***

أرفض موتك يا من أحببت ـ كيف تغيب وأنت الحاضر ما فارقت ؟ نبرة صوتك ، ضحكاتك ، لوعة نظرات من عينيك الواسعتين ، شـلال الحكمة يتدفق من قلبك فوق الشفتين ، ومرارة سخرية تتحدى الموت . كيف يجوز عليك الموت ؟ كيف أهادن كابوس الغدر الجاثم فى «كنت» ؟ كذب القائل ذات مساء أو ذات صباح : الموت غياب مطلق ، وسن ممتد مطبق . أبدا لن تصبح لا شىء ، فحضورك حى ، دفء بين ضلوعى ، جرح فى قلبى ، نور فى عينى . لن تنقطع رسائلك الى ، وبأسرارك واشاراتك ستظل تجود على . رسمك معقود فى عينى ، صوتك مسموع فى أذنى ، شخصك موجود وحوارى ممدود معك الى آخر نفس فى . يا كأس لحظة بخمرة الخلود امتلأت ، ووردة من شجر الليل نمت ، ومن دموع الزمن الجريح أسقيت حتى ارتوت ، يا زهرة من طينة السواد والأسى تفتحت . وبالندى تلألأت ، لما تعرت للرياح والظلام والأشواك أدميت ، مهما ابتعدت فالبعـاد لن يضـيع نفحتك . « قد كنت عطرا نائما فى وردتك ، لم انسكبت » ؟

***

ـ انتظـــار ـ

١

ها هو البيت وراءك . ما زالت رائحة الدخان والطعام وثرثرة النساء والرجال والضحكة الصـافية من فم الطفلة البريئة تطـاردك وتتشبث بثيابك . ما زالت الكتب فوق الرفوف ، وحجارة الألفاظ التى رجمك بها ، وبقع الدماء التى تقطرت على الأرض دون أن يراها أحد ، ما زالت كلهـا راقدة هناك كحيوانات متعبة تلوذ بالجدار . تستقبل نسمات الليـل الباردة فتخبو نار فى داخلك وتتوهج . تشعر بنداها يتساقط على رأسك كما يتساقط على شمعة فى آخر أنفاسها . تقول لنفسك : ها أنذا « أتحد بجسمى المتفتت فى أجزاء اليوم المتفتت ، أرقب جسمى يتحـول دخانا ونداوة » (١) ، يتدلى ، مجروحا من سقف الليل الأزرق . ترفع رأسك وتتأمل النجوم المتراصة من سقف السجن الكونى . تهمس بسـؤال الأعمى المكسور الخاطر : وهل يأبق الانسان من ملك ربه (٢) ؟ وتتابع خلوات عذابك فى اليوم الميت ، تتداخل فى جلدك كى تتجول فى تاريخه ، تسمعها تهوى فى أطرافك ثقلا ، ترجع مقهورا لتلم الأشلاء . وتلم أطراف القميص الأبيض وياقته حول الصدر وحول الرقبة .

ـ الدنيا برد . كان الأفضل أن نبقى هناك .

تحس بصوت الشاعر وهو يحاول أن يمتد اليك كما يمتد الحبل لانقاذ غريق . تنتبه للثلاثة (٣) الذين يسيرون بجانبك مطرقين صامتين: الشاعر الكبير الأصلع الرأس ، والشاعر المجدد الذى يشبه اخناتون ، والناقد الممتلىء الطموح (٤) . تشعر أنك تهوى فى جب معتم . يسرع الناقد بادلاء حبل آخر :

ـ بالعكس . الهواء النقى هو ما يحتاجه الآن .

ترفع يدك لتتحسس موضع قلبك . تتأمل جسمك يتدلى من سقف الليل الأزرق .

يتلوى فى جوف الجب الأسود . يسقط تحت سنابك خيل وحشية. يتفتت فوق الأسفلت . تتنفس بعمق وتتقلب السكين فى صدرك . تنظر للصديق مبتسما : الهواء النقى هو ما نحتاجه جميعا . يخرج الشاعر الكبير عن صمته : خصوصا بعد يوم مرهق . تقول بعد فترة صمت : بالفعل . وتضيف لنفسك : بل يوم ميت . يسقط فى أيام ميتة من أيام العالم مكرورة . يوم كذاب خوان ـ بعناه بثمن بخس ، قايضناه وساومناه، ودفعناه للنخاس الأبدى ، ثمن فطانتنا الصفراء . فى الصباح والضحى نجمع فى مكتبى أكثر من ثلاثين أو أربعين . ضاقت الغرفة على اتساعها بالثرثرة والدخان والضحكات وصليل أكواب القهوة والشاى وطنين أجنحة الأشعار الزاحفة من الدواوين . بح صوتى من الكلام ، كلت يدى من التأشيرات والتوقيعات ، ضحكت كثيرا حتى أصبحت الضحكة غصة ، نهرت حزنى القديم أن يطل من ستائر الجفون . أمطرت الجميع بحكمتى ودعاباتى المرة ، حلقت فوق سفوح الصغائر والأكاذيب وتوقفت وحيدا عند القمة كالنسر الجارح والمجروح . تسللت كفى آلات المرات لتمسح عش النسر الأبيض كالثلج . يتهدل فوق السالفتين كشلال فضى . لكل واحد كتاب أو ديوان أو مجموعة قصص يستعجل ظهورها لتغير وجه العالم . وكل واحد يتسمع طرقات أكف الملايين على بابى . وبقيت وحيدا كالأبطال القدماء . كالفرسان الحكماء المحزونين ، كمغن سئم الجمهور ولزم الصمت ...

تتتابع الخطوات وتتهشم أصداء كعوب الأحذية على الأسفلت . تخوض الأقدام فى ظلام الليل كأنها تخوض فى نهر جف ماؤه . يعبر بعض المارة وتتداح أصواتهم فى السواد والصمت . تتكسر مقاطع حروفهم على الرصيف كقطع الفخار . يا ليل يا ليل يا ليل .

تنعكس أضواء السيارات العابرة على عينيك فتهز رأسك : « أبعد رماح النور عنى » ، وتتثاقل أطرافك ، تعلو الموجة ، تطفر من عينيك ،

تصغر كالاعصار بأنفاسك . ترتجف الشفتان : « حزنى ثقيل فادح هذا المساء » . يسارع الشاعر الكبير فيقترب منك ويمسك يدك : لم يكن يقصد ما قاله . ترفع يدك فى غضب مفاجىء : أرجوك . يشاركه الشاعر المجدد رأيه ويغتصب ضحكة : قلبك كبير أكبر من كل ما قال . تمر بيدك على موضع القلب . كأنك تخرج الشوكة من موضعها . تحس الوخز وتملك نفسك من أن تلفظ آه . يشارك الناقد صاحبيه فى محاولة يائسة لانتزاع ضحكة منك : كم عذبناك بكلامنا . كم ناجيناك بألفاظ ، كم آلمناك . لكن قلبك الكبير .. تتحسس موضع الصدر وتلتفت اليه بعينين تقطران لوعة وموتا ، تعاسة وصمتا . تحاول أن تنزع الشوكة وتزم الشفتين من الألم . تهم أن تقول : حصل خير ، تغالب الضحكة فيغلبها الحزن كوحش يجثم فوق غزال . تصعد بصرك الى السماء التى تتواثب فيها السحب السوداء وتخنق أنفاس النجوم الفضية ، تطوف بعينيك كتل الليل الساكنة كقطط سوداء ، تسمع صوتا فى داخلك ينوح : « حزنى ثقيل فادح هذا المساء . حزنى غريب الأبوين . ويلتوى كالأفعوان يعصر الفؤاد ثم يخنقه . وبعد لحظة من الاسار » .. يا ترى هل يعتقه ؟ تبتسم للصحاب وتحاول أن تضحك وأنت تتحسس صدرك : « معذرة يا صحبتى قلبى حزين » . يسارع الشاعر المجدد والناقد فى صوت واحد : « من أين آتى بالكلام الفرح » ؟ يؤمن الشاعر الكبير على قولهما ويهتف وهو يربت على ظهر الشاعر الذى يمشى بجانبه : راوية وشاعر . عندما نرجع لن أتركك حتى تروى عنى أيضا . وعندما تموت سنبنى لك قبرين وشاهدين ...

يضحكان وتتردد أصداء الضحكة على الفم وتجاعيد الوجه وأطراف الثياب وتتناثر مع حبات الهواء البارد . يختلس الناقد نظرة حانية الى وجهك . يلمح انقباضه بالألم . يرفع صوته ليدارى غصة انزلقت فى حلقه : « حزن تمدد فى المدينة . كاللص فى جوف المدينة » . يقاطعه الشاعر المجدد محاولا أن يستدرجك للكلام : « حزن ضرير ، حزن طويل كالطريق من الجحيم الى الجحيم . حزن صموت » . ثم تستغرقه موجة من الغناء فيمد صوته : « والصمت لا يعنى الرضاء بأن أمنية تموت ، وبأن أياما تفوت ، وبأن مرفقنا وهن ، وبأن ريحا من عفن ، مس الحياة فأصبحت وجميع ما فيها مقيت » . ويضحك وحده فتتفتت ضحكته وتتهاوى على رصيف الشارع كالزجاج المكسور . وتنعقد سحابة الحزن على وجه الصحاب فيسدد سهمه الضاحك مرة أخرى ويهتف : « سنعيش رغم الحزن نقهره ونصنع فى الصباح ، أفراحنا البيضاء أفراح الذين لهم

صباح » · يحس أن السهم خاب ، أوشك أن يرتد الى صدره ، يختلس النظر الى وجهك يتحسس قشرة الأحزان الصلبة التى التفت حوله ، تتلوى الكلمات فى حلقه وتتبعثر على شفتيه · تتطلع اليه بعين غاب عنها بريق الدعابة ، تسحب نظرتك من وجهه الى أعماق بئرك الدفين ، توشك أن ترد على سؤاله الذى يخاطبك بلا صوت : « لا تسأل الشيء الحزين أن يبين ، لأنه مكنون · شيء غريب غامض حنون · لعله التذكار · لعله الندم · لعله الأسى · لا تسأل الشيء الحزين أن يقر · لأنه كطائر البحار لا مقر · وقل له لقد ملكتنى · فتحت لك · صندوق قلبى الكليم · فلتقطر الدموع كالنغم » ·

تعاودك شكة الألم · وخزها أقسى مما كان · تنعقد خطوط جبينك وتفتح فمك لتقول لنفسك : « لا شيء يوقف المأساة لا أحد » · يصعد من أعماق البئر الأسود صوت يناجيك : « من لى بمن يجس ذلك الشيء الحزين جستين ، لكى يرى فجاءته ، ويستبين وجهه ومشيته » تمد ذراعك وتستند الى الجدار الأبيض المرتفع على حافة الرصيف · تتحامل على نفسك وتسأل : أليست هذه هى المستشفى ؟ يلتفون حولك منزعجين ، يسرع الشاعر الكبير ليقترب منك ويمسك يدك : لم المستشفى ؟ أنت بخير · تقول مداعبا بينما تفاجأ بيدك اليمنى وهى تستقر على صدرك : زيادة الخير خير · ألم بسيط · للاطمئنان · يصدق الناقد على كلامك · نعم لن نخسر شيئا · ما دام المستشفى قريبا · ينبهه الشاعر الكبير : قريب؟ انك تلمس جداره ·· يقول الناقد وهو يتأبط ذراعك : على بركة الله · هيا بنا · تحاول أن تمد الخطى · أن تبدو فى مظهر من لا يحتاج لكتف يستند عليها أو لذراع تمسكه حتى لا يسقط · تتأوه فى صوت مسموع : آه ما أثقل جسمى الليلة ! تقتربون من البوابة الحديدية · تتلفت وراءك وتمسح نظراتك صدر الليل وخصلات الشعر المنسدل على كتفيه : يا ليل ·· يا ليل ·· يا ليل ···

« عبرت بى آلاف الأقدام الهمجية أقدام الأفكار الهمجية والنيات الهمجية ، فتآكلت وشوهت ·· يا ليل ·· يا ليل ·· يا عين ·· داوينى أيتها الغيمات الفضية ، برحيق الأنداء الفجرية » ···

يسبقك اثنان من الصحاب الى الممشى المفضى الى باب المستشفى · يتوقفان عند حجرة الحارس الليلى ويسألان عن الطبيب المناوب · تلمح رأس عجوز أشيب وعينيه الضامرتين تطلان من كوة زجاجية · تتجه مع الشاعر الى سلالم الدرج الرخامى اللامع ببقع الضوء والظلال الرمادية الساكنة على صفحته · تحاول أن تبدو خفيفا وأنت تحرك الأطراف الثقيلة

كالأصفاد . تضع على فمك قناع ابتسامة تكشف عن المرارة ولا تخفيها ، وتقول لنفسك : « حزنى ثقيل فادح هذا المساء » .. يقهقه الملثم الشرير ولا يسمعه أحد . يتسلل الطارق المجهول وراء الخطوات الصاعدة على الدرج ولا يراه أحد ..

***

٢

« رباه ! ما سر هذه التعاسة العظيمة ؟ ما سر هذا الفزع العظيم ؟ » ينفلت الناقد والشاعر المجدد ويجريان بحثا عن الطبيب ــ يبقى الشاعر الكبير بجانبك ، يمد ذراعه بين الحين والحين ليتأبط ذراعك أو ليمر بيده على يدك فلا تطاوعه . يهم أن يفتح فمه ليستأنف الحديث الذى بدأه فى أول الليل عن مشروعاته فيحتبس اللسان . يوشك أن يكرر السؤال عن الندوة التى اشتركت فيها قبل حضورك فيواجه بابك الموصد . تتراءى أمامه مسوخ الكلمات التى ألقيت فى وجهك فيخفض رأسه الى الأرض . الهواء فى المدخل لافح ، وأنفاسك المتهدجة تتوالى متقطعة كأزيز النار فى الحطب تزيده لفحا . تطوف عيناك بالعجائز والأطفال والرجال المنتظرين على الأرائك ، بالمرضات اللائى يسحبن المحفات وتشم رائحة الدواء والمرض والانتظار الممض والموت المتربص خلف الأبواب والجدران الناصعة البياض . يشتد الوخز عليك ويرفرف شىء فى صدرك فتقول لنفسك : الطير الأسود ، يكون الشاعر قد عثر على كرسى فيجره نحوك ويدعوك للجلوس . تشكره وتغالب ضحكة لا تريد أن تخرج : شكرا يا صاحب هذا البيت » .. يمد يده الى جيبه ويخرج علبة سجائره ويقدم لك منها وهو يضحك : « نورا يا صاحب هذا البيت » .. تحس أصابعك ترتعش وهى تبحث فى جيب السروال عن القداحة ، تخرجها وتلتقط سيجارة ثم تعيدها الى مكانها وتشعل له سيجارته . يؤيد الكلام مخاوفه : الأفضل أن تؤجلها لما بعد الكشف . يكفى ما أحرقت الليلة . تبتسم بمرارة : وما احترقت . تغمض عينيك قليلا وتفتحهما . تتطلع من نافذة المدخل وتنظر فى ساعة يدك ــ يسارع الشاعر قائلا : لا تقلق ــ لحظات ونعود اليهم . تتردد فى ذاكرتك أبيات قرأتها قديما : انتصف الليل . وزمن الانتظار فات . وأنا أنام وحدى (٤) ، تغمض عينيك وتدير وجهك للحائط وتتابع صدى أبياتك القديمة التى اندفعت اليك بغير ترتيب : « هذا المساء . أدرت وجهى للحياة واغتمضت كى أموت . فى هدأة السكوت . قد آن للشعاع أن يغيب ، قد آن للغريب أن يئوب » . تندفع أصداء بيت

قديم كنت تحب ترديده : وكل ذى غيبة يئوب · وغائب الموت لا يئوب(٥)·
تتوالى الأصداء الأولى : « للمركب الجانح أن يرسو على شط قريب ·
للجدول الناضب أن يفضى الى نهر رحيب » يقطع الشاعر حبل النغم
مؤكدا : بعد الكشف سنرجع حالا · ما هى الا دقائق ونعود · لا تنظر
فى الساعة · أرجوك · تنظر فى الساعة وتندهش لقفزات عقاربها ·
تتمنى لو كانت مى ومعتزة (٦) فى الفراش ، أو لو كانتا بجوارك ، لو
وضعت يدك على رأسيهما وكتفيهما وتخللت بأصابعك شعرهما وقبلتهما
كعادتك قبل الذهاب للنوم · تتمنى لو كانت هى أيضا بجوارك ، تسألك
عما تريد فتقول لها : « أن تكونى لى الى الأبد ، وأن تكون مقلتاك آخر الذى
أرى من الحياة » · تلسعك الوخزة فى الصدر ويشتد لغيب القلب فتمد
يدك كأنك تبعد هواجسها : « كل شىء يا حبيبتى يهون ، ما دمت لى الى
الأبد » · تتخيلها تضع يدها على قلبك فتقول : « حينما يكون قلبك الكبير
جنب قلبى ـ فالبحر لا يفصلنا ، والنار لا تخيفنا » ، والموت ·· وتتوقف
لتسحب نفسا عميقا يتدحرج فى لهاتك كجدول يشق طريقه بصعوبة
فى الأحراش · وعندما تقع عيناك على الصديقين القادمين عن يمين الطبيب
ويساره تتحشرج فى أنفاسك المناجاة التى لا تستطيع أن تتمها : ينبئنى
ـ تهز رأسك وتنفى أنك فى شتاء هذا العام · وقدة الحر المتلظى فى
ليل الصيف تعطيك الأمل ـ تعود للمناجاة التى ستقطع بعد لحظات والتى
بدأت فتتخللها ملامح الناقد الجادة وابتسامة الطمأنينة على وجه الشاعر
المجدد : « ينبئنى هذا المساء أننى أموت وحدى ، ينبئنى هذا المساء أن
هيكلى مريض ، وأ نأنفاسى شوك ، وأن كل خطوة فى وسطها مغامرة ، وقد
أموت قبل أن تلحق رجل رجلا ، فى زحمة المدينة المنهمرة · » تقول لنفسك
وأنت تنهض بصعوبة وتمد يدك للطبيب : « أموت لا يعرفنى أحد ·
أموت لا يبكى أحد » ·

***

طويل ونحيل أسمر · حاجباه الكثيفان يقفان كحارسين فى ملابس
السواد أسفل جبهته الضيقة المربدة ، ملامحه صارمة وعليها آثار الارهاق
والحس المفرط بالمسئولية ـ يقدمه اليك النـاقد ، بل يذكر اسمه :
الدكتور ··· ويقدمك اليه وهو يضـحك باطمئنان الواثق ويربت بيده على
ذراعك : شاعرنا الكبير ··· تسلم عليه بيد لا تستطيع أن تمنعها من
الارتعاش · يوسع الأصحاب مكانا الى الوراء ، يرجوك الطبيب أن تصحبه
الى غرفة الاستقبال ، يلتفت خلفه ويطمئن رجلا مرتبك الأعصاب فى أواسط
العمر : لن أتأخر · ثم يلامس ذراعك ويقول وهو يبتسم «خير ان شاء الله»·

يستأذن الصحاب فى الدخول معك فيشير اشارة مهذبة : لن نتأخر . تعب بسيط . ثم ضاحكا وهو يتفرس الوجوه القلقة والعيون الشاخصة : أمراض العصر . من أدرى بها من المثقفين ؟ تلتفت اليهم وتجاهد لسحب قناع الثقة المطمئن على وجه انسحب عنه الدم واللون : طيب دقيقتين . تنظر فى ساعتك بسرعة . يقترب منك الناقد والشاعر الكبير ملهوفين : تحب أن تذهب لهم وتطمئنهم ؟ تمط شفتيك مرجحا الفكرة ثم تقول بسرعة : البركة فى الدكتور . لن نتأخر باذن الله . يؤكد الناقد : أنت بخير ، لا داعى لازعاجهم الآن . يضيف الشاعر المجدد : كلها ثوان وتكونون فى البيت — تغيم سحابات عابرة على جبهتك وخديك . ترتد النظرة للباطن ، تجس الشىء الحزين وتمر على جناحى الطير الأسود الراقد مفتوح العينين . تشير اليهم اشارة ترج الجسد الثقيل : شدوا حيلكم .. يضحكون ويرتفع صوت هاتف : دائما أنت أنت نفسك . دائما مرح . اتكلوا على الله .. تقول لنفسك وأنت تتجه مع الطبيب الى الغرفة المواربة الباب فى الركن القصى وتفحص بعينيك وجوه المرضى على الأرائك ، والأيدى المسندة الى الصدور والخدود ، والمحفات العابرة فى المداخل والطرقات أمام أبواب المصاعد ، والعيون الجاحظة المستسلمة للممددين عليها : الى المصير .. ينفذ بصرك فى الجلد والثياب وتضيف : « الطارق المجهول . ملثم شرير . عيناه مسقيان بالسموم . والوجه من تحت اللثام وجه بوم » . يبتسم الطبيب فى وجهك وهو يفتح الباب ويدعوك للدخول فيدوى صوت فى سمعك : « الى المصير ، والمصير هوة تروع الظنون » ...



٣

يشير الطبيب الى السرير الأبيض الصغير فى جانب الغرفة — يصفق بيديه فتمرق من باب داخلى ممرضة صغيرة الوجه ضيقة العينين سريعة الخطى ، تتقدم نحوك وترجوك أن تخلع القميص . عندما تلاحظ ارتعاش ذراعيك تمد يدها وتساعدك . تنظر الى وجهها الصغير وتطيل النظر . تتمدد على الفراش وتتدلى قدماك من الطرف الآخر وتحدق فى السقف . تقرأ فى طبقات الطلاء المتآكل صورا وتهاويل ونقوشا : وجوه مغمضة الأعين ، جدران بيوت تتصدع ، بوق ينفخ فيه طفل على هيئة ملاك مكسور الجناحين ، سفن تذهب ولا تعود ، شطوط لن ترسو فيها أبدا .. يقترب الطبيب ويمد يده ليرفع القميص الداخلى الى أعلى . يدق بأصابعه على الصدر والرئتين . يسرق النظر الى عينيك وملامحك ويحاول أن يوقف المرارة التى تسيل منهما . يضع السماعة على أذنه ويدق من جديد على

الرئة اليسرى . ينفتح فمه ويغمض عينيه لحظة . يعاود تحريك السماعة من أعلى الى أسفل ومن أسفل الى أعلى . تنغرز السكين عميقا فى الجرح وتنفلت الآهة التى حبستها طويلا . ويرف جناح الطير وتتسع عيونه . نظرتك لا تخطىء الخطوط والتعاريج المنعقدة على جهة الطبيب . لا تخطىء سهوم بصره وتربد ملامحه الدقيقة السمراء . تهم بسؤاله ثم تسكت . تزم شفتيك كما زم شفتيه . يسألك بعد تردد والسماعة لا زالت نفحص وتهمس له بالنبأ المكتوم : هل شكوت قبل هذا من القلب ؟ يتحرك الوخز فى الموضع القريب من السماعة ، تثبت عليه نظرتك الحادة المستسلمة : أبدا . أبدا لم أشك منه . يأتيك صوته الممدود فى حنان مبالغ فيه : وما الذى كنت تشكو منه ؟ تمط شفتيك وتقول وأنت تبحث فى تاريخ جسدك : المتاعب العادية .. يحاول الطبيب أن يغتصب ضحكة لا تلبث أن تتهاوى ثقيلة على فمه : متاعب المثقفين ؟ تفكرون أكثر من اللازم .. تحاول أيضا أن تجاريه فتقع الضحكة مكسورة النفس والجناح على الملاءة البيضاء الناصعة : كما تعرف .. القولون العصبى . آلام الأسنان ــ يقاطعك الطبيب وهو يرفع سماعته ويتركها تتدلى على صدره : والتدخين . تسرع وتقول : طبعا طبعا . يسألك بأدب جم : تكثر منه ؟ ترد باقتضاب وتتمنى لو تشعل واحدة : للأسف .

يتجه الى مكتبه ويضع السماعة فى حقيبته ، تطلب منك الممرضة أن تنهض وتساعدك على ارتداء القميص الصيفى الأبيض . يتناهى اليك صوته من بعيد ، بعيد ، خير ان شاء الله . استرح قليلا . يأمر الممرضة بصوت أقرب الى الصراخ : لماذا تتعبينه بالوقوف ؟ استرح يا أستاذ ولا تنهض من مكانك . سأعود حالا . يتوالى الوخز وتؤلمك الشوكة . تتابع نظرتك الممرضة التى انشغلت عنك بأدوات وعلب وزجاجات على المكتب وتتأمل ظهرها المحدوب قليلا وساقيها النحيلتين وحركتها اللاهثة ــ تسألها هل أمر بحقنه ؟ تقول وهى لا تزال مشغولة عند المكتب وظهرها النحيل يتدحرج مع كل كلمة : كورامين . ثم وهى تستدير نحوك باسمة : لن تشعر بأى ألم . تسحب عينيك الى داخلك . تتصاعد خطى اليوم المرهق وتذكاراته الى أطرافك كالرصاص الصدىء الثقيل . يتصاعد معها الندم على الساعات الضائعة واللحظات المقتولة . تتجول فى مبنى التليفزيون الذى قضيت فيه ساعات . دائما وأبدا نفس المصيدة . تستدرج اليها وتشارك فى مأدبة الثرثرة وتأكل لحما عافته نفسك منذ زمان . هناك تحدثت عن الغربة . « اننا الأغراب فى الفقر الكبير » . غربة المثقف فى أوربا . زهرة العمر وقنديل أم هاشم . وأديب الخارج من جوف الهرم وأنفاس الموت الأبدى ليصطدم بهواء الحرية ويحترق بشمس الجنس

المسعورة ـ . القطيع . غـاب راعيه وطالت رحلته . وهو فى بيـداء لا ظل بها » . وحوار ممطوط يتهدج فيه صوتك.، تتحشرج أنفاسك وهى تحاول أن تنفذ فى غابات الشوك المغروزة فى صدرك ـ وضحكات لم تستمتع بها . وثناء تتأفف منه ، وبطولات حققها أبطال موهوبون وما أغناك عنها . وتنادم غربتك وتسقيها وتنادمك . وتقول لنفسك وسط الأضواء على مرأى من فرسـان العصر : « أسـعى وراء الشمس ، والشمس فى ظهرى » . ويختلس الحلم نظراته الى شمس أخرى ومدن أخرى ، الى حياة التفرغ تحت شمس كمبريدج الشتوية (٧) ، الى العودة لمشاهد عنترة(٨) الذى لم يتم ويحتاج لجو آخر وهواء آخر وفرسان غير الفرسان ، الى مشارف الخمسين (٩) التى تنتظر أن تكملها بذكريات وذكريات من زمن الجراد والاكتئاب والضحكات المغتصبة وجيل الموتى قبل الموت ، الى وجوه تتذوق طعم البسمة وعيون تحلم وتعمل لمدن المستقبل ، الى أجساد خلقت للحب وعرفت سر المعجزة .. لكن جاء الغيلان .. تنتبه الى ظل الممرضة التى تقف أمام سريرك والحقنة فى يدها . تبتسم وتقول : أقل من ألم الشعراء .. لن تحس بشىء . تمد ذراعك الأيسر فتقول : أقل من ألم الأيمن . تمر بقطعة قطن فى يدها اليمنى على العـرق المنتفض : عـرق لا يتعب . يدعو للشك . تضحك الممرضة وهى تغرز الابرة بتؤدة وبراءة : سمعت عن رجل يقول : أنا أشك فأنا اذن موجود . ومنذ ذلك اليوم وأنا أشك كل من يرقد على هذا السرير .. توشك أن تنفجر الضحكة فيتهدج صوتك ويشتد سعالك . تنزعج الممرضة . تطمئنها بعد أن تلتقط أنفاسك وتقول بعد قليل : لو شككت ديكارت لأصبح رجلا عاقلا . تسأل الممرضة: من ؟ تدرك غلطتك وتعتذر : حكيم . الله يرحمه .. تتجه الممرضة الى المكتب وتضع الحقنة فى طبق كبير من الصاج لا زال البخار يتصاعد منه . تستأذن وتنصرف من الباب الداخلى . تتذكر أنك كتمت سؤالا كان يلح عليك . تسرى غيمة التسليم فى عينيك وتثنى ذراعيك على صدرك وتشبك كفيك على موضع القلب . تغمض عينيك وتترك الذكريات والمرئيات وأبيات الشعر تتزاحم عليك كالفراشات السوداء ـ تحـاول أن تطردها عبثـا فيجذبها الحريق المتوهج فى صدرك . « وضع النطع على السكة والغيلان جاءوا » . تزاحم حولك « كهان الأروقة الكذبة ـ اصطفوا حولك كالدببة . تلاغوا بالكلمات الرواغة كذباب الحانات . لما سـكروا سـكر الضفدع بالطين . انطلقوا فى نبرات مكتظة » ، وتسلوا بترامى الفقاعات القذرة والألفاظ الفظة ، لاكوا لحم الكلمات المطعون ونهشوا لحمى ، باعوا أنفسهم للأصنام الكذبة واتهمونى أنى بعت لهم نفسى . آه ماذا أجدت كلماتى حتى تقتلنى الكلمات ؟ ماذا أجدت رحلة عمرى فى أعماق البحر ؟ أخرجت لآلىء أهديها للفقراء البسطاء ، طيبة بيضاء ولامعة وبلون القلب ، جاء

الغيلان العشرة والغيلان الألف ، غاصوا فى مستنقع ألفاظ وشعارات عفنة، رجمونى بالألفاظ وطعنوا قلبى بسيوف الكلمات النتنة ــ « عجزت عن عونى معرفتى ، لم تنفعنى فلسفتى » كسرت راياتى ، وتهاويت الى القاع أمام الزوجة والأطفال وحيدا عريانا ــ ماذا أفعل ؟ ماذا يبقى لى من تعبى الخاسر ؟ هل يسلم حتى الشعر ؟ ينتفض الطير الأسود وينادى الجرح على السكين • تتسلل الممرضة على أطراف قدميها وتقترب من السرير وتنظر اليك • تسأل هامسة : هل نمت ؟ تفتح عينيك وتهم بالنهوض فتشير اليك ألا تتحرك • تعقد وتزم شفتيك وتهز رأسك وأنت تقول : « تصارعت والهول وجها لوجه ، ولكننى ما عرفت الفرار » •••

***

٤

لابد أنك نمت قليلا بعد خروج المرضة • فها أنتذا تفتح عينيك ، تفركهما ، تحس أنهما محمرتان كعادتهما عندما يؤلمانك • ولابد أنك حلمت بأنك سفينة يهدهدها الموج ، وتشتد عليها الريح فتغرق ويغطيها الماء ، هل رأيت أيضا الفئران تهرب منها ، وهل شعرت بمحنة الربان الذى يكون ــ هو والفنان ــ آخر من يغادر السفينة الغارقة ؟ لابد أنك كنت تنتفض غضبا وتدق أجراس الخطر وتتحدى الموج الذى يرتطم على جسدك وينثر رذاذه الملحى البارد على ملابسك ويزمجر سخطا لأنك لاتخضع لمشيئته • فها هو صدرك يرتجف ، والموجة اثر الموجة تتصاعد فى داخلك وتضغط على رقبتك وتريد لو تظفر من عينيك وأذنيك ، وجسدك كله يستحم فى مائها وملحها • تفتح عينيك على الجدران البيضاء الخرساء ، تتحسس حديد السرير البارد ، تطل من النافذة على كتل الليل المتراصة كجبال سوداء ، تهمس فى سرك : «الله لايحرمنى الليل ولا مرارته» ، تتمنى لو يسعف مولاك الشعر فتمسك باللحظة وتكبلها فى قيد الوقت ، كى تتأملها فى خلوة ، أو تسمعها فى صمت • لكن الشعر يفر ويوغل فى الوحشة ، فتلجأ الى خزانةذاكرتك التى لاتحفظ منه كثيرا• وتحاول أن تسند ظهرك على الأعمدة الخلفية أو تعدل من وضع المخدات تحت رأسك فيقعدك العجز ويشتد لهاثك وتضطرب الموجة فى صدرك وتفور وتحرك شفتيك التى لم يبلغها القيد ولم تثقلها الأصفاد وتوشك أن تبكى على الجسد المهزوم لولا أنك تنكر هذا الضعف على نفسك : «لكننى مجرب قعيد ، على رصيف عالم يموج بالتخليط والقمامة ، أكسبنى التعتيم والجهامة ، حين سقطت فوقه فى مطلع الصبا» • تحاول أن تتقلب على جنبك لتضغط الشوكة التى عادت تؤلمك ، وتحاول أن تثنى الذراع

وتجس بيدك سطح الموجة التى ترتفع وتلطم حاجز الضلوع ، لكنك تفاجأ بأن الذراع لا تستجيب لارادتك ، وأن العزم لايصل الى الأطراف · رباه ! أهو الشلل ؟ هل تتحقق نبوءة شعرى أم نبوءة قدرى ؟ هل أقضى ما بقى من العمر قعيدا يجتر تجاربه المرة ؟ ـ تلقى بصرك للسقف والحائط وزجاجات الدواء والحقن المرصوصة على المكتب ، تصدم أنفك رائحة آسنة صماء **لاتعرف كيف تسميها** : هل شل الخاطر أيضا ؟ تتطلع من جديد عبر النافذة التى لاترى منها نجما ولا سماء ولا قمرا · ماذا كنت أريد من الدنيا ؟ كنت أريد : أن ألبس هذا الكون الأعمى ثوب المعنى ، وأنغم هذا الزمن الموحش موسيقى · كنت أريد · أن أجعل من نثر الأيام المتشابه شعرا يبقى · أن يحلو الانسان بعين الله ويكبر حرا ، يزهو بالتاج على رأسه ، بالصدق النابع من نفسه · أردت أن أرى النظام فى الفوضى ، وأن أرى الجمال فى النظام · وكنت نادر الكلام · وتطيل النظر وراء النافذة لعلك تبصر خيطا مختبئا خلف حجاب الغيم ، لكنك تحمد نعمة ربك اذ أعطاك الليل ، الليل الغارق فى بحر حداد فى بحر سواد فى بحر الصمت الموت ـ ينتفض صدرك عندما تتردد الكلمة الأخيرة بصوت يفاجئك · يفتح الباب وأنت تردد بينك وبين نفسك بينما تسحب نظراتك من الليل والنافذة والنجوم التى لم ترها والخيط الذى لم تهتد اليه : «تعالى الله هذا الكون موبوء ولا برء ، تعالى الله هذا الكون لايصلحه شيء، فأين الموت أين الموت أين الموت» ؟

***

٥

يدخل الطبيب الذى كان عندك منذ قليل على عجل · تتابعه بعينيك كأنك تتحقق منه : أسمر طويل ونحيل ، على وجهه وجبهته صرامة وجدية لم تلحظيما من قبل · يهتف وهو يستدير : تفضل يادكتور · من فضلكم انتظروا بالخارج · تطل رؤوس تعرفها وان لم تظهر من الباب الا لحظات خاطفة · تلمح القلق على وجه الناقد والشاعرين · تتمنى لو تنادى عليهم أو تطمئنهم فلاتقوى على اخراج كلمة واحدة · يدخل رجل ناصع الوجه مستديره ، تسبقه نظارات تلمع كالبرق بين اطارين من السحب السوداء· تظهر أسنانه البيضاء التى تنفرج عن صوت جهورى ضاحك : الشاعر الكبير ؟ لابأس عليك · ترفع حاجبيك دهشة فيرتفع الصوت وتعلو الضحكة : طبعا لا تتصور أن الأطباء يعرفونك · ها أنا جئت يا سيدى لأسمع نبضات قلبك بعد أن قرأتها ·· يقف الطبيب الأول بعيدا ويقدمه اليك : الأستاذ الدكتور ·· أخصائى القلب المعروف · ينهره الثانى

باشارة من يده ويقترب منك ويسبقه نور أسنانه وابتسامته العريضة الصافية • تحاول أن تبدد الدهشة التي عقدت حاجبيك وتهمهم : أهلا و •• ولكن الصوت يتهدج ويخونك • ينطلق الطبيب قائلا : أرجوك لا تجهد نفسك • حتى الكلام ممنوع الآن • أليس غريبا أن أطلب هذا من شاعر ؟ يفتح حقيبته بسرعة مذهلة وفي لحظة تتدلى السماعة على صدره • يقول وهو يمسح على يديك ويمر بهما على رأسك المشتعل بتاج الثلج : أرجوك • لا تتكلم أبدا • هذا أغرب أمر يوجه الى شاعر • أليس كذلك ؟ قل لربة الالهام أن تدير وجهها قليلا ، أو فلأقل أنا ذلك • سأعمل كل شيء والرب يدبر ما فيه الخير • فرصة سعيدة ان شاء الله • هل تعلم أنني كنت أتمنى أن أراك من وقت طويل • أي والله • قرأت كثيرا من شعرك وأنا طالب وما زلت رغم مشاغلي أقرأ فيه • هل أفشي لك بسر ؟

تبتسم وأنت تحس أصابعه تدق على صدرك ببراعة وتلمس برودة السماعة وهي تلهث صاعدة نازلة على جلدك • يأمرك بصوت رقيق أن تسعل ، أن تزفر ، أن تشهق بقوة ، أن تأخذ نفسا آخر فتتمثل برغم الاعياء المسترخي في أطرافك وعروقك • لا تفارق الابتسامة الشاكرة فمك وأنت تتابع ثرثرته الحبيبة وتنظر بحب الى قسماته الوديعة الطيبة • يستطرد حديثه كأنه يتلو تعويذة ساحر يحاول أن يخرج جنيا عنيدا من جسد مريضه : هل تعلم أنني •• أقصد أنني لم أكتف بقراءته والحياة معه ، لقد ساعدني أيضا على الحب • طبعا تتعجب • أقول لك السر وأمري الى الله ، باختصار : أحببت بشعرك ••

تسرح عيناك وتبتعدان عن وجهه قليلا • تغيم سحابة عليهما وتقول لنفسك : « الشعر زلتي التي من أجلها هدمت ما بنيت • من أجلها خرجت • من أجلها في أول المسا طعنت ، وها أنا أعرض قلبي الذي أوجعني حتى بكيت ، قلبي الذي ••••

تلاحظ أن الطبيب يترك السماعة على صدرك ويتجه الى زميله مقطب الوجه • يتبادل معه الكلام المتدافع كقطرات المطر المفاجئة بالانجليزية ، وتلتقط أذناك كلمة القلب التي تتقطر فيهما كالحديد المصهور • يخرج الطبيب الأسمر النحيل مسرعا ويغلق الباب وراءه • يرجع اليك الطبيب وهو يرسم نفس الابتسامة على شفتيه وملامح وجهه الذي لا يخفي الانزعاج • يستأنف كلامه وهو يواصل كشفه الدقيق ويسرع فيه اسراع النبضات التي بدأت ترتجف وترج صدرك : باختصار ياسيدي • أحببت بشعرك وتزوجت أيضا •• «وجه حبيبي خيمة من نور شعر حبيبي حقل

حنطة» . نسيت بقية الأبيات . أرجوك لاتجهد نفسك . والآن انقلب على وجهك حتى لاتتذكر فتثير فى نفس حسرات الحب . نعم هكذا . لم تصدق أول الأمر . أحضرت لها الكتاب المقدس وقرأت معها فى نشيد الأنشاد . بالطبع لم أنسب الشعر لنفسى . معاذ الله من الكذب . انما أثبت لها أن الحب نبع خالد ، يلهمك ويلهم صاحب النشيد ويلهمنى أيضا .. ساعدنى شعرك أيضا حين أردت أن أعزز حبى وقلت لها عن ظهر قلب : آنستى ـ لم تكن قد أصبحت سيدة بعد ـ «اليك قلبى واغفرى لى ، أبيض كاللؤلؤة ، وطيب كاللؤلؤة ، ولامع كاللؤلؤة ، هدية الفقير للفقير» ـ ولاتسل عن تأثير صوتى وأنا أقول أبيض وطيب ولامع وأقدم لها قلبى فى ليلة لا أنساها واتفقنا فيها على كل شىء .. أليس غريبا أن أصبح طبيبا للقلب وأن أستدعى الليلة من نومى لأعالج قلبك كما عالجت قلبى ؟ استدر الآن خير ان شاء الله . ان شاء الله خير . كم اليوم من أيام المسيح ؟ أعنى فى أى يوم نحن ؟ ينظر فى ساعته بسرعة . يخطف الكلام ويقول : الخميس . نعم . ثم يفرد تقطيبة حاجبيه وجبهته ويسأل مبتسما: اليوم الثامن من أيام الأسبوع الخامس فى الشهر الثالث عشر . الحق أننى لم أفهم ماقلت تماما ـ ننتزع ضحكة خافتة من أنياب الحزن وتقول رغم أوامره المشددة : وأنا لم أقل شيئا . انه بشر الحافى لشيخه بسام الدين ... يصفق بيديه . معذرة لا وقت لدينا . سنتفاهم فى الغرفة الأخرى حول .. من قلت ؟ آه .. أرجوك الصمت لاداعى للاجهاد أو الحركة . أنت تقدر بالطبع . وستبقى يومين عندنا . يبدو الذعر على وجهك ويثب من عينيك . تهم بأن تسأل أو تعترض فيشير بيده اشارة حاسمة : اطمئن . اطمئن تماما . اجراءات عادية نعملها كل يوم . تهم أن تحرك شفتيك وترفع يدك فيؤكد اشارته : أعرف أعرف . سنبلغ الزوجة الكريمة والأولاد . لماذا لاتريد أن تشرفنا يومين ؟ على الأقل نتكلم عن الشعر ونتعرف على الشيخ .. الشيخ .. يسرع الى الباب الداخلى ويفتحه . يغيب لحظات تنشغل فيها بنفسك وتناجى بشر وبسام الدين .. هاأنذا مقتول ياشيخى . فى اليوم الثامن من أيام الأسبوع الخامس للشهر الثالث عشر . مقتول وبلا قطرة دم . واللفظ القاتل ذو ألف لسان تقطر سما . لفظ يردينى وبلا قطرة دم . والسكين الألفاظ تشق اللحم . أى زمان هذا ؟ لايعرف فيه مقتول من قاتله ومتى قتله . وأقول لنفسى : ياليتك كنت خرجت . من مدن الموتى يسكنها جيل مات قبيل الموت . ياليتك كنت ببشر الحافى فى الصحراء لحقت ، ياليتك كنت لزمت الصمت . فتحسس رأسك . فتتحسس رأسك ...

***

٦

تتحسس رأسك بكف مرتجفة . تتطلع للنافذة وتشعر أن الليل المتربص يحصى من مكمنه الأنفاس . الليـل القبر يمد غطاء الكفن على الناس . تهتف : يا رب الكون المشئوم . أدركنى فالليل طويل تنعق فيه البوم . ها هى تصرخ وهى تحوم : جروك لبئر الكلم المسموم . تركوك وحيدا تغرق وتئن أنين يتيم . رجموك بلفظ كالحجر رجيم . كلمات فى كلمات تنهمر كشلال هادر ، نسجوا منها حبلا يلتف على رقبة شاعر . ورأيت الدنيا مولودا بشعا فتمنيت الموت . والآن تنام وحيدا على عنقك تلتف حبال الصمت . يا ليتك كنت لزمت الصمت .. يا ليتك كنت خرجت ...

وتعود تتحسس رأسك عندما ينفتح الباب فجأة ويدخل الطبيبان والمرضة التى تسحب وراءها محفة تدور على عجلات . ويلمحك الطبيب فيهتف : ألم نتفق على عدم الحركة ؟ ويقترب منك وهو يجاهد أن يفرش ابتسامة على فمه : ألا يستمع الشاعر مرة واحدة لربة الطب والشفاء ؟ - ترن الكلمة الأخيرة فى أذنك رنين قيثارة مجروحة على جبل بعيـد . تتطلع للوجه الطيب الضحوك بنظـرتك المفعمة بالتعاسـة والسخرية . يتقدمون نحوك وهم يحذرونك من أى حركة ، ويلف الطبيب الشاب ذراعك حول عنقه ، ويدخل طبيب القلب ذراعه تحت خصرك ويحملك الى أعلى ، بينما تحاول المرضة أن ترفع ساقيك بحذر وتنزلهما على المحفة الواطئة . تنغرز الشوكة عميقة فى القلب . يهم الطير الأسود أن يرفرف بجناحيه وتتسع عيناه دهشة ورعبا . تتردد كلمة القلب فتتذكر بيتا قديما وثب الى صندوق الذاكرة منذ قليل : « أشقى ما مر بقلبى أن الأيام الجهمة ، جعلته قلبا جهما ...

تخرج المحفة الى القاعة الواسعة فتسرع الخطى نحوك . هادىء أنت والليل الطارق المجهول والأصدقاء مسرعون . يتسابقون بجانبك وعينك ترعاهم وتطوف بوجوههم وتحاول فى صمت أن تمسح عنها آثار الذعر . يهمس طبيب القلب للشاعر الذى اقترب منه هو والناقد : غرفة الانعاش . يبتعد قليلا ويسر اليها : أزمة حادة فى الشريان . سأعمل ما فى طاقتى . يهز رأسه كثيرا وهو يلاحق المحفة ويؤكد لهما : العمل عمل الله . لابد من اجراء سريع . نعم لابد من حضورهم . نعم . ان شاء الله . تلمح القلق يطـل من العيـون فتقول وأنت تحـاول أن تمد يدك لتصافحهم فلا تستطيع : مالكم . شدوا حيلكم .. يحذرك الطبيب وهو يعدو خلفك . يخبط الناقد كفا بكف . تطفر الدمعة من عينه ويسند وجهه على الحائط .

تبتعد المحفة وما زالت نظراتك تلمسهم وتجفف دموعهم وتزيل غبـار الذهول عنهم · تكاد النظرات تقول : « وما الانسان ان عاش وان مات ــ وما الانسان ؟ وهل من مات لم يترك له رسما على الجدران ، وخطا فوق ديباجة ، وذكرى فى حنـايا القلب ؟ وما الانسـان ان عاش وان مات وما الانسان ؟ » ···

***

٧

أنذرنى من قبل أن يجىء ···

رفقا يا قاضى الوقت · مهلا يا ملاح الموت · يا من تعبر نهر الغربة والنسيان ، أنظرنى حتى أعزف بعض الألحان ، أو أشرب نخب العمر على مأدبة الخلان ، وأودع من أحببت وأختم آخر فصل فى مأساة الأحزان ، وأقوم خطيبا فيهم : اخوانى ·· يا من كنتم أغلى الاخوان ، أسألكم ، أسأل نفسى : من نحن وماذا نبغى ، ما الانسان ؟ واذا كان الانسان هو الموت فما معنى أن نولد ونشيب ونلقى فى الأكفان ؟ واذا لم يكن الانسان هو الموت فمن كتب عليه القسوة والحرمان ؟ من أوقفه كالمسجون أمام السجان ؟ ان كان الانسان · هو الموت ···

تسرع المحفة على عجلاتها وبجانبها الطبيبان وخلفها الممرضة الصغيرة لاهثة الخطى والأنفاس · أرقد فى سكون وذراعى هامدة وأصابعى تتحرك شوقا للقلم وللأوراق · هل فات الوقت ؟ هل أزف الموعد ؟ أنصت يا طير الموت الأسود · أسمع دقات الطبل المرعد ، تعلو تهبط تدنو تبعد · أنصت يا طيرى الهاجع فى عش القلب المجهد · فالنغم الهارب يتردد حينا ثم يبدد ، يتكسر فوق زجاج القلب ويخمد ، يجمع أشلاء نشيد ضاع من المنشد : « أنذرنى من قبل أن يجىء ·· تراب لونه الردىء » ·· أنذرنى ولم أصدق نذره ·· أنبأنى ولم أحقق نبأه · رأيته على الدوام يخفى عينه المختبئة ، فى طرقات المدن المهترئة ، وفى حنايا الأعين التى تنم عن قلوب صدئة ·· أنذرنى من قبل أن يجىء ·· لم أنتبه لوقعه البطىء ·· هل آن أن تدهمنى خيوله المفاجئة ؟ ·· ترتفع دقات الطبل الخافت حتى تصبح كدوى الرعد ·· تتلبد سحب الغبار أمام عينى وتبرق حوافر الخيل · دقات القدر الغامض أم دمع القمر على صدر الليل ؟ تسرع المحفة وتسلمنى من درب مجهول الى درب مجهول · تهبط من كون علوى فى كون سفلى · يا ربات القدر الرابض فوق العرش · تغزلن خيوط العمر وتصنعن نسيج

النعش • مهلا يا ربان القدر ولا تقطعن الخيط الهش •• لا تزعجن الطير الراقد فى العش ••

تشيعنى النظرات الكابية والنظرات الحانية • يا أمى أين تراك الآن ؟ ضمينى واحمينى من شر العين • وأنت يا حبيبتى الحنون • حبيبتى يا من دعوتها أغلى من العيون • هل يسعفك الوقت ؟ أم يبلغك رسـول الموت بأنى مت ؟

آه أزف الوقت ، ضاع الوقت ••

لا تعجل يا مـلاح الموت باغراق سفينى ، الجرح ينادى السـكين فلا تك أقسى من سكين • أتقول بأن الموت علينا مقدور ، ذلك حق • لكنى أرفض هذا الموت الباهت حتف الأنف • كنت بسالف أيامى قد صادفنى هذا البيت : الانسان هو الموت • لكنى لم أقبل أبدا أن يصدق هذا البيت • فتمردت عليه وثرت • ودعوت الله بأن يرفع عنا زمن الموت ، أن يقسو كى نزدجر علينا ويعلمنا أن نتمزق اربا أن نتفتت ، حتى لا نمثل للموت ، حتى يخرج من بئر الماضى الأسود طفل المستقبل ممتطيا مهر الوقت ، ويجوز بقافلة الموتى أرض الموت ، لأرض تبزغ فيها شمس الحرية فى السمت ••

عجل يا ملاح الموت ولا تخش القدر أو المقدور • ان تبد جبال الملح أمامك والقصدير ، فسنحيا فى أطراف الألم ونبلغ شط المحظور ، ونجرب لحظة رعب قاس مر ومرير — حتى نرسو فى جزر النور ، نرسو فى جزر النور •••

تقف العجلات على باب الغرفة • تفتح عينيك على النور الباهر ينهمر من السقف على الأركان • تهتف من قلب خنقته أمواج الظلمة والصدفة : أواه يا مدينتى المنيرة •••



٨

مدينتى المنيرة •••

« مدينة الرؤى التى تشرب ضوءا ، مدينة الرؤى التى تمج ضوءا » • تلوح بعد طول الانتظار • تكشف عن نجومها وراء الغيم والضباب بعد رحلة العذاب والدمار • يا كم خرجت بحثا عنك كاليتيم ، مطرحا أثقال عيشى الأليم ، وملقيا وراء ظهرى بالأنا القديم • أقول كلما بدت أبراجك

الحسان والمنار ، ولوح الملاح سيد البحار ، للمركب الذى أضنته طلعة الشموس والأقمار ، ورحلة الضياع فى عيون الليل والنهار : « حجارة أكون لو نظرت للوراء ، حجارة أصبح أو رجوم ٠٠ » هل آن أن أرسو على شطوط الحلم ؟ أ أنت يا مدينة الجمال والجلال وهم ؟ أم أنت حق ؟ أم أنت حق ؟

أرقد فى فراشى الكليم ، عريان كاليتيم ، مجردا من النقوش والألقاب والرسوم ، تطوف فى خيالى السقيم حلمى العقيم حلمى القديم ، أن تفتح السما أبوابها عن نبأ عظيم ٠٠ « وها أنذا أستدير بوجهى اليك ، وأبكى لأن انتظارى طال ، لأن انتظارى يطول » أيا أملا قادما من وراء الغيوم ٠ أغيب فى غياهب الضباب والدخان ، أسأل عنك النسر مرة والأقعوان ، وأسأل الشيوخ والكهان ، عن شاهد يدل عن صداك فى الزمان أو خطاك فى المكان ٠٠ وبعد رحلة العذاب فى البحار والقفار ، وبعد طول الانتظار ، أراك ــ يا مدينتى زاخرة الأنوار ، أبعث من تابوتى القديم فى مدافن التذكار ، أبعث فوق صدرك الطهور كالأبرار ، أرضع من نهديك نور العدل والحرية ، أطعم من كفيك خبز العدل والحرية ٠٠ بعد طول الانتظار ٠٠ بعد طول الانتظار ٠٠٠٠

تتزاحم السحب عليك فترفع يدك محاولا أن تبعدها ٠ تتصور أنك راع يحمى بعصاه القطعان الطيبة من الذئاب ٠ ينتهى اليك صوت الطبيب محذرا كأنه ينفذ من أستار الضباب : أرجوك ٠٠ أرجوك ٠٠ تنظر من خلال الغيم المتناثر حولك كالقطن ، تندهش وتعجب مما حولك : أجهزة تلمع فى أيديهم ، وعقارب تجرى وتدور ، أكواب وأنابيب وخراطيم يستقر أحدها فى فمك ، يخرج منها ليدخل فى فتحة أنفك ٠ تتنفس عطرا أزرق، وتحوم فراشات حول الأنوار ــ ربى : ما هذا النور !

يعملون ٠٠ يعملون صامتين ٠ أيديهم تغزل ثوبى المسحور ٠ أفواههم نادرة الكلام ٠ كذا يكون الناس فى مدينتى المنيرة ــ كذا يكون الناس فى بلادى جارحين كالصقور ٠ لا ٠ لا ٠ كم جرحونى فى زمان غابر قديم ٠ كم غرزوا السكين فى فؤادى الكليم فى فؤادى اليتيم ٠ لكننى أسامح ٠ أغفر زلة اللسان والعيون والجوارح ٠ ورحلة العذاب علمتنى الصمت ٠ أهل بلادى طيبون ٠ قد يجرحون كالصقور ، يقتلون ، يسرقون ، يشربون، يجشأون ٠ « لكنهم بشر ٠ ومؤمنون بالقدر ٠ وحين يسغبون يطعمون من صفاء القلب ٠ وحين يظمأون يشربون نهلة من حب ٠ ويلغطون حين يلتقون بالســلام ٠ عليكم الســلام ٠ ففى ذرى بلادنا يرفرف السلام » ٠ ومن ذرى بلادنا يرفرف السلام ٠ أهل بلادى طيبون يعملون

صامتين • وفى مدينة الأنوار يعشقون يعرقون يزرعون . وحين يملكون ، ارادة الانسان أن يكون ، لن يشغلوا أنفسهم بالموت والقضاء والقدر ، ولن يحدقوا «كعم مصطفى» فى لجة الفراغ والسكون . سيفرحون يضحكون يرقصون فى مواسم الزواج والحصاد والمطر ، وعندما يجىء الموت لن يخافوا طلعته ، فالحب ــ يا حبيب ــ قد أزال شوكته ، ومرت الحرية الخضراء فوق جرح العدم المهين ، وها هو الجرح القــديم يتحدى طعنة السكين ••

تتحرك شوكة ألم فى صدرى • تطفو الموجة بعد الموجة توشك أن تغرقنى • يبغى الطير الأسود أن يخرج من حلقى • يبغى أن يخنقنى • ها هو ذا ينهض ويرفرف • ها هو فوق الجرح يحط ويسقط • اهدأ يا طيرى الأسود ، ابعد منقارك عن كبدى • واختر غصنا آخر من شجرة جسدى • اهدأ أرجوك ولا تنقر فى حبة قلبى • دعنى أجمع ما يتناثر من حطبى • وأجدل من شعرى عشا ترقد فيه بجنبى ، وتعال لتصنع نغما يشجى قلب طبيب يأسو قلبك ويداوى قلبى • اسمع يا طيرى غنــوة حبى :

« العالم الذى أريد • أريد للرجال أن يعانقوا الرجال دون حقد • العــالم الذى أريد • أريد للنســاء أن يغفين وادعات ، فى أذرع الأزواج والأحباب والأبناء ، العالم الذى يصبح الأطفال ، نورة الأمل ، بنغية الحنان والدمى وبالقبل • العالم السعيد ، راحة الأجيال ، فى سعيها قوافل الأجيال نحو عالم سعيد » • أنظر يا طيرى الأسود ! هل تلمح نور مدينتنا ــ نور المستقبل ؟ » الزمن الآتى بالنجمين الوضائين على كفيه : الحرية والعدل • الزمن الكاسر للذلة والظلم كما تنكسر زجاجة الســم ، تتفرق شظيات لا يلتم لها شمل ، الزمن المطلق للأنسام لتحمل حبات الخصب السحرية، وتفرقها فى أرحام حدائقنا الجرداء المختومة بالعقم » • هل تشهد هــذا الحلم ، أتلحظه لحظ العين ؟ أم تحسبه رؤيا الغارق فى قاع النوم ؟ يا طيرى الأسود قم • هل تلمح مدن الأمل وراء الغيم ؟ أم هى وهم ؟ أم هى وهم ؟

تتكاثف سحب عاتية تصــــدم رأســك • يتخللها برق لا يلبث أن ينطفىء ويطفىء حسك • تتجمع سربا من قطعان بيضاء وسوداء ، سفنا ترتطم على الشطآن وتتفتت فى الخلجان ، وتصارع جبل المردة والحيتان ، تهرب منها الفئران ويبكى البحارة ــ لكى يبقى الربان ، يبقى الربان ، وحيدا يكشف للريح الغاضب ستر الصدر العريان ، يحمل بين يديه المصباح الواهن فوق الطوفان ــ يا هذا الربان ! يا هذا الربان ! غرق

الغرقى قبل الغرق وسقطوا فى القيعان ، هرب البحارة والفيران ، والجرس المعول من ناقوسك لن تسمعه الآذان ، انقذ نفسك يا ربان ، أتمثل دور الفرسان المحزونين الشجعان ، ذهب الفارس والفرس وغطاه رماد الأزمان، يا ربان ! يا ربان ! ماذا تصنع يا ربان ؟!

ــ أنتظر الزمن الآتى بالسيف المبصر والميزان ، لأزف النور لركب الشجعان ، وأضع التاج على رأس الانسان ·· الانسان ···

تطفو فوق الموجة ، تتشبث بالسرج المزبد والموجة فرس رهان ، تنزلق على ظهر العالم ، تهوى تهوى فى كهف لم تسكنه الجان ، كهف سكنته الغصة والأحزان ، يتصاعد منه دخان ، يتصاعد منه دخان ··· ترتفع على ظهر الموجة ، تتنفس فوق الماء كأنك سمكة صيد فرت عن وجه الحيتان ، هربت من شبكة صياد كى تقع بشبكة صياد ثان ، تختنق وتسقط فى القيعان ، تتأمل جسدك يهوى فى بئر أحمر قان ، ينتفض ، يحاول أن يهرب منك فتتماسك ، نلقف حبلا يمتد اليك كثعبان ، تخرج من قاع البئر وتتجول وسط حقول ومغان ، تلمح شبحا ، أشباحا تدنو منك فتهتف يا أصحابى ، يا أحبابى ، أتراكم غبتم عنى وتخليتم يا خلانى (تهتف لن يسمعك الجيران ، لن ينتبه لصوتك قاص منهم أو دان) ·

الطبيب يتمتم : ربى ! رب الميلاد ورب الموت ·· ويراقب أنفاسك ويعاين نبض القلب · الطبيب الآخر يتأمل وجهك ويهمس : يا رب ·· الممرضة تذهب وتجىء ، تحرك أنابيب وتحضر أنابيب وتنشج : يا رب · وأنت تطفو على الموجة وتنزلق · تمتطى ظهرها وتسقط · تمسك بلجامها الفضى ويفلت منك · تتزاحم الأشباح حولك · تقرب وجوهها من وجهك · تعرفها ، تتفرس فيها ، وتناديها بالصوت المفعم بالكتمان :

ــ الى الى · يا حلاج · ثبت قلبى يا محبوبى · يا سيدنا القادم من بعدى · أدركنى أو لن تدركنى ياليلكة الظل ، أميرة روحى وجروحى · تنتظرين ؟ ماذا تنتظرين ؟ يا عشرى السترة ! مد يديك وأظهر لون القدرة· أصبر يا طير الموت الأســود · نقر فى صدرى لكن أبعد منقارك عن حبة قلبى · أمى يا أمى·· أين تراك وأين أبى ؟ نادى يامى عليها لتكون بجنبى . يا شجرة عمرى نور العين رفيقة دربى ــ غطينى ضمينى مدى كفك داوى قلبى · تهوى فى لجج الاغماء ، يشح الضوء ، وتبتلع الملح ، تعض على لحم السر الهارب كالسمكة فى الماء ، تدخل من حال الصحو الى حال المحو وتلمس قلب الأشياء . تصبح خمرا ، خبزا أسمر ، نورا ، خصلة شعر

ذهبى ، أرضا وسماء، تختنق بسرك وتعض عليه ، تصرخ ـ من يسمعك ؟ ـ الى الى ! تعالوا يا أحباب يا أصحاب الدرب ، رفاق الجرح، الى الى ٠٠

يا أحباب ٠٠ يا أحباب ٠٠٠٠

***

٩

تنفرج أسارير الطبيب قليلا ٠ يأخذ نفسا عميقا يكشف الغمة التى أطبقت عليه وكادت تنسيه أن يتنفس ٠ يراقب جهاز القلب ويحصى الأرقام ويبتلع الغصة فتغيب كحجر فى الدوامة ٠ يلتفت لزميله الذى يقف عند طرف الفراش كحارس ليلى صامت ويهز رأسه ٠ يتطلعان لوجهك ويرقبان النفس الذى يصارع التيار ويطفو على السطح ٠ تلوح بارقة أمل خفى ٠ تفتح عينيك وتنظر حولك ثم تغمضهما ٠ وتتمتم شفتاك بصوت لا يسمعه غيرك : الى الى ٠٠٠

ـ ها أنذا بين يديك ٠٠٠

ـ الأميرة ؟

تدخل كالنور الساطع٠ يتهلل وجهك وتضىء بعينك ومضة أمل دامع ٠ سيدتى ! سيدة الجرح الباسم كالفجر الطالع ٠ ترقص شفتك وهى تتابع خطوات الحلم الرائع : « شمس فى السمت ٠٠ فيض عبير يسرى فتبل نداوته جدران الغرفة » مولاتى ٠٠٠

تهمس شفتاها : مولاى الشاعر !

ـ « يتضوأ تحرك ٠ حقل لياك مرشوش بالنور ٠ ويزغرد شعرك ٠ خمر تنسكب على صفحة بلور » ٠

ـ شكرا ٠ هل تذكرنى ؟

ـ « ان أنس فلا أنسى ثوبك ٠ صفحة فضة ، تتمرغ فيها شمس الصيف ٠ أن أنس فلا أنسى جيدك ٠ كومة ماس يتكسر فيها النور ويلتم » ٠

ـ « ليلكة الظل أنا ٠ عابدة الظلام » ٠

تكمل نغما يترقرق منها : « الزهرة التى تخاصم السنا وتعشق القتام » ٠ ما زلت كعهدك والوجه حزين ٠ ما زلت كعهدك تنتظرين ؟

ـ لا أنتظر سواك • هل ينسى العابد معبوده ؟

ـ من أنا حتى تنتظريه ؟

ـ من أبدعني وبراني • هل أنسى من ســواني ؟ من من عدم نسج كياني ؟ ـ يا خالق سرى وبياني قم لترانى ••

ـ خالقك كسير عانى • ملقى كالعدم الفانى •

ـ ترخي جفنيك كأنك مهموم • في وجهك تتمدد غيمة ضيق مكتوم • هل أبطأ وحيك ؟

ـ بل أبطأ نبض القلب وضاع يقيني • أترين شحوبى وغضونى ؟ أسمعت أنيني ؟

ـ ولهذا أشفقت عليك • خفت خطاه تسبقني ويجيء اليك •

ـ من تعنين ؟

ـ من قتل الزهرة ورماها في الظل سنين من ألفاها في جوف التنين من خيب أملي ، كذب علي ومرت كذبته فوق مدينتنا كالأعصار المجنون • أنسيت سمندل ؟

ـ أنساه ؟ عشت حياتي أمقته وأعرى وجهه •

ـ لن تنفعه أقنعته • سأعينك ••

ـ لا شيء يعين ـ لا أحد يعين ـ عاجزة أنت كشاعرك المسكين ••

ـ لن يخدعني الليلة ، سأواجه ظلمه ••

ـ سبقتك خطاه ومد على صدرى ظله • عشت سنين العمر وعيني تتحدى عينه • أتســمع وقع خطاه كعابر ليل يســمع خطوات القتلة ـ لا أتذوق كأسا حتى ألمح فيها نصله • وكما يتوقع عار في طرقات الليل الصدئة ، أن يدهمه المطر الهاطل فجأة ، أتوقع منه أن يأتى الليلة ، كالدائن يطلب دينه ••

ـ لن تتركك وحيدا • وقر ندل لن يتأخر ••• ها هو ذا ••

تجرى نحو رجل يخطو في ضوء الغرفة كخيال بطل مهزوم • رجل رث الهيئة ونحيل ، عليه تراب الفقر والســفر ، في فمه المتحدى أغنية لا زالت تتشكل • تسرع نحوه هاتفة :

ـ ها هو شاهد مأساتي •••

تمسح نظراتك وجهه الذابل وعينيه الصامتتين وتمر على القيثارة المتدلية من كتفه وتبتسم :

ـ وأنا من يشهد مأساتى ؟

ـ سيخلصنا منه قرندل ثق من قولى • فالشاعر يخفى الخنجر فى سترته وسيغرزه فى صدره تتحسس صدرك وتقول :

ـ أم فى صدرى ؟

يقترب قرندل منك يلمس سريرك كما تلمس أم مهد وليدها • فى عينيه الصامتتين حنان نبى يعرف قدره ، غضب المنتقم يصمم أن يأخذ ثأره • يمر بأصابعه على القيثارة فترن خفقات لحن شجى وترفرف فى جو الغرفة • يرفع عينيه كأنه يتابع سرب طيور مغردة ثم يخفضهما لتلتقيا بعينيك :

ـ الكلمة أيضا يمكن أن تقتل •••

تدير عينيك الغاضبتين تجاه الحائط وتعض على شفتيك • يأتيك صوته :

ـ أغنيتى أقوى منه ـ لحنى من خنجره أرهف • تعرف خيرا منى سر الكلمة أمضى من حد السيف • تتردد أصداء غضبك وتصطدم بالجدران ينتفض جسدك وتهتز رأسك وتتمتم :

ـ كذبة ! قتلتنى كذبة !

تتفجر حمم الكلمات فى صدره وتسيل صارخة من فمه :

ـ لن نسمح أن تتجدد تلك الكذبة • لن نترك تلك الحية تسحر الباب الناس وتصبح قبة•طعنت قلب مدينتنا ذات مساء كذبة • فاسترخت مثقلة بالجرح • والليلة •••

ـ الليلة صرعتنى الكذبة ـ هل أجدتنى الكلمات ، هل أنقذنى اللحن !

ـ الليلة قد تهوى أنهارا وتلالا ومنازل لو ولدت فى ساحتها أخرى ••

ـ تهوى فوقى وأنا أهوى •• لن يجدينى يا شاعر لحنك فارجع ••

ـ دعنى ألقى ظلى فى عينيه ، وأغنى من أغنيتى آخر مقطع ••

ـ انغرز النصل بقلبى • لم تدفعه أغنيتك عنى ••

تتحسس صدرك وتئن • يضطرب الطبيب ويمد ذراعه الى زميله •

يشير الى احتقان وجهك وعينيك يسرع بتثبيت الخرطوم الجديد فى فمك وبتثبيت عينيه على عقارب الجهاز. تبكى الأميرة وتميل على صدرك تتسمع نبض الجرح. ذبلت زهرتك الليلية ، ماتت أغنية قرندل. تستجير بالوصيفات فلا يستجيب أحد . تجرى نحو النافذة فتصدها أكوام الليل ، تعود وتندفع نحوك وتندب حظها على صدرك : أولا يكفينى فى اليوم الواحد جرح واحد ؟

يشتاق الجرح الى السكين . يفزع الطائر الأسود ويفتح عينيه . تهمس وأنت تتملى صفحة وجهها المتألق كالبللور :

ـ جرحى أعمق مما قدرت أوجع مما ظننت قيثار قرندل . أترين اللص الجاثم خلف قناع الليل ؟ لن يفزعه صوت الديك الذهبى ولن يطرده الفجر لن يرديه اللحن ولا الخنجر . آه قد سلمت . عودى أنت عودى لحياتك فىقصر الورد قبيل آذان الديك . يا سيدتى وأميرة أحلام العمر . ان يقهرنى الموت فكونى أقوى منه ومن ذل القهر. عودى للقصر كى يستجلى أتباعك طلعتك النورانية ويشم رعيتك نسـيم الحرية . فلتسرج أم الخير جوادك والعربة لتكونى معهم قبل الفجر . عودى . عودى . وارعى عهدى ، عهد الشعر . شاعرك قتيل مطروح . دمه مسفوح . فوق رصيف المدن الكاذبة القلب ينوح . عودى يا زهرة دمعى وجروحى . وانضمى للورد النائم فى روضـة روحى . لا تنسى قبل ذهابك أن تهبى قبسا من نورك أو ظل شـعاع من وهج جبينك فالنور شـحيح .. تقف الأميرة كالطيف المشلول ، ترفع يديها الى وجهها وعينيها لتزيح الدمع وتمسح ظل الكابوس. تنعطف عليك ، تقبل وجهك وجبينك وغضون الألم على وجهك وجبينك . تستدير وتنسحب على أطراف قدميها . ينهض قرندل من الركن الذى تكوم فيه ويجر ساقيه وقيثارته الصامتة مدلاة بجانبه كالبلبل الذبيح يقفز ديك الفجر على جسد الليل الأسود يصيح . تنفذ سيدة الأحلام المرة فى بللور النافذة الشاحب وتعود كما جاءت : باقة نور ، وردة حلم نبتت فى بسـتان القلب المهجور . تثبت نظرتك عليها وتودعها وتقول : سلمت خطراتك نحو القصر . ولترعى يا سـيدتى عهد الشـعر . موعـدنا ؟ لا لا أدرى . فقد انحسر النهر : قد ألقاك مع الفجر ، أو فى القبر من . ؟ ضيف آخر ؟ لا . لا . الوقت تأخر ؟ أى سر ؟ لا شىء يعين . لا أحد يعين. أيلح عليك ؟ عودى . عودى . يبتهل اليك ويتشفع بك ؟ فليدخل هذا الضيف الآخر . رجل مجهول مكسور الخاطر ؟ ومسافر ليل جاء يقول : سلاما لمسافر ؟ آه ... قد سلمت .. قد سلمت ...

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

١٠

سلمت وما سلمت ٠٠٠

فلا تكاد تغمض عينيك وتناجى نفسك ، لا تكاد تتذكر سر الأحرف التى جمعتها يوما وتصفها أمامك ، لايكاد الطائر يهجع فى مرقده ويهدأ فى عشه وتأخذ نفسا عميقا وتفتح عينيك المحمرتين بجمر الألم والوخز والانتظار حتى تراه أمامك : بطل الملهاه السوداء ، ومهرجها المسكين ٠ لا لون له أو أبعاد ـ الرجل الورقة ، سقطت من شجرة هذا العالم ذات شتاء أو ذات خريف ، لا تتميز من آلاف ، ملايين الأوراق ، تنمو فى رحم الليل ، تحدق فى عين الشمس ، تتلوى تحت سياط الريح وترتعش من الحاجة والبرد ، تسقط لا يشعر أحد ، لا تدرى الأرض ولا الرمس رجل رث الهيئة مرتجف الساقين ، أجوف كالقصبة حافى القدمين ، منخوب تصفر فيه الأنوار ، أغنية الموتى الأحياء ـ تتلوى شفتاك اشمئزازا ، تنوى أن تبعد وجهك عنه ، يستعطفك ويوشك أن يركع ويقبل قدمك ٠ تهتف فى غضب : انهض ٠ انهض ٠٠

ـ لا تصرف وجهك عنى يا مولاى ٠ لا تحرمنى نظرة عطف ٠

ـ ما تبغى الآن ؟ ما هذا الخوف ؟

أرجوك اسمعنى ٠ لا تكسر خاطر ظل مكسور ٠٠

ـ أولا يكفى أنى جسـدتك فى الأوراق ، أطلقتك فوق الخشـبة وتركتك تعرض مأساتك ٠٠٠٠٠٠

ـ حتى انغرز بصدرى الخنجر ٠ لكننى الآن عرفت السر ٠٠٠

ـ السر ٠٠ أى سر !

ـ هل تضمن ألا يسمعنا أحد ٠٠ حتى الجدران ٠٠

ـ قل ٠٠ لا وقت لدى ٠٠

ـ حتى الوقت ٠٠ هل يأمن حذر جاسوس الوقت ؟

ـ قلت تكلم ٠٠٠

يقترب منك على أطراف قدميه٠يتلفت مذعورا حوله٠يرى الطبيبين عاكفين على الأجهزة غارقين فى كابوس العمل الذى لا يرحم ٠ يطمئن أن أحدا لا يراه ينحنى ويهمس فى أذنك :

ـ بعد فوات العمر كشـفت السر التهمة كانت خطا ٠ سـامحك الله ٠٠٠

ـ أفهمت اذن ؟

ـ بعد فوات العمر . أنا لم أقتله ..

ـ يا للسخف ومن القاتل ؟

ـ هل تضمن ألا يسمع أحد ؟

ـ قلت تكلم !

ـ عشرى السترة .. هو قاتله ، جلس على عرشه . حتى قاطع تذكرتى ..

ـ ما شأنه ؟

ـ مسكين مثلى . هو فى الواقع جلاد وضحية .. نفذ أمرا لم يفهمه فى انسان لم يعرفه . والأدهى من هذا ....

ـ ماذا ؟

ـ أنى لم أقتل وحدى .. أوحى الله أو الشيطان الى ...

ـ ومتى هبط الوحى ؟

ـ بعد تمام اللعبة ..

ـ اللعبة ؟ .. أظننت بأنى ألعب ؟ .. انى ...

ـ أصبر يا مولاى أعرنى سمعك ـ بعد سقوطى فوق الخشبة ، بعد التصفيق وثرثرة النقاد مع الجمهور وثرثرة الجمهور مع النقاد ـ خرجت الى الشارع .. شبحا يتسكع بين الأشباح . لا أحد يحس بجرحى ، لا أحد يجفف سيل دموعى ودمائى ـ هل تدرى من صادفت على طرق الوحشة والقبح ؟

ـ عشرى السترة ؟

ـ يقينا لا .. هذا لا يبصره مسكين مثلى ـ

ـ ومن صادفت ؟

ـ موتى مثلى . ولدوا أمواتا ، قتلوا كل صباح ومساء ، لم يلمح أحد منهم قطرة دم تنزف منه أو تلمع فوق ثيابه . شغلتهم أحزان اليوم وأوجاع الأمس ، جمع الزاد ليوم موعود يزحف فيه الدود . لم يعنوا أنفسهم حتى بقراءة نص التهمة ، لم يشكو الأمر لقاض أو مسئول أو سجان ـ هل تعرف سر الأمر ؟

ـ سر آخر ؟

ـ السر بسيط ٠ الكل قتيل لا يدرى من قاتله ومتى قتله ٠ خدم معصوبو الأعين تخدم خدم الخدام ، وعبيد تسجد لعبيد عبيد ٠ قلت لنفسى : مقتول من آلاف القتلى ٠ من مليون ملايين ٠٠ منذ سنين ، ملايين سنين ، والسيد ٠٠ هل تدرى من ؟

ـ مـن ؟

ـ عشرى السترة ٠٠ يتربع فوق العرش وبين يديه زمام القدرة ٠٠ يتنزل منه الأمر ولا يعرف أحد أمره ٠٠ هل تعرف ماذا قلت لنفسى ؟

ـ ماذا ؟

قلت لنفسى : ماذا أفعل ؟ هل تملك شيئا حبة رمل فى وجه الجبل المظلم ، أو قطرة ماء تائهة فى اليم ؟ أدركت حقيقة نفسى وحقيقة جنسى ، وبكيت بملء العين وقلت لنفسى :

ـ ماذا تفعل ؟

ـ حقا ماذا أفعل ؟ لم يبق أمامى الا أن أقتل أو أقتل ٠٠

ـ أعلنت الثورة ؟!

ـ هل يعلنها من طعن الخنجر صدره ؟ ـ كان الليل ثقيلا والمحنة أثقل ٠ فتسكعت قليلا فى طرقات الوحشة ثم رجعت ٠

ـ لنفسك ٠٠

ـ بل للمسرح ٠٠ كان الناس قد انصرفوا والقاعة صمت وخواء ٠ وطلعت على الخشبة وحدى أعرض ملهاتى السوداء ٠ أعرض نفسى فى مرآتى ، كالأخرس يخطب فى سوق الخرس ويروى قصته الخرساء ٠ رحت أمثل كل الأدوار بلا ترتيب : فأنا الآن مسـافر ليل ، قاطرة ، قاطع تذكرة ومفتش ، وأنا فى نفس الوقت النـاظر والسائق والحارس والحمال وجمهور المنتظرين ٠ جمهور البسطاء الفقراء ٠ حتى نفذ الى الصوت ٠٠

ـ الصـــوت !

ـ صوت يأمرنى أن أخرج من ملهاتى وأعود اليك ٠٠

ـ الى أنا ؟

ـ آنبأنى الصوت بأنك تتألم فأتيت اليك ٠ قل لى ماذا أفعل ؟

ـ نفس سؤالك وسؤالى ٠ هل ينفعنى فى حالى ؟

ـ بم تأمر ؟ بم يشملنى عطفك ؟

ـ هل عندك للجرح دواء ؟ ها أنت ترانى يعصرنى الداء ٠

ـ ما أنا الا خادمك وظلك ، وصدى صوتك ٠ أ أسوى فرشك وأرتب عشك ؟ أم أعرض فصلا من ملهاتى كى أمسح دمعك وأخفف وجعك ؟

ـ ما أبغيه لا تقدر أنت عليه ٠٠

ـ هل أستدعى أبطال التاريخ ؟ ها هى ذى الأسماء ، نقشت بحروف بارزة سوداء ٠ هل يرضيك الاسكندر ، قيصر ، هانيبال ، تيمور لنك والحجاج وجنكيزخان ؟ هل أدعوهم ٠٠٠

ـ القتلة ٠٠ دعهم يا أحمق ، لا تزعجهم فى مقبرة التاريخ ٠٠

ـ ما أنا الا أحد الفقراء ٠٠ داستنى قدم العظماء وألقتنى حبة رمل فى صحراء الدهماء ٠٠

ـ أرأيت بنفسك ؟

ـ مرنى يا مولاى بشىء ٠٠ أرجوك ٠٠

ـ لونك يبدو مصفرا ٠ فاذهب عنى مشكورا ٠٠

ـ عشت كما عاش ملايين المجهولين سواى ، كجرادة حقل يا مولاى٠ ألهث سعيا خلف الخضرة واللقمة والماء ، تسقط أيامى الجرداء بجوف ليالى السوداء ـ أما وجهى ٠٠٠٠٠

ـ وجهك ذكرنى باللون الأصفر ، واللون الأصفر يغشى عينى الآن، وكأنى ألمح لون الداء ولون الطغيان ٠ كنت حمامة أيك تدخل فى معركة مع ثعبان ، كنت فقيرا لا أملك الا كلماتى أنثرها فى أوزان أو ألحان ، راحت أجنحة الكلمـات ترفرف فوق السور وحـول الجدران ، تصطدم بأسلاك الزيف وأشواك الخسة والبهتان ، حتى ارتدت للقلب وغارت فيه الأحزان ٠ اذهب عنى أرجوك ٠٠

ـ تصرفنى ؟ انى جئت أقدم قربانى ، أنسيت بأنك من عدمى سويت كيانى ؟

ـ لونك أصفر ٠٠

ـ أو لا تكفى تهمتى الأولى ؟

ـ تهمتك الكبرى أنك موجود ٠ وعقابك ألا تحيا الا كحياة الدود ٠

ـ ما ذنبى وأنا لا أملك حتى الزاد ؟ هل يرضيك عذابى تحت سياط الجـلاد ؟

تذرونى الريح على أرصفة الزمن الضائع حفنة عدم ورماد ، كجراد أهلكه الجوع يجر صغار جراد ؟

ــ دعنى ، حول وجهك عنى ٠٠ واسقط فى مزبلة التاريخ لتنتظر قضاءه ٠٠ أنقذ نفسك أو فتش عمن ينقذك بعيدا عنى ٠٠ أنا لا أقدر حتى أن أنقذ نفسى أو بدنى ٠٠٠٠

يتلوى الجرح وتسقط فيه السكين ٠ تحاول أن ترفع يدك الى صدرك فتثبتها كف دافئة ناعمة الجلد ٠ يثور غبار حولك ، تتلبد سحب صيفية ، يعوى الاعصار وتختنق الأنفاس ويسقط فى عينيك غبار ٠ تسأل نفسك : يا دارى ، يا دار الشقوة يا دار ، هل زحف السيل الجرار ؟

يغفى الزائر فى الركن الصامت مكسور الخاطر ٠ وكما سافر فى الليل مع الوحدة والأحزان يسافر ٠ يهمس فى محنته :

ــ ربى ٠ خرج العالم عن محوره واختل الميزان ٠ هل يعدله انسان مثلى وأنا أضعف انسان ؟ ماذا أفعل ؟ ماذا أفعل ؟

تنتبه الى صداه الذى يغيب شيئا فشيئا وتسأل نفسك : ماذا أفعل ؟ تلتفت الى الأشباح البيضاء التى تقف بجوارك وتتحرك أيديها ورءوسها فى كل اتجاه وتسأل : ماذا يفعلون ؟ تشتد العاصفة ، يثور غبار ، تربد السحب وتتجهم نذر الاعصار ٠ يتردد صوت المسافر الذى انزوى شبحه فى ركن الجدار وتكوم على نفسه كحيوان محتضر وهو يردد : ماذا أفعل ؟ ماذا أفعل ؟ تشتد العاصفة وينفذ صوت كالرعد : هجم التتار ٠٠ هجم التتـــار ٠٠٠



١١

هجم التتار ٠٠ هجم التتار ٠٠

يرتفع صدرك وينخفض ، تتحشرج أنفاسك كالريح المختنقة فى أسرار الغابات ٠ يرفرف الطير الأسود ويضطرب جناحاه ويقاوم العاصفة ، يعلو ويهوى مذعور القلب والعينين ٠ لو تنفذ كفاك الى قفص ضلوعك فتهدهده وتحن عليه حنـــان الأم على صـــدر وحيد ؟ لكن الاعصار شديد ، والأفق الغائم غطته الرايات السود ، ودوى الطبل الأجوف يقترب ويبتعد ويذهب ويعود ٠ تفتح عينيك الدامعتين ، تحاول عبثا أن تنهض ، تصرخ ، يضنيك الألم ، تئن ، تتردد أطراف الجسد المكدود : جحافل التتار ، واقفة هناك

كالجدار ، تسد عين الشمس بالغبار ، تجلل السماء بالسواد والحداد والدمار ، تزحف كالجراد كالاعصار ، تفتك باخضرار العين والضمير والأشجار ، الى يا أحباب ٠٠ قد أهلكنى الدوار ، الى يا أحباب فالتتار ، عيونهم تئز كالشرار ٠٠ يرتفع أنينك فيثبت الطبيبان نظراتهم عليك ويثبتان فتحة الخرطوم فى فمك ، يرتفع أنينك فيصحو المسافر من غفوته فى الركن الداكن ويقترب منك :

ــ مولاى ٠٠٠

تشير بسبابتك الى النافذة وتلهث :

ــ الأفق مختنق الغبار ٠٠٠

يتجه الى النافذة وينظر ، لا شيء سوى جبل الليل الأسود كالويل ٠

ــ « والأرض حارقة كأن النار فى قرص تدار » ٠٠

ينظر وينظر ٠ الأرض قطة سوداء ملتفة على نفسها فى عباءة النوم ٠

ــ « وكتائبى رجعت ممزقة وقد حمى النهار » ٠

النهار لا يزال بعيدا ، والكون يحتمى من الظلام بالظلام ٠٠٠

ــ « الخيل تنظر فى انكسار » ٠٠

حقا هى خيل الليل ــ تعدو وتسابق خيل الليل ٠٠

ــ « والبوق ينسل فى انبهار » ٠

تنبهر الأنفاس ولا أسمع الا صوت الليل وصوت الليل عميق ــ اكشف عن وجهك يا ملك ملوك الصبح وأذن فى البوق ٠٠

ــ « والعين تدمع فى انكسار » ٠٠

يتراجع عن النافذة ويختلس الخطى الى فراشك ٠ تضطرب أنفاسه وهو يرى اضطراب أنفاسك ٠ تلمح عيناه الدمعة تترقرق فوق الجفن وتنحدر الى الخدين ٠ يمد الكف المرتعشة كى يمسحها ويحس بأخرى تلمس شفتيه ٠ يقرب أذنا من فمك ويسمعك تسر اليه :

ــ « زحف الدمار والانكسار ــ زحف التتار » ٠٠

يقف مسافر ليل كالصنم الأبكم ، الوجه يطل عليك كوجه غراب أسحم . وتحول عينيك عنه لتنظر وجه القدر المعتم ، يخفق كالطير الأسود فى داخلك ويؤلم : فى مطلع النهار خيمت سحائب التتار ، والتهم الجراد خضرة الشباب ، غالها بالخوف والأسى والاصفرار ٠ هتفت يا أماه لن

نبيد ، يا أماه جففى الدموع قولى للصغار ، غدا نشيد ما قد هدم التتار • ومرت الأيام •• مرت الآيام واستقروا فى الديار ، وداست الأقدام فى فؤاد الفارس الهمام فى فؤاد الفارس المغوار ، وساخت الأحلام فى قرار هوة بلا قرار ، وضلت الخطى طريقها للدمعة البريئة ، وأخطأت طريقها للضحكة البريئة ، وانكفأ النهار فى ضحاه كالعجوز ينكفىء فى ساعة احتضار • سمعت من يقول هم هدية السماء للفانين من أمثالنا ، لحفنة الأموات ، حفنة التراب الآدمى والغبار ، وكنت فى زمانى القديم أحضر الأسمار ، أنشد الأشعار ، « وعندما أمرت أن أثير زهوهم وأذكر انتصارهم، غنيت ـ كان فى قرار اللحن ، ما لم أجد كتمانه من وحشة وحزن » ـ وعندها بكيت ملء العين : « جوهرة سقطت فى الزمن الوغد ، تحت حذاء الجندى الأبيض والجندى الأسود ، برجا سقط جريحا فى زمن التبريح ، قصرا أسطوريا سقط عليه الأجلاف ففرت منه الأسطورة ، مهرا وثابا فى درب المعراج الى الله ، جاء الدجالون فنزعوا منه الريش الفضى ، واقتلعوا جوهر عينيه اللؤلؤتين » ، وانهمرت أسئلة الشعراء الموتى والأحياء على : سألوا عن معنى الحرية والحق ، عن معنى العزة والصدق • نادى الجرح على السكين فصحت : آه يا وطنى ! ولزمت الصمت • هل تفهم عنى يا من تسافر فى جنح الليل وما زلت ، ـ يا من من أجلك جعت ظمئت حييت ومت ؟ بكيت وانتظرت أن تزول محنة التتار ، أن يرفع الغبار والأسى والاصفرار أن يعود الاخضرار ، لأعين الصغار ، للدماء فى العروق ، للربيع والدموع ، للكلام والسلام ، للأيام والأحلام والسنابل التى تموت فى الهجير للصحارى والقفار ، وعشت فى انتظار سيد يجىء بعد طول الانتظار، يحمل قلب الأم فى يمناه ، فى يسراه سيفه البصير كالنهار ، وطال الانتظار •• ثم طال الانتظار •••

تنظر عيناك المتعبتان الدامعتان الى وجه أخرس أبكم ، يعلو جسدا كالطين المعتم أخرس أبكم • تتحشرج لجة أنفاسك ، يرتعد الطير الأسود ينقر صدرك ، يشرع منقار الشؤم ويتوعد ، ترفع عينيك ووجهك نحو الأفق المربد : الريح تدمدم ، والليل يهمهم ، والسحب على صدر الأفق تغيم وتظلم • ينتفض الجسد على صوت يخطف كالبرق المرعد : الليل تمدد ، والصبر تبدد • يا أهل مدينتنا ! انفجروا أو موتوا ! انفجروا أو موتوا ! تشرق بسمة طفل فى شفتيك وفوق جبينك تتمدد • تسأل نفسك : أهو السيد ؟! ••••

***

١٢

يا أهل مدينتنا .. يا أهل مدينتنا ..

ينقشع الغبار وتنجلى العاصفة . تطفو فوق الموج وتشرب أنفاسك وتسترد شعاع الوعى . تنسحب ذيول الضجيج وقعقعة العربات ودقات الطبل وأطراف الرايات السود . وتمد العينين والأذنين فى السكون الرحب فتسمع صيحة ديك مشروخة ، وتفتش عن نور الفجر الذى لمسته عصاه السحرية ولم تلمسك . النور هنا مصنوع ، نور مصابيح تئز كجمر فى عينى شيطان ، تنشر سحب ضباب مغبر ، تلتف على ظهور الطبيبين والممرضة الصغيرة المشغولة أبدا كالنحلة ، وعلى جسد المسافر المكوم بجوار السرير كصنم يحلم أن يتحرك يوما أو يتكلم .. نورا يفرش دربى ، وليصبح طير الموت الأسود ديكا يعلن مطلع فجر فى قلبى . يتردد الصوت النافذ كالسهم ويصطدم بجدران الغرفة ويشع رنينا ينداح كدوامة : يا أهل مدينتنا .. يا أهل مدينتنا .. تنظر ، تتذكر ، تهمس : هل يأتى السيد ؟

تتطلع للنافذة فترى وجهه النجمى يزيح ستار الظلمة ويقترب منك . وجه يسبقه بريق عينين ملتهبتين بالغضب والتحدى ، ويد ترتفع وتنخفض تفتش فيها عن سيف مبصر . أين هو السيف المبصر كى يذبح طير الموت الأسود ؟ ما زال يرفرف فى صدرى ، يغرز منقار الشؤم بقلبى . أقبل يا سيد أقبل — لكن لا تنس السيف المبصر..مازال بعيدا عنك.تستعطفه عيناك ولكن لا يتحرك . تغلبه الكلمات ، تشل يديه وقدميه عن الفعل . طالت غيبتك ، تقدم . ساعدنى أرجوك ..

يفتح فمه فتتفجر الكلمات الغاضبة : يا أهل مدينتنا ..

ترتسم ظلال ابتسامة على فمك ووجهك : أنا وحدى يا سيد ملقى ومحطم ..

ينهمر الصوت كشلال ينبثق من نبع قديم : رعب أكبر من هذا سوف يجىء ..

تتكاثف المرارة على فمك : أكبر مما أنا فيه ؟

ينطلق الشلال كما ينطلق المارد من جوف القمقم : « لن ينجيكم أن تختبئوا منه بأعالى جبل الصمت ، أو ببطون الغابات — لن ينجيكم أن تختبئوا فى حجراتكم أو تحت وسائدكم » .. لن ينجيكم .. لن ينجيكم ..

تحــاول أن تقاطعه وكأنك تضع قشــة أمــام التيار : هل تنجينى كلماتك ؟

تشير ذراعه التى ترتفع وتهوى باشارة حاسمة : انفجروا أو موتوا .. هذا قولى ..

تحول عينيك وأنت تقول : قولك .. قولك .. كلمات فى كلمات فى كلمات ..

يجيب بسرعة كأنه بدأ يلتفت اليك : لا أملك الا أن أتكلم ..

تردد وأنت تتطلع للنافذة بحثا عن شعاع واحد : « كلماتك لا تسقى عطشانا قطرة ماء ، لا تطعم طفلا كسرة خبز ، لا تكسو عرى عجوز تلتف على قامتها المكسورة ريح الليل » ، لا تشفينى من جرحى القاتم كالويل . هل تنجينى كلمات غاضبة كالسيل ؟ ..

يقترب منك ويمد سبابته كأنه يشرع سيفا : لا أملك الا كلماتى الغاضبة ..

توشك أن تضحك فلا يسعفك الصوت : يا ليتك جئت لتضحكنى أو تضحك ..

يتجهم وجهه ويتراجع قليلا كأنه يفسح مكانا للأحجار المنهمرة : أضحك ؟ « انا نحتاج الى أن تغضب . ضحكت هذى المدن المتبلدة الحس ، خمسة آلاف سنة ، ضحكت حتى استلقت ميتة فاتحة فاها كالجرح الصديان ، طنت وخز الأيام النحس ، دغدغة حنان» .. تنسكب جداول الذكرى فى وجدانك وتطفو على ملامح وجهك : أتذكرك الآن . أنت نبى مهزوم يحمل قلما ...

يسرع قائلا : ينتظر نبيا يحمل سيفا ..

تغالب الألم الذى ينفض وخزه على صدرك : أنا أيضا أنتظره ..

يقترب بوجهه كأنه يمــد اليك البشارة : يأتى بعــدى .. يأتى بعدى ..

تحاول أن تنهض وتصرخ فى فمه وأذنيه : يأتى بعــدك .. يأتى بعدك .. فمتى يأتى ؟

ينتفض جناح الطير الأسود . تضغط بأصابعك على الألم ، تحس الجرح وتهمس بالصوت المجروح : لم تبطىء عنى ياسيد ؟ الطير الأســود

يخفق فى جنبى ، ينقر فى حبة قلبى ، أولا يبصره سيفك ؟

يتردد صوت لاتدرى هل يأتى منه أو منك : سيفى لم يبرح جفن الغمد ..

تسأل وأنت تعض على سرك : ومتى تكشف عن وجهك ؟

ـ أنا لا أكشف عن وجهى الا فى أوج المجد ، أو فى بطن اللحد ..
تعض تعض على السر المختنق بصدرك

ـ ياسيد ، أبتهل اليك . أخرج من لحدك ـ اهبط من قمة مجدك ..

ـ أنا لا أهبط الا فى منتصف الليل .

ـ ليلى انتصف وما دقت أجراس الفجر ..

ـ الا فى منتصف الوحشة ..

ـ الوحشة فاضت كالطوفان وأغرقت الصدر ..

ـ الا فى منتصف اليأس ..

ـ يأسى يقطعنى نصفين ويقتلع النفس ..

ـ الا فى منتصف الموت ..

ـ انتصف الموت وعشش فى الطير الأسود .. أدركنى أو لن تدركنى بعد ..

يزداد رفيف الطير الأسود فى صدرك . يتخبط كالمذعور ويضرب بجناحيه . يدخل فى أعضائك مختطف الخطوة مسروقا ، تفتح صدرك وتناديه : «أدخل عذبا ورقيقا ، فأنا أتأهب لك ، نقر حتى تجد طريقا . آه ما أوجع خفق جناحيك ، أبعد عنى هذا المنقار الشائك» .. تتلفت حولك ، تستنجد بالأشباح الواقفه حيالك : ما بالكم تقفون كأشباح ؟.. أنت بأشعارك .. أنت بطبك ودوائك .. أنت النائم فى قاطرة الليل بصمتك وغبائك .. فليفعل أحد منكم شيئا .. ياسيدى القادم من بعدى .. أدركنى فلقد طال عذابى .. انى أنتظرك .. أنتظرك ....

يقف أمامك مهزوما وبلا قلم أو صوت . تختلج الكلمات على شفتيه وتسقط فى جوف الصمت .

يتحرك نحوك ، يغمض جفنيه كالعراف الأعمى ، ينطق بالنبوءة رغما عنه :

ـ لاتنتظر الآتى ·· هو ينتظرك ··

ـ ومتى ألقاه ؟

ـحين تدق الساعة ويحين الوقت ··

ـ ناشدتك أن تدعوه ·· تعبت ·· تعبت ··

ـ وأنا أيضا أنتظره ··

ـ كلمه ·· ناد عليه ·· هاأنذا فى منتصف الوحشة ، فى منتصف اليأس ، فى منتصف ···

ـ واأسفاه ·· أحببت الموت ·· أحببت الموت ··

ـ لأنى أحببت العيش وعشت ·· انك لاتعرفنى ··

ـ بل أعرفك وأعرف سر كلامك والصمت · كنت رفيقك فى الليل الموحش ، صاحبك وتابع ظلك ، حامل قلمك ، صندوق متاعبك وهمك ، كم نادمتك ، عاتبتك ، سافرت على مركبك ، سبحت على الأمواج ، غرقت· أعرفك وأرسم صورتك كما أنت : «جبهتك المشرقة الصلبة ، عيناك المتعبتان الطيبتان ، كفاك المتكلمتان وعيناك الصامتتان تنيران وتنطفئان، مشيتك المرهقة المتماسكة كمشية جندى بين قتالين مريرين » ·

ـ ألقى الجندى المتعب أسلحته ·· علقه الزمن الوغد من الساقين وشيب جرحه · قطع أوصال الحاضر والماضى ·

ـ أولاتؤمن بالمستقبل ؟

ـ «بل انى أخشاه لأنى أومن به ـ أوشك أحيانا أن ألحظه لحظ العين · ولهذا فأنا أبصره ملتفا فى غيم أسود» ·

ـ والحرية ؟

ـ هل عشت لشىء غير الحرية ؟ هل جدت بدمعى الا كى أسقى شجرتها الذهبية ؟

هل فجر فيك الغضب فبحت بما أمليت عليك سوى ايمانى بالمستقبل والحرية ؟ لكن المستقبل حلم قدلا أشهده ، والحرية شط قد لا أرسو فيه ··

ـ فى منتصف الوحشة يولد طفل الحلم · فى منتصف الظلم يضىء سراج العدل ويحكم · فى منتصف اليأس يجىء القادم بعدى ···

ـ أم فى منتصف الموت ؟

تشعر أن الطير الأسود قد جن جنونه • اختنق وراح يشق طريقا يخرجه من قفص الصدر • فتح منقاره كالنورس المذعور وتهيأ للاندفاع الى البحر الواسع والانطلاق على متن الريح • تحس أنه يتمدد كالكابوس ويفرش جناحيه عليك • ينفرد الجناحان ويغطى الظل القاتم على شرارة ضئيلة لا تزال تتقد فى الداخل كأنها عين محمرة تومض وتنطفىء • يمتد الصوت كحبل يرفعك من الكابوس :

ـ القادم سوف يجىء ـ القادم سوف يجىء ••

تفتح عينيك المجهدتين وتنظر للوجه المتلمع العينين :

ـ هل أصنع شيئا الا أن أنتظر القادم ؟

ينقر الطير الأسود ويحفر ويحفر كى يقتلع الحبة ، يرفرف بجناحيه لكى يطفىء الشرارة ، ينفتح جرح فى عمق الأرض المشقوقة وتنز منه قطرات تلمع وتخبو كبريق مذنب فى آخر الليل • تتحرك شفتاك من الألم اللاسع : يا سيدنا القادم بعدى ••

يقترب الوجه الصارم منك وينعطف عليك : اصبر••حتما سيجىء •

تريد أن تصرخ فلا تستطيع : الصبر تبدد •• فمتى يأتى ؟

يتصلب الوجه أمامك • تقرأ فى صمت ملامحه : تعرف موعده ••

تعض على سرك وتحاول أن تعثر على اليد التى تبحث عنها : ناد عليه •• أرجوك •• أو فادع الموت ••

يهبط صوت ينحدر من أعالى الجبل كرفيف النسر : لا يدعو الموت اليه سوى الموتى • أما أنت فحى •

ترفع اليه عينين شاهدا الجرح ولمساه وصبغهما بحريق الدم : أنا لا أدعوه جرحى يبتهل اليه يخفق الصوت ويمد جناحيه على صدرك ووجهك : جرحك مفتوح ككتاب قدسى والسيف المبصر سيعود وينطق كالوحى • أنا مثلك أنتظر القادم بالزاد وبالرى ••

تردد بصرك بين المسافر المكتوم فى غيبوبته بجانب الفراش ، وصاحب الوجه اللامع المتصلب كالكاهن الفرعونى على رأس مليكه المحتضر ، والطبيبين العاكفين على الأجهزة والأنابيب والأدوات والدوارق ، والممرضة الصغيرة التى تجرى كالنحلة فى مهب الريح • تضغط أجنحة الطير الأسود ويتأهب للاندفاع فتصرخ من تحت الجبل الجاثم عليك : يا حلاج •• ثبت قلبى يا محبوبى ••••

١٣

ثبت قلبى يا محبوبى ٠٠٠٠

يدخل كالطفل الضاحك فرحا بهداياه ولعبه ، طفل شيبت الأيام الجهمة شعره ، ترك الحارس والسجان وقاضى الشرع على الجسد الناحل أثره ، فوق الذقن المرسل يتناثر دم ، فوق الصدغ وتحت العينين بقايا دم ، وعلى السترة والشال الأبيض والسروال المترب بقع الدم • يتهلل نور العينين الساجيتين ويبرق بالبسمة والكلمة فم ، لا تخفى الحفر عليه وعلى الوجه الضامر ألم السوط المؤلم • يقترب قليلا ، تتذكر طلعته النورانية ، تنضو عنه سحابته ، يتضح الشبح المعتم ها هو ذا يقترب ، يحاول أن يجرى نحوك يتعثر فى الأغلال الصدئة فى رجليه ويديه ، يقوم ، يشد الخطو ، تجلجل ضحكته الحلوة يوم تبدت للعين الشجرة واندفع الى عرس الصلب وتمتم بالآيات وشكر الله وسلم • تتهلل طلعتك وتخفق آخر أنفاس سراج العين وتبتسم وتحتضن الحلم • توشك أن تطلق ضحكتك العذبة وتمد اليه تفاحتها الناضجة بدفء العمر الغارب فى ليل مبهم ، لكن الشوكة تنغرز وينطبق الفم • يقفز كالعصفور الأحدب يتملى وجهك يتكلم :

ـ « تبدو كالغارق فى النوم • تنسكب العينان على صدرك ، وكأن ثقلب دنياك على جفنيك ، أو غلبتك الأيام على أمرك » •

تفتح شفتيك المالحتين بطعم العلقم وتخاطبه كخطاب النائم فى حلم :

ـ « يا شيخى أنا انسان يضنينى الفكر ويعرونى الخوف • ثبت قلبى يا محبوبى • أنا انسان يظمأ للعدل ويقعدنى ضيق الخطو ، فأعرنى خطوك يا محبوبى ، وشفيعى قلبى المثقل ودموعى فى الليل » ٠٠٠

يثبت عينيه فى عينيك المغمضتين على الحلم النائم فى فرش اليتم :

ـ بلسانى تنطق يا ولدى ، وبشعرى الباكى تتكلم •

ـ انى أتعذب يا شيخى الطيب ٠٠

ـ فليغفر لى الله عذابك يا ولدى •

ـ أنا بين يديك صريع يا حلاج • قتلتنى كف العصر الدموية ، داستنى قدم العصر الهمجية ، لدغتنى بالسم أفاعى النيات المطوية ، ألعاب الزامر والحاوى بالكلمات القدسية ـ

ـ قدس ربى كلماتك ورعاها كالورد ندية • كنت بسالف أيامى قد قتلتنى الكلمات ، ورأيت الدنيا مخلوقا بشعا شوهه الظلم وعذبه الفقر البائم فى الطرقات ، وتخليت عن السر فبحت وصحت ٠٠

ـ أنا أيضا قتلتنى كلمات تنزف كجراح • عجز لسانى عن الجام السر الجامح فانطلق وباح •

ـ قل يا ولدى ، وانفض سرك وتكلم • ما أحلى أن نتكاشف بالأسرار ونحلم •

ـ كنت أحدثهم بحديث القلب • لم يستطع الكتمان فباح • وسقطت بقاع الجب •

ـ مثلك لا يسقط أبدا يا ولدى • قد تسقط شجرة جسدك أو يهوى غصنك • لكن تبقى ثمرة فكرك ، يبقى لحنك • ألم تقل على لسانى : « كان من يقتلنى محقق مشيئتى ، ومنفذ ارادة الرحمن ، لأنه يصوغ من تراب رجل فان ، أسطورة وحكمة وفكرة ؟ » •

ـ أو حتم كان علينا أن نقتل ؟ أن ينهال الكذبة بفئوس الحقد على شجرتنا فتميل وتذبل ؟

ـ يقتل كل الشعراء بكل بلاد الله • يقتلهم حقد الحطابين الفقراء ، المحرومين من الموهبة السفهاء •

ـ خوضت طويلا فى طرقات الله•والآن يعض الطير الأسود حبة قلبى ، أو لست تراه ؟ ها هو ذا يضرب بجناحيه ، ينشر ظل الموت ، يسدد سيف الرعب فآه ••

ـ لا يخشى الموت سوى الموتى • قم فالناس « عطاش لترويهم من ماء الكلمات • جوعى لتطاعمهم من أثمــار الحكمة ، ظمأى لتنــادمهم بكئوس الشوق الى العرس الربانى » ، قم واسكب كأس غناك يندى القلب بحلم نورانى ، قم يا ولدى •••

ـ آه يا يا شــيخى الطيب كيف أقوم وأمشى أو كيف أغنى ؟ أنا لا أملك حتى أن أفتح عينى •

ـ حاول يا ولدى •• حاول •

ـ تتخلى عنى القوة ، يسرى الشلل بأطرافى ، يهوى شعرى كالملح البارد فى أعضائى ، يخذلنى نهر حياتى ودمائى ، يجفو وقدة صحرائى •

ـ هيا يا ولدى نسعى فى طرقات الله ، فالفقر يعربد فى الطرقات ، يذل رقابا وجباه ، « والمسجونون المصفودون يسوقهمو شرطى مذهوب اللب . قد أشرع فى يده سوطا لا يعرف من فى يده قد وضعه ، ورجال

ونساء قد فقدوا الحرية ، تخذتهم أرباب من دون الله عبيدا سخريا · قم فالشر استولى في ملكوت الله » ·

ـ الشر قديم في الكون · أو لم تعرف هذا يا حلاج ؟ أو لم يشهد دمك الطاهر طغيان الشر على الخير ، ألم تلحظه لحظ العين ؟ الشر قديم متجدد · في كل زمان ومكان يكتسب جنودا ويعربد · لكن الشعر فراش محزون مجهد · يجذبه النور فيحرق بالنار ويجلد ، يسقط كعجوز محتضر مقعد ، ياكم حاول شعري أن يصنع من نار العالم نورا يأتلق ويسعد ، حتى احترق وصار بلون الفحم الأسود ، صارت كلماتي شوكا في الصدر ودمعا في العين تجمد ـ هل خبت وخابت كلماتي ؟

ـ كلماتك ما خابت أبدا فتشجع ـ « وستأتي آذان تتأمل اذ تسمع ، تتحدر منها كلماتك في القلب ، وقلوب تصنع من ألفاظك قدرة ، وتشد بها عصب الأذرع ، ومواكب تمشي نحو النور ولا ترجع ، الا أن تسقى بلعاب الشمس ، روح الانسان المقهور الموجع » ·· كلماتك ··

ـ كلماتي ·· كلماتي ·· هل تقدر أن تنقذني من هذا المستنقع ؟ هل تقوى أن تسحبني من شعري أو من شعري الغارق في الدمع ؟ آه لو كانت كفا تحصد أو تزرع ، تبني أو تهدم أو تردع ··

ـ كلماتك تنحدر الى الناس ، تحدثهم عن رغبة ربي : « الله قوي يا أبناء الله ، كونوا مثله ، الله فعول يا أبناء الله ، كونوا مثله » ···

ـ يا شيخي الطيب · «في عصر ملتاث ، قاس وضنين ، لن يصنع ربي خارقة أو معجزة ، كي ينقذ جيلا من هلكى ، قد ماتوا قبل الموت » ··

ـ الموت علينا مقدور ، لكن كلماتك يا ولدي حية · صنعت مني أسطورة رجل فان ، رجل ظمآن يروي عطش الناس لنور العدل الباهر والايمان ، كم أحييت من الأرواح بسر الكلمات ، وبعثت الحلم مسيحا يحيي الأموات ، وغدا يتفتق منها فجر الحرية ·· أنظر فالنور ···

ـ النور شحيح يا شيخي ، والفجر على الأفق مقيد ··

ـ النور سيأتي يا ولدي ، وغدا ··

ـ كم عشت على أمل الغد ··

ـ الفجر قريب يا ولدي ، لن تخطىء طلعته الموعد ··

ـ يا شيخي مهلا لا تسرف ، فالليل على الكون تمدد ···

ـ الفجر سيولد في الغد · وسيزهو بمدائن ربي ، ويتم الموعد والوعد ··

بسمته تشرق كالرؤيا وتطوف على الوجه المتعب ، كالبرق النافذ مجروحا ، من ثوب الظلمة والسـحب لا تخطىء عينك دمعته ، تتحدر كالطفل الميت ، تتلوى بالألم وتسـكت · ترمقه ، تشرب دمعته **وتحول عينك للسيد :**

ـ هل يأتى حقا يا سيد ؟

تتفرج أسارير الوجه الفرعونى المتصلب ، ويطل الصوت المرهق كابتسامة أبى الهول : لابد سيأتى ··· لابد ·

تطوف عيناك بين الوجهين ، لا تدرى أيهما تصدق · تسحب كلمتك كمجداف تاه على لجج الوحشة وتمزق : والطير الأسود ؟ ها هو يتمدد فى جنبى ، والظل على قلبى يرقد · ساعدنى يا شيخى الطيب ، هات ذراعك مد يديك وحاول أن تطرده يا سيد ·

يأتى الصوت ولا تدرى من أين يجىء : الطير الأسود سيحلق فى الجو ويبعد ، وقريبا يسبق نذر العاصفة ويرعد ·

تعض على شفتيك ، على طرف مخدتك ، على السر الموجع كالسيف المسنون الحد :

ـ يا طيرى الأسود · يا طير الرعد · يا طير الغد · هل جـاء الموعد ؟ ما زلت ترفرف بجناحيك وتنقر حبة كبدى · أتعد الزاد لسفر يوغل فى البعد ؟ خذ ما شئت وغادر عشك فى جسدى · خلص نفسك من قيدك لتخلصنى من قيدى · ماذا أفعل ؟ قل لى يا شيخى الطيب ، مرنى يا سيد · ماذا أفعل ؟ يزداد الحمل على ولا أتحمل · يا شيخى قـل ··

يدنو منك · يتعثر فى أغلال الساقين وقيد القلب المثقل · يحنو فوقك ويفيض على عينيك من النور الأكمل :

ـ تسألنى ماذا نفعل ؟ نلقى بذرتنا فى أرض البشر ونرحل · هيا يا ولدى ··

تعض ·· تعض وتفتح شفتيك فتخرج نسمة : أدركنى يا مولاى وخذ بيدى ··

بريق النور بعينيك وتشرب اكسيرة · تتكسر تمتعة الشفتين على شفتك ويشع رنين البلور على البلورة ·

ترقص آيات الله وتجرى وتحوم حولك كفراشات مذعورة :

ـ هيـا يا ولدى .. هات يديك .. اتبعنى .. يا أحبـاب الله الفقراء .. ليسكب كل منكم دمعة حب ووفاء ، ويرقرقها فى كأس القلب المتعب اكسير حياة ودواء .. هيا .. هيا .. ثبت قلبك يا محبوبى .. واتبعنى فوق الدرب تباركك دروبى . يا شهداء العالم هذا شاهد مأساتى وشهيدى . هل نحرم هذ العالم من روح شهيد ؟ .. هيا .. خذ بيدى وغن نشيدى .. هيا .. هيا ..

***

١٤

تطفو فوق الموج . تحس برودة ماء البحر على جلدك فى أطرافك . تتساقط قطرات من كهف الابطين وغابات الصدر . تتذكر أنك كنت بقاع البحر تخوض فى حقل المرجان وتلعب مع أسماك الذاكرة وتجرى خلف عرائسها الذهبية . تذكر أبياتا من شعرك كعيون واسعة ظلت ترمقك وفى حدقتها الدمع وتنسدل عليها خصل الشعر الفضية وجدائله الشقراء العسلية . تمسـك شبكتك بعين منها تتألق بالنـور فتهتف وتقول : ربى ... ما هذا النور .. تبدو كالطلسم المسحور ، يلقيه الموج الليلى الى الصياد المقهور ، ان وافاه الرزق ... تأخذ نفسا عميقا وتشعر أنك تصعد ، تصعد على سلم الضفائر الطوال الى شرفة زرقاء فى أفق أزرق وتطل على الموج الأزرق ، لكن الأسماك الماكرة توارت فى بئر الليل ، وعرائسه الذهبية لجأت للكهف السرى ، ودموع العين السحرية ذابت فى ملح القاع . تأخذ نفسا آخر عميقا وتشرب الزرقة فينسكب الصفاء فى صدرك وجوفك وترف فراشاته الزرقاء حول رأسك وشعرك . تنتفض فجأة وتهتز ، تنتبه لألم الخرطوم المغروز فى فمك وتنظر حولك : ما زال الليل هو الليل ، والعالم جهم لا زال . الطبيبان فى مكانهما محنيان عليك ، تتفرس فى وجهيهما فلا ترى غير بياض ، تنظر للسقف بياض ، للجدران بياض ، والأشباح العابرة بياض يسبح فى بحر بياض . ربى ما هذا النور ؟ هل أشرق وجـه الغد ؟ هـل لاحت أبراج المـدن النورانية ؟ أين النجمان على كفهما ميزان العدل وطير الحرية ؟ تفكر أن تدعو أصحاب السفر وتسأل أين الحلاج ، وأين السيد ومسافر ليـل وأميرة أحلامى المرة أين ؟ هل حملتها المركبة الى قصر الورد وهل تتطلع من شرفته للأتباع وللحاشية الملكية ؟

ربى ما هذا النور ؟ تتعلق بجناح الزرقة ، تسبح فى بحر الصفو الأزرق ، تسأل هل هذا طير الحرية ؟ آه لو يحملنى طير الحرية ، لو يبعدنى

عن أرض البشر الطينية ، أو يرميني في بحر الأبـــدية ٠٠ روحي تطفو فوق البرزخ بين الأزل وبين الأبد أحزان القلب مصــابيح تتــألق فوق الدرب وتأخذ بيدى ٠ أخرج من شرنقة العمر المقهور ، تطـير فراشــة روحي نحو النبع المستور ، لتذوب بسر الأسرار ونور النور ٠ وحدى الليلة وحدى أحتفل بليلة ميلادى ، لا الحلاج يعين ولا السيد فى الأفق ينادي ، هل حان الآن أوان رقادى ؟ كأسي ممتلىء ، لازال وفيه بقيــة انشاد ، وفمى صادى ، لازالت تشتعل النار ولكن تحت رمادى (١٠) ، أتمنى ٠٠ ماذا أتمنى ؟٠٠ قبل رجوعى للمهد وقبل سقوطى فى اللحد ؟ أتمنى ٠٠ ماذا أتمنى ؟٠٠ آه ضاعت أمنيتى وتبخر وعدى ٠

أبحر فى ذاكرة الأشياء وأتحـد بقلب الأشــياء ٠ لكن ذاكـرتى جرداء ٠ وانائى امتلأ وفاض وأفرغ مما فيه فصرت فراغا وفضاء ٠ راهنت على الفرس الجامح شأنى شأن صحاب العمر ، وبكينا وتعذبنا من أجـل عيونك يامصر ٠ من أجل الضحكة نرقبها فوق الوجه المغبر ، ياما ذرفنا الدمع ونمنا فوق سرير السهد نعاين طلعة فجر حر ٠ حتى هجم تتــار العصر ونزعـوا عين الخضرة والبســمة والسر ٠ آه يافــرسان العصر ! أعترف بأنى يافرسان العصر ، يافرسان الموت المصفر ، أكرهكم من قلب عشش فيه غراب الحزن المر ٠ كسرت أجنحتى ــ هل تقدر أجنحة فراش الشعر ، أن توقف زحف جراد القهر ؟

ياما فكرت وكم سطرت ٠ هل تبقى الكلمة بعدى أم يبقى الصمت؟ ياللكابوس ! خدر ملعـون يهبط من رأسى حتى قدمى ٠ انى أنهــار ، أتخلخل مقرورا كالجبل الثلجى وأتفتت كالأحجار ، عينى يجلدها النور ، القدر المثلى برأسى يلتف يدور ، ذاكرتى تتخلى عنى ، شعرى يتخلى عنى، ينحسر كظل عجوز هرم مقهور ٠ خذ بيدى ياأنت ٠٠ وأنت ٠٠ وأنت ٠٠ ماهذا الليل الأسود فوقى تحتى حولى ، فى الجو حريق مسود والظلمة تغلى ، أين صفاء الأفق ، صفاء البحر ، صفاء الموج وكيف تحوم أجنحة سود حولى ؟ أين سفينى ، ساريتى ، أين شراعى مجدافى هل تغرق مثلى ؟ هل خرج الطير الأسود من جنبى ، صعد فى الجو ، وهجم على ، أيبغى قتلى ؟ أبعده يا حلاج ، اطرده يا سيدى القادم بعدى ، واحم الشاعر من عضته يا شعرى ٠ آه يخذلنى الكل وأرتعش وحيدا فى ريح الصمت وبرد الليل ٠ يخذلنى الكل ولا يبقى الا الصمت ٠ الصمت ٠ الصمت ٠ أين رفيقة دربى، أين عيونك يا مى ؟ يا معتزة ان وحوش الليل تغير على٠الى الى٠أين صحاب العمر الضائع كزجــاج مكسور ٠ «أنا وقت مفقود بين الوقتين ٠ عمر مفقود بين الماضى والمستقبل» ٠ أنتظر القادم ، أنتظر وأنتظر ، فهل يأتى الآن ليأخذنى أم يأتى بعدى ؟ أنتظر وأنتظر ولاشىء يعين ولا أحـد يعين

ولايجدى · أفتح عين الشعر المحمرة فى سردابى ــ تفتح وردته المحترقة عينا تنزف بعذابى ــ «قد كنت عطرا نائما فى وردتك ــ لم انسكبت ؟ ودرة مكنونة فى بحرها ــ لم انكشفت » ؟ تهوى الوردة فى قاع البحر ، يلتهم الدرة فك التنين · التنين التنين التنين · ياأصحاب العمر الى الى ·

ياأحمد يافاروق وعبد الواحد ياعبد الرحمن وعز الدين (١١) أغرق فى بحر الحكمة ، أطفو أغرق أبلع أمــواج الملح وملح الأمــواج وأنكفىء وأتقيأ أرتعش وأختنق وأغرق أين الحكماء وأين حكيم (١٢) ؟ أبحث عنك « ياوردة الصقيع · أبحث عنك فى البحــار فى القفــار فى حــدائق الأطفال فى المقابر » · ياوردة الصقيع · ياوردة الصقيع · أبحث عنك « يا مدينة الرؤى المنيرة · مدينتى التى تمج ضوءا ، مدينتى التى تشرب ضوءا» ــ جنية المحال ياجنية المحال والجدائل الطوال · جدائل الضفائر الطوال والجميلة التى وفى بلادى الناس فى بلادى جارحون كالصــقور كالصقور جارحون طيبون طيبون مؤمنون بالقدر · وحين يلتقون بالسلام يلغطون جارحون طيبون كالصقور ، والطارق الملثم الشرير ، والأجدل المنهوم طارق المجهول للمصير من تحت اللثام وجه بوم ، أواه يامدينتى ، يامى لاتخافى ، والنجوم ياواحدتى النجوم ياحبيبتى ، والفه الحبيب حط فوقه الغيلان أعداء الحياة لاتخافى ، وضع النطع على السـكة والغيلان والسكة والرأس الوديع ، قريتى ياقريتى واحسرتى لم تأتدم هجم التتار واحسرتى الا الدموع والخيل تصهل قريتى أماه ياأماه قولى للصغار للصغار والتتار والدمار لن نبيد للصغار ، حبيبتى زهران والحياة فى مشارف الخمسين جارحون والصقور والصخور والحــلاج ياوردة الصقيع ياأميرتى وسيدى ياسيدى قد انسكبت كنت عطرا درة وهل يساوى ليتها ياليتها أغــلى من العيون والعيــون ليتها ياعنترة ياعنترة وفى انكســار والطبول والعيون والدمار ياأماه والصغار ليتها حبيبتى يامى ياحبيبتى فى هدأة السكوت كى أموت للغــريب أن يــؤوب أن يغيب للشــعاع واغتمضت اننى أسقيتنى أعض بالأسرار ياأماه ياحبيبتى الصغار للصغار نجمتى يانجمى الوحيدى أوحدى حبيبتى قولى لهم صغار والعيون ياصغار قد سلمت ، ربما وربما فقيرة خزائنى حقــول حنطتى مقفرة أسقيتنى أسقيتنى يارب اننى أحببتها أعض اننى اختنقت بالأسرار اننى أحببتكم والعــالم الذى أريده حبيبتى أغــلى من العيــون ليتها أحببتكم وطيبون كالصقور جارحون قلبهم كاللؤلؤة ، وكاليتيم ليتها من العيون انها ·· أغلى من العيون موحش يولد فيه الرعب والنجوم بالنجمين وضائين سيدى ياسيدى النور والحرية التى أقول ما الذى لكم أقــول الملك لك الملك لك أسقيتنى والنور لك والحب والعيون ، والناس جارحون أين الموت أين

الموت فى بلادى فادح هذا المساء مدلى رباه يارباه حبل العدل داونى وفى المدائن التى والعدل انها ـ خلصتنى ـ خلصتنى بالعدل والحرية العيون فى غد تولد نفسى من جديد والغـد الذى فى الفجـر ياحبيبتى بالعدل يارفاقى طيبون العدل عادل وعادل والعدل ليتها والعدل والحرية ٠٠٠

***

١٥

يهوى يرتطم بقاع الجب وتعلو الدوامة ٠ تصدم المفاجأة وجه الطبيب فيرفع يده عن الجهاز ، يحنى رأسه ويرفع يده ويرسم علامة الصليب ٠ يدلهم وجه الطبيب الآخر ويقبل نحوك ، ينظر فى وجهك وتتمتم شفتاه ويرفع كفيه أمام وجهه ٠ تجرى الممرضة وتصطدم بالأنابيب النحاسية وتجهش بالبكاء ٠ لايبقى الا الصمت وقطرات دموع تسقط فيه ٠

***

تختلج فراشات الحزن الأبدى ، تحوم فى سقف الغرفة ثم تحط على صدرك ٠ ترف عين الطبيب ويرفع وجهه ثم يخفضه ويصلب ٠ ترف عين الطبيب النحيل وراء النظارة السميكة وتتمتم شفتاه ٠ ترف عين الممرضة الصغيرة التى جلست على الكرسى بجـانب السرير وتبحث عن منديلها الوردى ٠ وتطل العذراء المكتئبة من خلف زجاج النافذة وتنسكب أشعة وجه نورانى من أكفان سحابة ٠ **تدمع عيناها تدمع تدمع وتقول :**

الليلة تولد فى القبر كما ولد يسوع

تبتسم كأنك يا شاعر فى المهد رضيع

وتقبل مريم عينيك وفى العـين دموع

تتقدم نحوك طيفا يتجول فى بستان الموتى ٠ تتعطف عليك تقبل نور جبينك ٠ تسقط دمعتها فوق الخد الناصع كالورد ٠

ترف فراشة كل الأحزان ٠ ينهض من سافر فى الليل طويلا ثم تكوم في ركن الغرفة ، يخطو نحوك كالصنم الذاهل يتعثر فى حفر الصمت٠ يقف أمامك ويتمتم كالأخرس فك القيد وحل العقدة وتحدى الموت ٠ **ما زال يتمتم ويقول :**

أنطقت لساني يا مولاى الشاعر بعد دهور الصمت

فتحت العين على عشرى الستره وجنوده

الآن أعود الى الأسواق وأسعى فى رزق البيت

وأمد يرى لمطر العدل القادم ووعوده

يذرع أرض الغرفة محتقن الوجـه سريع الخطو غضوبا كالأسـد الثائر فى الأقفاص · يتقدم منك كبطل مهزوم يسقط فى الفخ وينهض يضرب جدران السجن ، العالم يصرخ يحلم بالنصر المحتوم · يتدلى الحزن القاتم من وجه فرعونى صارم · **يرفع يده ويشير يحركها الغضب الأزلى المحبوس · يدمدم ويثور :**

فى وجهك ألمح فجر اليوم المنتظر

وأبارك وجه السيد يأتى كالقدر

النجم يشير اليك : تعال ، سأكشف سرى

والأمل يطل من الظلمة كالطفل الضاحك كالقمر

من مثلك يغنى ويخلد فى نفس الوقت

قد ذهب الضيف وزال الخوف الآن عرفت :

ما بقى الشعر ومن يشعر فستبقى أبدا من أنت

وسيحيا سر الكلمات وتحيا أسرار الصمت

يخفق جناحا الفراشة وتهيم هنا وهناك باحثة عن منفذ · بدأ شعاع الفجر يطل ، يفتح عينا والعين الأخرى مغمضة فى حضن الليل · يصطدم جناحا الفراشة ورأسها الدقيق بالجدران والستائر ومقابض النافذة · تسقط ، تتعثر ، يجذبها النور المصنوع تحوم بعيدا عنه ، تسقط فى مستنقع أحزان العالم ، من يشعر بعذاب فراشة ؟ يشير الطبيب ذو الوجه الأبيض الى المرضة فتجفف عينيها المحمرتين بمنديلها الوردى وسحب الملاءة البيضاء من تحت قدميك وتغطيك · يتجه الطبيبان الى الباب ، تتوقف المرضة أمامك وتمسح بيديها دمعة بللت طرف الملاءة · يخرجون ويغلقون الباب · تبقى فى الصمت وحيدا ، تبقى وحدك · يتقدم منك الشيخ صغيرا كخيال الظل البائس هرب من الجمهور الأرضى اليك · يتعثر فى أغلال القدمين وفى قيد الكفين · ما زالت بقع الدم على ذقنه ، ما زالت تلمع كعيون الرعب المحمرة فوق الثوب ، ما زالت كزهور الجرح النازف فى شجرته الدموية · يخطو نحوك ، يكشف بأنامله المرتعشة وجهك ، **ينظر فى المرآة يسبح يدعو ويتمتم :**

يا شاهد موتى وشهيدى
من فى الدنيا سيعوضنا عن شاعر ؟
قم يا ولدى لنسافر فالعالم كافر
يا صاحب دربى وحبيبى ..
فلنصعد للنور الصافى
ولنرجع برقا وسحابا
أمطارا للقلب الجافى

يسحب الملاءة على وجهك ويتمتم ، يحاول أن يمسح وجهه فيصلصل القيد . يسطع نور فى عينيه الشاحبتين ويهمس :

« يا صاحبى وحبيبى – هل يساوى العالم الذى وهبته دمك ، هذا الذى وهبت » ؟

***

« تعود كى تنام فى حضن التراب ، تراب جدنا وأهلنا تنام ، تنام فى سلام » .

***

« وقالت لك الأرض : الملك لك ،
تموت الظلال ويحيا الوهج ،
الملك لك ... الملك لك » .
« الانسان الانسان عبر »

***

« ومات ذلك الوديع دونما احتفال ، معلما ورائدا فى سنة الكمال » .

***

« ومن موته انبثقت صحوتى
وأدركت يا فتنتى أننا
كبار على الأرض لا تحتها » .

***

« اننا الأغراب فى القفر الكبير
اننا ضقنا وضاقت روحنا
القطيع ،
غاب راعيه وطالت رحلته
وهو فى بيداء لا ظل بها » ٠

***

أبكى سهما أخطأ هدفه
ليلا من غير صباح
أبكى أول طير مات على الغصن
آه أيتها القيثارة
يا قلبا جرح عميقا بسيوف خمسة (١٣) ٠

***

فى الخلاء المواجه للقبر
تجلس سـيدة هى مصر
تداعب أطفالها الشعراء بغصن من الكلمات الندية
تقرأ وجه حصان يسافر فى الحلم
وجه فتى شقه سفر الليل
أيقظ فى قاعه حفرتين مبللتين بنار من الدمع
محشوتين برعب البشر ٠

***

واحـر قلبـاه :
كل المصابيح ترحل نازفة
ترحل الخيل ٠٠ والليل يبقى
يرحل السيف ٠٠ والبيد تبقى
يرحل الشاعر ـ الكلمات
ويبقى البكاء ـ الخديعة (١٤) ٠

***

نهر أنت يسارع نحو مصبه ، صوفى عجلان الخطو الى ربه ، صارعت الموج صراع البطل البائس ، لم تظفر الا بنصيب الملاح البائس ، لكنك عشت وجربت النشوة فى الابداع ، وكتبت شهادة ميلاد القادم من رحم الأيام الحبلى بالأوجاع ، جاء ـ وما كنا ننتظر بهذى السرعة ، لم نتحسب وقع خطاه البشعة · عشت الفن ، عرفت ، رأيت وألقيت بنفسك فى النار ، لم تتركنا بعدك زادا لجراد العصر الجرار ، ريشا فى وجه السيل الزاحف بالمجد أو العار · يا ربان سفينتنا الغارقة تركت الدفة للتيار ، هل يجرفنا الموج الجارف بعدك أم نصمد للاعصار ؟

***

ضاقت كأس القلب المثقل عن فيض البحر ، فتحطم وتحطمنا معه وانداحت فى الرمل الغادر روح الخمر ، والمصباح انطفأ وما طلع الفجر ، وا حسرة ليل يجمعنى ورفاق العمر ···

***

حزنك ·· ماذا أكتب عن حزنك ؟ أين الكلمات تعبر عما يجرحنى في عينيك ؟ خرس كل لغات الأرض ولا تفصح عن سر عذابك أو شجنك· تبصر ما لا نبصر ، تسمع ما لا نسمع ، لو كنا نعلم ما تعلم ، لأمتنـا الضحك على الفم ، وبكينا ما شاء الدمع على القدر المفجع ·

***

الشعر ملاذك ، بل منفاك الموعود ، وطنك فى غربتك على أرض الوطن المنكود ، أمك وأبوك وصاحبك الأوحد ، يتخلى أحيانا عنك ولكن لا يجفوك . يهرب أياما أو أعواما ثم يعود يعقد الحرف المنضود ، تعصف حولك ريح الزيف ، تتكسر على صخر الرغبة والخوف ، يتغضن وجـه الزمن السيىء بالغلظة والارهاب ، تنطفىء قناديل البهجة فالليل خواء وخراب . لكن الشعر يجىء اليك فيمسح فوق الرأس المتعب ، وترفرف أجنحة الطير الوافد من بار ناس والأوليمب ونجد ويترب ، فتردد قيثارتك أنين الجرح ونبض القلب ·

بعد شهور الوحشة والبعد يعود اليك الصوت الشارد فى الصحراء . بعد التيه اللاغب فى نثر الأيام المتشابهة يزورك طيف ملاكك ذى المنقار الذهبى رقيقا كالعذراء ، يكتب آخر بيت فى شعر الزمن المقتول ·

يكفيك من عناء الرحلة الوصول ، وأن نفسك التى تعذبت وجربت تغير الوجوه والفصول ، قد أشرقت بنورها ونحن لا نزال فى غيـاهب الغروب والأفول ···

***

عشت حياتك تتأمل معنى الموت وتحياه كما فعل حبيبك أفلاطون ، تلمس زحف الأفعى فى جسد الكون المحبوب الملعون ، زحف الدودة فى أصل الشجرة ، وأخذت تمد الكفين وتقطف منها الثمرة · لا ليس الكل بباطل ، ليس كقبض الريح ، كذب سليمان ووقع « المازنى » فى هاوية اليأس يئن أنين جريح · أحببت حياتك وحياة الناس ، كل حياتك لحظة صدق ، لحظة احساس ، وقضيت سنيك الخمسين على مسرح هذا العالم تتعثر ، تسقط ، تنهض ، تصرخ من أعماق الدهشة والألم القاسى : كونى يا نفسى من أنت ، وطنى هو هذا الوطن وأرضى هى هذى الأرض ، وهنا أقف وأتعذب ، وأثور وأرفض ، أبكى وأضحك ، أهتف أحيانا قد سلمت وتعرونى رعشة ألم عذب وممض جربت جحيم العالم ، ذقت نعيمه ، حتى امتلأت كأسى واستغنيت وأتممت ، فاذا جاء الموت ووضع على رأسى التاج تبسمت ، وهتفت تعال وخذ ثمرتك فقد شيبها طول الحزن على شجرة الليل وشـــبت ، وينادى : أنت الحى الأوحد بين الأموات فما أبعدك عن الموت !

***

ما جدوى العيش ؟ ما جدوى الحب ؟ ما جدوى الفن ؟ ماذا أفعل ماذا أفعل ؟ أنا لا أملك الا الكلمة والكلمة تســقط تحت حــذاء الرخ المغرور ، تسقط كالطير ذبيحا تحت عيون الشعب المقهور · ماذا أفعل والسيف الأعمى لا يبصر ، والكلمة حقل مهجور مقفر ، ومثقف هذا العصر يدنسها ، يعبث بجناحيها ، يكسوها أقنعة زاهية كحواة السيرك ويفقأ عينيها كالطفل المأفون ، يحشدها بالفرقعة وبالجعجعة كالبالون ، ويظل سؤالك عطشان فهل يرويه الحلاج بدمه والمجنون ؟

***

نحن صحابك ورفاق طريقك : هل أخطأنا فى حقك خطأ الصوفية والفقراء مع الحلاج ؟ هل أحببنا كلماتك أكثر مما أحببناك ، فتركناك تموت لتحيا كلماتك ؟ لم نفهم أن اللفظة حجر واللفظ منية ، أن الكلمات مسيخ يحيى الموتى أو مسخ وبغى تلد الموت · يا جرح العمر أجبنى ، قل لى : أرجوك الصمت ·· ضقت بأحوالى ضقت ، بليالى وأيامى المختنقة فى سحب الكلمة ضقت · فى كل مساء أنوى أن أهوى فى قاع الصمت، أن أتوحد بالصوت الهاتف من أعماقى ، من أعماق الأرض بلا صوت ، أن أجمع أشلاء العمر المتفتت فى لحظة صدق أو حتى لحظة صمت ، ثم تطل عيون تستدرجنى للكلمة ، والكلمة موت ، آه ضقت بكلماتى وبصمتى ضقت ·

عشنا فى الألفاظ الجوفاء سنين ، نأكل نشرب نتجشأ ألفاظا ، حتى صرنا ألفاظا تقتات على جثث الباطل والبهتان · هل نتعلم من درس حياتك أن نقتصد قليلا فى الألفاظ ؟ أن الكلمة ان لم تهد الى درب الفعل، تصبح طبلا فى كف أصم ولعبة طفل ؟ حقا كنا الأسياد وحقا كنا ، لما كان لما نلفظ معنى ، لما كانت كلمات العرب تحرك جيشا وتسير سفنا ، وتشيد علما أو تصنع فنا — حتى غصنا ، ساخت أرجلنا فى المستنقع وغرقنا · « ربى ! كيف ترعرع فى وادينا الطيب ، هذا القدر من السفلة والأوغـاد » ؟

كى يعطى الكلمة معناها — اختار الحلاج الموت

كى تعطى الكلمة معناها — يا شاهد هذا العصر استشهدت

فمتى يتعلم صناع الكامة منك ؟

ومتى يصبح صنع الكلمة تضحية حتى الموت ؟

كيف نحول كلماتك أفعالا تمطر بالخير ؟ ماذا نفعل كى لا نترك شبح الفقر يعربد فى الطرقات ويفجر ؟ — مد الينا كفك ، أدفئنا من أنفاسك ، لا تحرمنا صوتك واشاراتك . واسأل ربك أن يلهمنا قول الحق ، ويؤيدنا — حبا فيك — بروح الصدق · ألهمنا أن نخلع ثوب الألفاظ ونخرج للناس كما خرج الحلاج وسقراط ، أن نصهرها فى نار الغضـب ونغمسها فى خبز الفقراء ، فلعل الرقبـة تنجو من مشنقة الاحباط — ألهمنا ، علمنا ، لا تحرمنا صوتك حتى نجلد ظهر الأحياء — الموتى بسياط وسياط ، حتى نحلو فى عينيك ونبصر أنفسنا فى مرآتك، فى مرآة الشعب ومرآة الله ···

***

كيف رحلت يا أعز الراحلين ؟

متى تعود للقاء والحديث ذو شجون ؟ ان كان فى الموت العزاء فلأكن اليك أول المسافرين ·

***

يا كم دعوتنى الحكيم ودعوتنى المسيح ، كم مسحت كفاك جرح قلبى الجريح ، وأدركت عينـاك أننى مقيـد كسيح ، كأننى كالمشلول لا أعيش لا أموت لا ألوذ بالكتمان لا أبوح · غرقت فى بحار علمى العقيم عطت جنتى المتون والشروح ، وكم طرقت باب حبك الكبير ، وكم طعمت يا أمير من مائدة السرور ، وعدت فى الجراب كسرة لقلبى الكسير ، وقطرة تبل غلتى فى وهج الهجير · وكنت ثم كنت يا صديق ، ولم أزل كجثة

الغريق ، مطفأة العيــون في كهوف حكمتي العقيمــة الدروب والجحور والشقوق ، أبحث عن حقيقة تلوح ثم تنطفىء كأنها البروق ، أبحث عن طريق ، ومن فؤادك الذى رأيت فيه الله والانسان يبدأ الطريق ــ فهل تراني بعد ما رحلت أبصر الطريق ؟

***

بدموعي تمتلىء العين ولا أجد عزاء . يتسلل شيطان القلق لفرشي كل مساء ، يحضنني ، يغرز قرنيه بعنقي ، يوحي ما يوحي من أسرار الحمقى والحكماء ، فمتى أنجز وعدى لك يا خير أحبائى ؟ أمسكت بحبل الصمت الممدود فلم يسقط ثمرى الموعود ، وتعثرت على درب الكلمــة والدرب قيود وسدود · جفت سحبي وتسرب مائى فى الأخدود ــ يا روح حبيب العمر المفقود ، باركني وامسح بيديك على رأسى المكدود ، فلعل المطر يعود ــ لعل المطر يعود ··

***

كيف أصدق ؟

الرفاق يتلقون العزاء · أحضنهم ويبتل وجهى بدموعهم · فاروق يعانقني وتنداح المرارة الى فمي وقلبي مشلول مغلول مذهول · عبد الرحمن ينشج فى ركن وحيد ، عيناه دموع تتحدر كالشلال ·

النعش يقتحم الصفوف كالبطل المأسور ، تسنده أكتاف الأحباب وأيديهم · الفجيعة على الوجوه التى ترفض التسليم · يا أيها الراكض الى أين ؟ أهى دعابة جديدة ؟ أيمكن أن تكون جادا ؟ أطل برأسى النسر الجميل الجليل وأصرخ بملء صوتك المتهدج الجريح : ليس هذا عرسى ولا مأتمى· انصرفوا ·· انصرفوا ·· يا صوت ضميرى وضمير بلادى ، أخرج من هذا النعش وناد · أخرج لا تتمادى · أريد أن أداعبك · أسمع منك عجائب العباد والبلاد والأحوال · والزمن عجيب يلد الخرافات العجيبة ــ أهى خرافة جديدة ؟ هيا لا تسرف فى سخريتك · نادنى يا حكيم كما نفعل فى كل لقاء ، فالحكمة توجعك وتوجعنى فى زمن الحمق الأسود · أنثر ضحكاتك نمسح عنى وحل الرحلة ، أشعل مصباحك كى أجد طريقى فى ليل المحنة ، أدفىء قلبى الغارق فى ثلج الحكمة ، حرك صنمه ، ابعث فيه لعازر ، مــره أن ينفض نومه ، ويواجــه يومه · تعــال نغادر هذا المسرح ، هذا الوهم الأسود ، تعال بنا بعيدا لنثبت أن اللعبة وهم ، هذه الغربة وهؤلاء المشيعون وهم ، فحضورك هو الحقيقة الوحيدة الباقية بعد أن يشيع الميت وينصرف المثلون ــ تعال تعال فأنت حاضر لا تغيب ·

عين الشمس لا تزال تسطع ، الريح تتنفس ، الطيور ترفرف فى السماء ، الأطفال تولد فى كل لحظة والأشجار تنمو والعجائز يجرون أقدامهم ويسعلون ، الكتاب يفكرون فى عمود الصفحة الذى سيسودونه والشعراء يصطادون عصافير الكلمات السود ويستعدون — لم أنت وحدك ساكن هناك ؟ أ أنت الذى يحملون ؟ أم أنت الذى أحمله فى دمى وألقاه مساء اليوم حسب الموعد القديم ؟

لا لا لا . وهم . كذب . كابوس . أمشى فى كابوس الخمسين وأنت تطل على من الشرفة — شرفة مسكننا فى مقتبل العمر — تذكرنى بالعهد القائم والعهد أمين (١٥) . سيذهب الجميع ثم تسدل الستار .

وأنت أنت فوق الوهم والتمثيل . أنت حاضر ولن تغيب . كيف أقول كنت ، كيف أستطيع ؟ وأنت يا حبيب نبض القلب ، ومضة العيون ، وأنت — ما حييت — ساكن فى القلب والعيون ، وكائن ودائما تكون ؟ ...

يا صاحبى وحبيبى ....

« قد كنت عطرا نائما فى وردتك — لم انسكبت ؟

ودرة مكنونة فى بحرها — لم انكشفت ؟ »

وهل يساوى العالم الذى وهبته دمك — هذا الذى وهبت ؟

لا .. لا أقول قد رحلت بل أقول فى غد سنلتقى كما وعدت .

(١٩٨١)

هوامش وملاحظـات (*)

(١) كل ما بين فاصلتين صغيرتين من شعر صلاح عبد الصبور ، أما بقية السطور الشاحبة فهي مني : فراشات عاجزة تحاول أن تحوم في نوره وترفرف في سمائه . وهذه البكائية تفترض الاطلاع على مؤلفات الراحـل العزيز ، دواوينه لستة ومسرحياته الشـعرية الخمس وكتبه النثرية والنقدية - وخصوصا سيرة كفاحه مع الفن « حياتي في الشعر » - وهي محاولة لتقمص وجدان الشاعر واعادة بنائه وهو على طريق رحلته الأخيرة ، منذ أن غادر البيت الذى كان مدعوا اليه بعد شعوره بألم شديد في صدره حتى سقوطه في الغيبوبة . واذا لم يكن قد قدر لى أن أصحبه على هذا الطريق ، فقد صحبته على طريق العمر ، وعشت فرحه وجرحه في مئات الأيام والليالى التى عشتها معه . لا شك أن تفاصيل السفر الأخير هنا مختلفة عما جرت عليه في الواقع . ولكنني أسترجع الأحاسيس وأتابع خطى الحوار الباطن كما تصورتها من قراءتي لأعماله ومن واقع رحلة العمر لا من وقائع السفر الأخير .

(٢) هو بيت أبي العلاء المشهور :

وهل يأبق الانســان من ملك ربه
فيخــرج مــن أرض له وسماء

وطالما تمثل به العزيز المسافر ورده ، وكأنه الحكمة الأخيرة والكلمة النهائية في وجود الانسان . أما عن حبه الكبير رهين المحبسين فقد أكده في « حياتي في الشعر » وتمنى أن يتفرغ لكتاب يشرح فيه بعض أشعاره ويأخذ بيد القارىء للدخول في عالمه . واذا لم تخنى الذاكرة فقد نشر بالفعل فصلين منه في مجلتى « المجلة » و « الثقافة » المحتجبتين ، وبقى حبه وارتباطه بالثائر العظيم المهزوم أشبه بالحبل السرى الذى يربط الجنين بالأم والانسان بالأرض . ومن سوء حظنا أن مشروع هذا الكتاب لم يكتمل ، شأنه شأن عديد من المشروعات التى لم تر النور .

(٣) لم يعد سرا أن هؤلاء الأصدقاء الثلاثة هم على الترتيب : الشاعر الكبير أحمد عبد المعطى حجازى ، والشاعر المجدد أمل دنقل والناقد الجاد وأستاذ الأدب العربى جابر عصفور .

(*) تفضلت هيئة الكتاب بالقاهرة بنشر البكائية الى صلاح عبد الصبور في ذكراه الأولى (اغسطس ١٩٨٢) ولكنها لم تنشر هذا التعقيب الطويل الذى ظهر مع البكائية في عدد مجلة الآداب البيروتية (ديسمبر - يناير ١٩٨٢) ولهذا رأيت اعادة نشره في هـذه الطبعة .

(٤) من قصيدة للشاعرة اليونانية سافو . وكنت قد أهديت كتابى عنها (١٩٦٦) للراحل الحبيب ، وتفضل بمراجعته فى الصفحة الأدبية بجريدة الأهرام .

(٥) البيت لعبيد بن الأبرص .

(٦) مى ومعتزة هما ابنتا الشاعر الحبيبتان .

(٧) كانت جامعة كمبريدج قد وجهت الدعوة للشاعر ليحاضر فيها ، ولولا محنة لقمة العيش ولعنة البيروقراطية اللتان تلتهمان عمر المبدعين فى بلادنا لأتيحت له نعمة اللقاء بنفسه والبقاء أياما أو أسابيع فى جو العلم النقى والريف الهادىء والنفوس التى لم تفقد معنى الحب والاحتـرام .

(٨) مسرحية شعرية حدثنى الصديق المسافر مرتين أنه بدأها وكتب بعض مشاهد منها . وقد اطلعت بعد رحيله على حديث ذكر فيه أنه يعالج فيها مشكلة الأصالة والمعاصرة التى اشتعلت فى سنوات الهزيمة الأخـيرة وعسى أن تنشر هذه المشـاهد لنتأكد من جنـاية الروتين على الشعراء .

(٩) عنوان الذكريات التى دأبت مجلة « الدوحة » على نشرها فى الشهور الأخيرة وأرجو أن تظهر قريبا فى كتاب . وقد ذكرنى فيها وفى حياتى فى الشعر ــ كرما منه ومداعبة حلوة ــ وأشاد بقراءاتنا المشتركة لبعض شعراء الغرب ، وأشهد ان كل لحظة عشتها معه ونعمت فيهـا بحضوره وحبه قد كان لها كل الفضل على الى آخر نفس فى .

(١٠) السطور الأخيرة تنويعات على أبيات من قصيدة الشاعر مجاهد عبد المنعم مجاهد : الى صلاح عبد الصبور ، روحا حزينا كالناس فى بلادى ، مجلة الدوحة ، عدد أكتوبر ١٩٨١ ، ص ٥٠ .

(١١) مجموعة من أصحاب العزيز الحاضر الغائب وأصدقاء عمره : الشاعر الناقد وأستاذ الأدب العربى الدكتور أحمد كمال زكى ، الروائى ودارس الأدب الشعبى العربى فاروق خورشيد ، القاص والكاتب الاذاعى محمد عبد الواحد ، الروائى والكاتب المسرحى وكاتب الاذاعة عبد الرحمن فهمى ، الشـاعر والنـاقد وأسـتاذ الأدب العربى الدكتـور عز الدين اسماعيل .

(١٢) كان صديق العمر يداعبنى بهذه التسمية التى لا أستحقها .

(١٣) السطور الخمسة الأخيرة عن قصيدة « الجيتار » للوركا، وقد ذكرها في« حياتي في الشعر » ، وأضفيت عليها الايقاع ٠

(١٤) المقطوعتان الأخيرتان عن قصيدة « حدث في النصف الثاني من الليـل » وهي المرثية التي كتبها الشـاعر العربي الكبير من اليمن الدكتور عبد العزيز المقالح ونشرت في جريدة الثورة في صنعاء ٠

(١٥) أقمنا ـ صديق العمر وأنا ـ في مسكن واحد في حي المنيل وحي العجوزة بالقاهرة ما يقرب من السنتين (بين سنتي ١٩٥٦ و١٩٥٧) عندما انتقل الى مسكن آخر بالقرب من دار روز اليوسف التي انضم الى هيئـة تحريرها بعد استقالته من التـدريس ـ واتجهت أنا في منحة دراسية الى ألمانيا ـ واني لأطل الآن بكل الحب والعرفان على هذه الأيام التي عرفت فيها الانسان الكبير والمثقف العظيم وأعيشها كمـا أعيش غيرها حاضرا حيا الى آخر نبضة في القلب وومضة في العين ٠

خاتمـــة :

لا أجد تعبيرا عن حياة صلاح وكفاحه لمعرفة نفسه ومجتمعه وعالمه خيرا من كلمات « روسو » في مقاله المشهور عن الفنون والعلوم : انه لمنظر جميل وجليل أن نرى الانسان يرفع نفسه من العدم بجهده الخاص، ويبدد بنور عقله تلك الظلمات التي لفتـه بها الطبيعة (لنقل : تلك الظلمات التي لفت بها الحياة العربية ، في ليل الهزيمة والقهر والتخلف والثرثرة) ٠ انه ليرفع نفسه فوق نفسه ، وينفذ بروحه الى أطبـاق السماء ، وينطلق كالشمس بخطوات جبارة عبر الفضاء الشاسع للكون٠ أما الأمر الذي يبقى هو الأعظم والأصعب ، فهو أن يعود الى نفسه ليدرس الانسان ويعرف طبيعته وواجباته وغايته » ٠

ومع أن هذه العبارات العاطفية المتحمسة لا تصور عذاب صـلاح تصويرا دقيقا ، الا أنها تضع أيدينا على هذه الحقائق التي لا يدركها الا أصحاب طريقه وجرحه : لقد استطاع أن يرفع نفسه بارادته من العدم العربي المحيط به الى الوجود الشعري الذي يبدد هذا العدم ، ولو في لحظات الخلق المتاحة ٠ هذا الارتفاع فوق العدم الذي يغرق هو وزملاؤه المبدعون في مستنقعه كل يوم ـ قبل الابداع وبعده وفي أثنائه ـ قد مكنه في نفس الوقت من العلو فوق نفسه المحدودة والمقيدة في أغلال المكان والزمان وفوق الموقف الأدبي والتاريخي والاجتماعي والسياسي الذي يحاصره ٠ أما المناطق السماوية العلوية التي يذكرها النص فهي قصائده ومسرحياته وايقاعاته الشعرية وقراءاته ومشروعاته ـ أي البديل الفني

عن ذلك العدم الذى نختنق فيه ليل نهار • وفى النهاية يعود صلاح الانسان الى نفسه بعد أن ينطفىء وهج اللحظة وتهوى أجنحتها ، يعود لينعطف الى الداخل ويشتبك فى الصراع اليومى مع قبح الحياة اليومية كى يفحص طبيعته وواجباته وغايته •

هذه الحياة اليومية التى اختفت منها المحبة والتقدير والثقة والاحترام المتبادل ، وأصبحت لا تسمح بنمو حياة انسانية سليمة ، ناهيك عن حياة مبدعة ، وأتى على خضرتها جراد الكراهية والحقد والادعاء والثرثرة وعدم الاكتراث ـ هذه الحياة اليومية التى غطت وجهها الحجب والأقنعة الشائهة ، وظلت تمد حبال مشنقتها كل صباح ـ كيف لا يدينها ويسجل علامات التصدع والانهيار فى بيتها الآيل للسقوط ؟ كيف لا يفضح القردة والأفاعى والثعالب المتربصة وراء الأقنعة (بشر الحافى !) ؟ ـ غير أن الشاعر الذى يحاول أن ينتزع نفسه من مستنقع الخراب والبلاء ليعتصم بلحظات البراءة والنقاء (يا من يدلنى على طريق الضحكة البريئة والدمعة البريئة) هذا الشاعر الذى يجوس عاريا مكشوف القلب فى أسواق المدن الجاحدة المتبلدة الحس ـ يشتاق على الدوام الى مدينته المنيرة « التى ينام فيها الأبناء فى أحضان الأمهات ، مدينة الرؤى التى تشرب ضوءا وتمج ضوءا ، مدينة المستقبل التى كتب على المغتربين المحتجين منذ أفلاطون الى اليوم أن يحلموا بها وأن يتركوا العالم وهى جنين أسطورى فى بطن الغيب! ويظل النقاد المتفائلون يدينونه بحزنه ، ويطالبون بطرده من المدن السعيدة التى يقلق نومها دون أن يكلفوا أنفسهم بالسؤال : ومن المسئول عن هذا الحزن كله ؟! ـ هذه المدن المقنعة المغتربة عن نفسها ، كيف لا يباح للفنان أن يغترب عنها ؟ كيف لا يسمح له بأن يكون هو نفسه ويحقق هذا المثل القديم الذى تقوم عليه الحقيقة والأصالة ؟ أليس هذا هو دأب المفكرين والمبدعين فى كل زمان ومكان ؟ ألا نتحمل الخسارة الفادحة فى حاضرنا ومستقبلنا اذا حرمناهم من هذا الترف البائس الضئيل : أن يقولوا لنا « لا » ولأنفسهم والقيم الباقية « نعم » ؟ ولكن مجتمعاتنا التى اختلطت فيها القيم وجثم عليها كابوس القهر وعبيده لا تطيق هذا • انها تتربص بكل صوت صادق ، وتجدل مشنقة التعذيب لكل بادرة حياة • وهكذا يقع الابداع العارى من كل سند يحميه فريسة الكلاب التى تنهشه من كل ناحية : عبيد السلطة وخدمها وحشمها ، الثرثارين الكذبة من يمين ويسار ، البيروقراطيين زبانية الموت وسدنة الجمود والركود والتحجر ، أوباش العصر وجلاديه الجدد وطواويسه المزيفين الذين يجوسون بيننا كالكوارث ويبرعون فى رصف بيانات الادانة والاتهام قبل أن يتعلموا ألف باء الحب والعلم والفهم والاحترام (اذا فرغت جعبتهم الفارغة لم يعدموا

حربة يسددونها : شاعر مغترب عن مجتمعه ، غير ملتزم وغير تقدمى وميتافزيقى وصوفى ووجودى !) وبدلا من ضم صوتهم الى الأصوات الصادقة لرفع ركام الظلم ورواسب التخلف وأقنعة البطولة الكاذبة تراهم ينادون ـ كما نادى أفلاطون قديما بحسن نية أخلاقية ! بطرد الأصوات النقية التى تزعج أحلام المدن الغافية وفرسانها المهزومين ! هذا هو الأمر المحير فى حالتنا اليوم ، كأننا قد التصقنا بأقنعتنا فلا نقوى على انتزاعها لنتحسس وجوهنا الحقيقية ، كأننا نصنع أغلالنا بأيدينا ونحب أدوار عبوديتنا التى نؤديها بلا وعى ، ونكره أن نكون أنفسنا ونواجه واقعنا ونحيا فى النور والحوار والنتيجة هى هذه اللعنة التى عبر عنها طه حسين عندما قال اننا لا نعمل ولا نحب لغيرنا أن يعمل · فمتى نتعلم أن اليد التى تجرح هى اليد التى تشفى الجرح ، وان خلاصنا لن يتم الا بأيدينا ولن يتحقق الا بالعمل ؟ أقول العمل لا القول ـ العمل الذى نحقق به ذاتنا ومجتمعنا وننقذ أنفسنا وحاضرنا ومستقبلنا المهددين بالخراب والانقراض ·

❋ ❋ ❋

لم يكد يمر يوم واحد على رحيل شهيد الشعر والعصر حتى اشتعل الجدل العقيم : من الذى قتله وكيف قتل ؟ ما التهم التى سددت سهامها الى قلبه حتى اختنق وخذلته طاقته على تحمل الجراح ؟ وأنا أنزه نفسى عن المشاركة فى هذا الجدل ، كما أنزه الأصدقاء الذين كانوا معه فى ليلة الوداع · فالثلاثة الذين كانوا معه أصدقاء أحمل لهم الود والتقدير · وحتى الرسام المجهول الذى كان معهم وسمعت أنه لم يتورع عن قذفه بأبشع التهم على مشهد من زوجته وابنتيه ـ أدعو الله أن يغفر له ويسامحه (يعلم رب الغيب حقيقة ما قالوه وما فعلوه · ولقد كنت على موعد اللقاء بالصديق المسافر فى نفس اليوم الذى قدر على أن أشيعه فيه) لكل أجل كتاب ، ولم يبق الا التسليم · غير أن هناك حقيقة لابد أن أشهد بها وأشهد عليها كل المبدعين المخلصين فى أمتنا العربية : لقد ظل صلاح يقتل طوال العشرين سنة الأخيرة ، وظلت الفخاخ تنصب له من جهلة اليمين وأدعياء اليسار (فى الجو الذى تعذب فيه جيلنا التعس فقدت هاتان الكلمتان معناهما كما فقدت كل القيم معانيها ··) وتبقى قضايا وأسئلة أكبر منا جميعا : لماذا يقدر على أفضل أبنائنا واخوتنا أن يسقطوا ضحية الضنى

والقهر والتعذيب ؟ الى متى نضن عليهم بالكلمة الطيبة طوال وجودهم معنا ، فلا نقولها ــ ان قيلت على الاطلاق ــ الا بعد غيابهم عنا ؟ (*) •

كيف نسترد المقدرة على الحب والاحترام ــ على الأقل لمن هم أولى الناس أن نضعهم فى حبات عيوننا وقلوبنا ؟ الى متى نظل أعدى أعداء أنفسنا ، والى متى نختنق بالصغار والادعاء وتطاول بعضنا على بعض ؟ هل كتب على الموهوبين أن يكونوا دائما ضحية الحطابين الفقراء من كل موهبة ؟ واذا صح ما يقوله الحلاج فى هذه البكائية « يقتل كل الشعراء بكل بلاد الله » فهل كتب علينا أن نكون أبشع البلاد قتلا لأبنائنا المبدعين فى كل مجال ؟! ألا يكفى أننا مهزومون حتى نهزم أنفسنا بأنفسنا ؟ أنحاول برفع أصواتنا القبيحة أن نتصامم عن أصوات أخرى أولى بأن ننتبه اليها : أصوات الآلات والحفارات التى تقيم المستعمرات والمستوطنات على أرضنا السليبة ، وأقدام العدو التى تدوس جثثنا الممددة بلا وعى ولا حياة ؟ ألم تدق ساعة العمل التى توقف طاحونة القول التى سحقت كرامتنا وتوشك أن تسحق وجودنا نفســه ؟ واذا كان قدر الأدباء والكتــاب أن يتكلموا ويكتبوا فمتى تصبح كلمتهم فعلا وكتابتهم عملا أو دليلا يهدى الى عمل ؟ متى نتعلم من عذاب صلاح ورحيله أن الجو الذى لفظت فيه حضــارات منقرضة آخر أنفاسها وأننا محتاجون ــ هنا والآن ! ــ لجو جديد يقوم على الحــرية والحوار واحترام الانســان والعمل المبنى على المنهج والعــلم والحب ؟

أسئلة كثيرة لا أستطيع أنا ولا من أهم أفضل منى من الواقفين فى الصف نفسه الذى وقف فيه صلاح أن نكتمها عن أمتنا • فمتى تفتح عينيك وعقلك يا شعبى المسكين ؟ ومتى تستيقظ للخطر الأكبر يا وطنى الأكبر ؟

***

وبما قيل ان الراحل العزيز لم يلتزم بالتقدمية كما يفهمها أنصارها أو أدعياؤها • ولكن لا شــك أنه بقى محاربا صلبا للارهاب والاستبداد

(*) اذكر الصامتين من أساتذة الأدب عندنا بان عشرات الباحثين فى امريكا واوروبا يعكفون منذ سنين على دراسة أعمال صلاح وان الندوات قد أقيمت هناك بعد رحيله وأمامه الآن ترجمة جيدة لمأساة الحلاج بعنوان « موت الصوفى » قام بها أحد المستشرقين الألمان وراجعهما صديقنا ناجى نجيب المقيم فى برلين وينتظر صدور « مسافر ليل » عن دار النشر نفسها عن قريب اذكرهم أيضا بأنه كان قبل رحيله المفاجىء يستعد لحضور عرض مسافر ليل والأميرة تنتظر على بعض مسارح يوغوسلافيا والنمسا كما كانت الدوائر الأدبية فى كمبريدج تنتظر تلبية الدعوة الموجهة اليه أيكون الأغراب أحن علينا من أنفسنا وأقدار على تقديرنا من بعض أهلنا ؟ يارب ! كيف أعطيتنا القدرة على كل هذا الجحود ؟! •

والتسلط بكل صوره ، وأنه ربما تعاطف مع التقدمية لو أنها لم تأت على أيدى الجلادين بمختلف أشكالهم · لقد ظل عدوا لكل قهر أو الزام · لا لان الالزام شر أخلاقى فحسب ، بل لانه ـ كشاعر ـ لابد أن يرتاب فى كل من يؤيده تحت أى شعار أو تبرير أو تعميم ·

ان الشاعر لا يكون شاعرا جيدا أو رديئا لأنه تقدمي أو أيديولوجى ، بل لانه قبل ذلك شاعر أو غير شاعر · والفن ليس دعاية ولا يجب أن يكون · ولكن ببغاوات العصر والسلطة التى تحكم قبضتها على أجهزة الدعاية تريد من الشعراء أن يكونوا دعاة · فلا عجب أن يصطدم الشاعر والفنان صاحب الضمير الحر والرؤية المستقلة بمثل هذه السلطة (التى يضطر أن يكسب لقمته فى ظلها) ولا عجب أن ترتاب هى أيضـا فيه وتسلط ببغاواتها لنهش لحمه والتربص به · ولكن القيم الفنية لا تخضع للقيم السياسية ، والموهبة المبدعة لن تكون حرة اذا وضعت يدها فى قيود الاعتقاد المذهبى · ربما تقول الأجيال الجديدة من النقاد ان صلاحا وجيله ظلوا ثوريين رومانتيكيين فى شعرهم ونثرهم وفرديين فى رؤيتهم للحياة ، قد يكون هذا صحيحا وله أسبابه التاريخية والاجتماعية · ولكن هـذه الأجيال ـ التى نتمنى أن تكون أسعد حظا منا ـ لا تستطيع أن تجردهم من اخلاصهم ووطنيتهم وصدقهم مع أنفسهم ودفاعهم عن قضية الحرية والعدل بمعناها الفنى والانسانى الشامل · لا شـك أن للفن دوره فى المجتمع ، وهو فى النهاية نتاج هذا المجتمع · ولكن اغتراب الفنان العربى عن مجتمعه فى السنوات الثلاثين أو العشرين الأخيرة ظاهرة واقعة تستحق الدراسة لا الادانة · ولا يجب أن ننسى أن الفن المغترب فن سياسى أيضا ، مهما ابتعد عن سياسة معينة ، وهو فى النهاية تعبير عن مختلف الضغوط التى جثمت على صور الفنان وألجأته للاغتراب والاختناق بالعذاب والحزن والصمت · وبدلا من أن تقول ينبغى أن يكون شعرك أو فنك كذا وكذا ، علينا أن نكافح لازالة القيود عن طريق الشاعر والفنان ، وخلق المناخ الذى يستطيع أن يبدع فيه ويتحمل مسئوليته · ان الفنان انسان قبل أن يكون صاحب مذهب · والوظيفة الأولى للشعر ولكل الفنون هى أن تجعلنا أعمق وعيا بانسانيتنا وبالعالم المحيط بنا · لا أدرى ان كان هذا الوعى سيجعلنا أكثر أخلاقية أو أكثر فعالية ، ولكنه سيجعلنا بالتأكيـد أكثر انسانية · يكفينا من الشاعر أنه ينبهنا الى الوحوش التى تسعى فى زحام المدينة (بشر الحافى) أو الوحش الذى يحكم عليها بالموت وهو نفسه جثة ميتة (بعد أن يموت الملك) · أما خطة العمل التى تجعلنا نتخلص منهم فليست وظيفته · ان الشعراء بطبيعة اهتماماتهم وصنعتهم الفنية ـ كما يقول « أودن » فى مقاله عن الشاعر والمدينة ـ غير مهيئين لفهم أمور

السياسة أو الاقتصاد . ان اهتمامهم الطبعي ينصب على الأفراد والعلاقات والتجارب الشخصية . بينما السياسة والاقتصاد يهتمان بأعداد كبيرة من الناس ، أى بالمتوسط البشرى (والشاعر يضيق الى حد الموت بفكرة الانسان العادى) والعلاقات غير الشخصية وغير الارادية الى حد كبير . انه يحدثنا عن مدن المستقبل لا عن أزمات البطالة والتضخم والاسكان ، عن معاناة الانسان فى مجتمعاتنا الحديثة التى يتضاءل فيها ويتشوه « ويتشيأ » ويغترب ويمتحن فى كل لحظة فى انسانيته ووجوده الحقيقى الأصيل . لا عن العامل والفلاح والموظف ومشكلاتهم المحدودة . ورسالته هى تغيير ضمير الفرد وقلبه ووعيه ، أما تغيير ظروفه الواقعية فأمر متروك للساسة والعلماء والمصلحين . انه يطرق أبواب الخلاص لا أبواب الاصلاح، ويأخذ بأيدينا على طريق الحقيقة لا طريق الواقع المحسوس . والمهم — وليس هذا قليلا — أن يكون أمينا وصادقا وقريبا من قلوبنا ..

أليس أمام الشعر اذا فرصة للفعل والتغيير ؟ أكان يمكن أن يظل العالم على ما هو عليه لو خلا من كل الشعراء ؟ وأليست قضية العدل الاجتماعى أهم من كل قضايا الفن ؟ وانصاف المظلومين والمضطهدين — أليس أجدى من عشرات الملاحم والدواوين ؟ — ولكن المشكلة تكمن فى فهمنا لمعنى الفعل والتأثير — لا شك أن العالم كان سيفتقر الى الحرية والعدل والجمال — أكثر من فقره المزمن فيها — لو خلا من أمثال هوميروس ودانتى والمتنبى والمعرى وشكسبير وجوته وموزار وبيتهوفن وشوقى وسيد درويش ولا شك أن واقعنا كان سيبدو أكثر قتامة وبؤسا لو خلا من صلاح وزملائه المجددين والمتمردين لقد قدموا لنا الشهادة الحقيقية على ظلم واقعنا وظلامه وتفاهته وتمزقه ، أما الفعل المؤثر الذى يغير منه فقد يأتى أو لا يأتى على أيدى غيرهم . والمهم أن قصائدهم نفسها « أفعال » باقية فى عالمنا ، قيم مؤثرة على قلوبنا وعقولنا ، تعطينا الحماية والأمان الخلقى والعقلى والوجدانى وتزيدنا وعيا بانسانيتنا . ان المثل الأعلى للشاعر والانسان هو الذى يقترب من وحدة الشعور والعقل ، والفكر والفعل . فكيف نتهمه فى ظل القهر والتمزق بأنه حزين وسلبى ؟ أليس تجسيدا نقيا لحريتنا ووحدتنا المفقودة ، لعذابنا وتعذيبنا لأنفسنا ؟ والمجتمع الأمثل هو الذى يكفل الحرية الكاملة للاختيار الأخلاقى — فهل فى بلادنا نظام واحد وحيد يسمح بهذا المجتمع اللائق بالانسان ؟ ان الدعائى الثرثار ورجل السلطة الحديدى يتهمان الشاعر بأنه يعزف ألحانه فى الوقت الذى تحترق فيه روما (هذا ان كانا يشعران بأنها تحترق !) . وهما يطالبانه بأن يستغل قدرته على صوغ الكلمات فى اقناع الناس بما ينبغى أن يفعلوه . ولكن مهمة الشعر ليست هى اخبار الناس بما يفعلون ، بل مهمته — كما قدمت — هى تعميق

معرفتنا بأنفسنا وبالعالم الحقيقى : بالخير والشر ، بالجمال والقبح ، بالحرية والعبودية · ربما استطاع بذلك أن يجعل ضرورة الفعل أكثر الحاحا وأن يجعل طبيعته أكثر وضوحا ، بحيث يقودنا الى اتخاذ القرار العقلى والعملى والأخلاقى الحر ـ ومع ذلك فلابد أن نقتصد فى الكلام عن رسالة الشعر والتزام الشاعر ·· الخ وغير ذلك مما ضيعنا فيه السنين الطويلة بلا ملل او كلل ·· ولابد أن نقول لأولئك الذين يتجهون للشعر طلبا لرسالة أو برنامج اصلاح : انكم تطرقون الباب الخاطىء ولابد أن نقول لهم أيضا أن الشعر يضىء ويكشف ولكنه لا يملى ولا يعلم · ان الفنان لا « يحدث » شيئا بمعنى الفعل المباشر ـ اللهم الا أن يجعلنا نؤمن بالحياة ونفرح بها ونمجدها ويزيدنا وعيا بالحرية الانسانية لأن مجاله كما قلت هو عالم القلب لا عالم السياسة والاقتصاد ·

ان المعذبين فى الأرض (بتشديد الذال المكسورة) قد أرهقوا صلاح عبد الصبور بالكلمات الضخمة والشعارات الغليظة شأن كهان الأروقة الكذبة والحطابين الفقراء مع كل فنان ناجح موهوب · طالبوه بأن يعبر عن أفكارهم هم ، أن يضع آراءهم هم فى شعره ـ فأى تعذيب للضمير الحر أقسى من هذا التعذيب ؟ ان المجتمع الموحد فى العاطفة والأهداف والكرامة والآمال هو الذى يمكن أن يتفجر بالأدب الناضج والشعر الصادق هذا المجتمع الموحد الذى يكون فيه كل الأفراد كالبحارة المشاركين فى شد حبال السفينة هو الذى يحلم به الشاعر · فلنوحد مجتمعنا العربى ، ولننهض به من حضيض التخلف ، ولنداو جراح كرامته قبل أن نتهم الشاعر وندينه بسؤالنا : لماذا أنت حزين ؟ ··

ان الحياة كل واحد مؤلف من وحدات كلية ، تتألف بدورها من وحدات كلية أصغر · هناك العضو المفرد ، والفرد الانسانى ، وهناك الفرد والأسرة ، والأمة والعالم ، وكلها بنيان أو مجموعات على علاقة بمجموعات أكبر · وكل مجموعة على حدة مختلفة عن سواها ، لكن ليس لها معنى الا فى علاقتها بالمجموعات الأخرى · ليس هناك كل بغير الجزء ، ولا أى جزء بغير الكل · وكذلك ليس الكل مجرد محصلة للأجزاء ، وانما هو شىء جديد · هذه مسلمات استقرت اليوم فى العقل الحديث فلماذا نكررها هنا ؟ لأنه يحدث فى بعض الأحيان أن يعمل الجزء وكأنه ليس جزءا من كل أكبر منه (كما فى النشاط السرطانى فى الجسم الحى) والنتيجة فى هذه الحالة هى المرض المميت والتدهور والانهيار · هذا ما حدث للمجتمع البشرى عبر التاريخ ، وهو ما حدث لمجتمعنا العربى فى السنوات الأخيرة· فقد الجزء صلته بالكل ، فقد المجتمع صلته الحميمة بالمجتمع المجاور له ، انفصل كل فرد واغترب عن كل فرد ، تورمت الأجزاء وبعض « الكلات »

أو الوحدات الصغرى تورما سرطانيا وغفلت عن علاقتها بالكل ، وفقد الوطن الأكبر علاقته العضوية بالعالم الذى يعيش فيه . والنتيجة ؟ هذا التمزق والضياع والانتحار المنذر بالانقراض ، وسط هذا الخراب يقف الشـاعر وحده . يواجه الزلزال والمبانى المتصدعة ، عاريا فى مهب الرياح والأعاصير ، يقف وحيدا عاريا ليقول لنا : أنتم محبوسون داخل أنفسكم ، معزولون عن بعضكم ، تائهون عن الحقيقة ، تسـعون وراء الشـمس ، والشمس فى ظهوركم . لا كل فى نظركم الا الأنا الصغيرة الأنانية . انى أعيدكم للكل، أرجع العضو لجسده . والفرد لمجتمعه ، والمجتمع لوطنه الأكبر ، والوطن للعالم والانسانية . أنا ضمير التاريخ المثقل بالذنب . هل يسمع صوتى ؟ هل تتركنى حشرات السلطات والشعارات لأتم أغنيتى ؟ عودوا للكل ــ لانسانيتكم . لوعيكم . لعالمكم . لحقيقتكم . أنا شاعر المحبة أقول لكم وأتنبأ بالموت وأبشر بالميلاد . قومـوا ، احتجوا ، اختاروا وتحملوا مسـئولية الاختيار . اهتزوا . اقشعروا من فرقتكم وهوانكم . افعلوا شيئا . انفجروا أو موتوا . أنا الشاعر : ضعيف ومعرض للخطر ، أقول كلمتى وأتحطم . عشت أنادى بمجتمع الحرية والعدل ، وأحارب الهوان والقهر ، وأحذر من رعب أكبر من هذا سوف يجىء ، تحركوا على صوتى كما يحرك البحارة أيديهم بالمجاديف على ايقاع الأغنية المنطلقة من واحد منهم ، فيتحرك المركب الواحد ويشق صدر الموج والريح . تذكروا انهيار الدولة العباسية وتمـزق دويلات المرابطين . ان الحرية والعـدل والديموقراطية والعقـل مهددة . بل هى فى الواقع تخرب كل يوم . يجب علينا أن نختار ، يجب على كل منا . قد تكون نظمنا سيئة ولا أمل فيها على الاطلاق . لكن لايمكن أن يخرب الانسان تماما ، ولهذا أتجه اليه وأتعذب من أجله . لعلكم تحلمون معى وتعملون فى سبيل مجتمع جديد ، مجتمع يكون كل فرد فيه قادرا على الحب والفهم ، حتى ولو لم يحبنى أحد ولم يفهمنى أحد . أنا لا أنصح ولا أصلح الكون وانما أقدم التجارب والحكايات والأمثلة ، وعلى كل أن يستخلص منها نتائجه . أنا وقت مفقود بين الوقتين ، جسر مشدود بين الماضى والمستقبل . تذكروا يا من تعبرون علينا ، أننا تعذبنا هنا من أجلكم ــ لكيلا تنتهوا نهايتنا ، وليكون حظكم أسعد من حظنا ... أضنتنى شهوة اصلاح العالم . تمنيت أن أترك هذا العالم خيرا مما كان عليه قبل مجيئى . لكن القدرة كانت محدودة ، والأيام ضنينة فاذكرنى يا من تأتى بعدى ، واحفظ عهد الشعر وعاهدنى أن تتسامح وتكافح ...

(نوفمبر ١٩٨١)

الدمعة الخامسة :

أوفيليا : ماذا فعلوا بك ؟ ..



الدمعة الخامسة :

أوفيليا : ماذا فعلوا بك ؟ ..

على الموج الهادىء الأسود حيث تنعس النجوم
تسبح أوفيليا الشاحبة كزهرة سوسن كبيرة ،
تسبح فى بطء شديد ، ملتفة فى وشاحها الطويل ..
ومن الغابات البعيدة يسمع صوت الصيادين : « ها لا لا .. »
ها هى أوفيليا الحزينة منذ أكثر من ألف عام
شبح أبيض يعبر فوق التيار الأسود الطويل ..
منذ ألف عام يهمس جنونها الحنون
بأغنيتها الخيالية لنسمة المساء
الريح تقبل نهديها وتنشر وشاحها الكبير
كأنه اكليل زهرة تهدهده المياه الناعمة ،
الصفصاف المرتعش يبكى على كتفيها ،
وعلى جبينها الكبير الحالم تهجع أعواد البوص .
وورود الماء اختلجت من لمستها تتنهد حولها ،
أحيانا توقظ عشا فى شجرة حور نائمة
فتفلت منه رعشة جناح صغيرة .
ـ أغنية غامضة تهبط من النجوم الذهبية .

***

ها أنت يا أوفيليا الحزينة الشاحبة تسبحين فوق أمواج النهر الشاحب الحزين كزهرة سوسن كبيرة تهدهدها المياه الناعمة ، الصفصاف المرتعش يبكى على كتفيك · وعلى جبينك الناصع الكبير ترقد زهرة الحب البرىء · تسبحين من ألف عام ، أغنية غامضة تهبط علينا من النجوم الذهبية · وشاعر حديث اسمه « رامبو » همس بأغنيتك التى تردد أصداء جنونك الحنون · كان تقيا وبريئا مثلك ، **طفلا قلقا رآك فى ألق النجوم** :

والشاعر يقول انه رآك فى ألق النجوم

باحثة ، بالليل ، عن الزهور التى قطفتها يداك ، ويقول انه أبصر أوفيليا الشاحبة طافية على الماء ، مكفنة فى وشاحها الطويل كالزنبقة البيضاء !

***

نعم ! مت يا طفلتى عندما جرفك نهر أسود طويل · وقبلها غرق عقلك فى لجة الظلام والجنون · ونحن نسأل اليوم ولا ندرى لمن نوجه السؤال : من المسئول عن جنونك وعن غرقك أيتها الزنبقة الطاهرة البيضاء ؟ أهو الحب الذى خاب أملك فيه ، حبك للفارس الحزين ، لهاملت الشجاع النبيل المسكين ؟ أم هو أبوك بولونيوس الذى جنت عليك حكمته الحتماء حين حولك الى فخ لئيم ، ووضع على وجهك الجميل قناع التجسس على الحبيب المكتئب المذهول ؟ أم تراه هو الملك كلوديوس الذى اغتصب العرش والملكة والمملكة الثعبان المتوج الذى نفث السم فى جسد الدولة ، والدمل الكبير الذى نشر الصديد فى عروق الحياة والمجتمع ثم وجدت نفسك فى بؤرة تطفح بالجشع والطمع ، والفساد والعفن والتآمر والتلصص ؟ من نسأل من هؤلاء ومن نتهم ؟ هل جنى عليك أحدهم أم كلهم مشارك فى الذنب والجناية ؟ أتكون مأساة الحياة نفسها هى التى عجلت بمصيرك ومأساتك الحياة التى نخر الفساد جذورها ، وحاصرتها الأبخرة الموبؤة فخنقت أنفاسها ، وهبت عليها رياح الفجور فأطاحت بفضائلها ؟ أم أنك قد كنت من البراءة بحيث لم تتحملى الحياة مع البشر وكنت الوحيدة التى لم تسقط ولم تتلوث فى عالم ساقط مسموم ، ولهذا لم يبق أمامك الا أن تلوذى بالجنون ، وأن يسلمك الجنون الى الموت ؟ اعتل الزمن وتفشى المرض فى كيان الطبيعة والدولة والمجتمع · فتعالى نحلم بالحب وبالحرية قبل أن تفيقى منه تحت سطح الماء « تعالى نصحب خطواتك على طريق الحياة التى كنت شاهدة عليها قبل أن تصبحى شهيدتها · تعالى نبدأ من غرفة فى منزل أبيك وأنت تودعين أخاك قبل سفره بقليل ····

***

تسلل الحب الى قلبك كأنه طيف لطيف شريف • وتسللت معه الحيرة من هذا الضيف الرقيق المخيف • ويسارع أخوك « لا يرتس » الى تحذيرك مما يبديه لك الامير هاملت من بوادر الحب وينصحك أن تبقى وراء عواطفك ، بعيدة مرمى الشهوة والخطر :

لايرتس : أما عن هاملت وما يمنحك من تدليل فلا تحسبيه الا مجاملة ونزوة عابرة :

بنفسجة فى ريعانها

قد تبدو فى نضارتها ، ولكنها لاتدوم

وقد تزكو رائحتها ، ولكنها سرعان ما تذبل

أن شذاها وحسنها لا يعيشان

أكثر من لحظة واحدة ••

أنه يخاطب فيك العذراء الغريزة التى مهما بالغت فى الحذر فهى تسرف فى الاهمال ان كشفت القناع عن جمالها للقمر ولهذا يطلب منك أن تخشى الأمير ولا تعرضى شرفك للضيم ان ضيعت قلبك من أجله ، أو أصغت أذنك الساذجة لأغنيات حبه نصائح لمن لا يحتاج الى النصيحة ، يقدمها من سيغرقه أبوك بعد قليل بسيل حكمته العميقة العقيمة التى لا يقدرها الشباب الا بعد أن يقعوا فى شراك التجربة • ولهذا تبتسمين وتقولين لاخيك

أوفيليا : سأجعل معنى هذا الدرس النافع

حارسا على قلبى ، ولكن يا أخى الحبيب

لا تفعل ما يفعله الواعظ الأثيم

اذ يدل الناس على الطريق الوعرة الشائكة الى السماء

بينما يسير على طريق الشهوة المحفوف بالورود

كالفاجر الوقح الخليع

ويهزأ بنفسه من النصيحة التى يقدمها لغيره

ويأتى أبوك ـ وزير الملك الأول وكبير أمنائه ـ فيشتد عليك بالنصيحة والتحذير • سألك عما سمع عن لقائكما فاقترفت بما قدمه لك الأمير من عروض تدل على ميله اليك • ويسخر منك الأب **ويقول :**

بولونيوس : ميله ؟ انك لتتكلمين كفتاة غريرة خضراء ، أتصدقين هذه العروض كما تسمينها ؟ وتجيبين اجابة خضراء كما سماك أبوك · وزفرات الحيرة **تتردد مع كلماتك الحائرة : ــ**

أوفيليا : لست أدرى ياسيدى ماذا أصدق ··

لقد محضنى حبه الشريف

ودعم قوله بأقدس الوعود

بولونيوس : شواك لصيد العصافير !

هذا التوهج الذى يبعث من النار

أكثر مما يبعث من الدفء

وينطفىء بنفسه قبل أن يشتعل

لا تحسبيه يا ابنتى نـارا

أما عن الأمير هاملت فلا تصدقى من أمره الا أنه شاب

وجملة القول يا أوفيليا

لا تصدقى وعـــوده

وخذى حذرك · هذا هو قولى لك

والآن انصرفى لشئونك

أوفيليا : السمع والطاعة ياسيدى

***

وازدادت عليك الحيرة يا أوفيليا · فأبوك وأخوك ينصحانك بتجنب الأمير ، بل يزينان لك الحذر منه والتوجس فيه ، ويأمرانك بالامتناع عن قبول رسائله ورسله وهداياه لكن نبضات قلبك تحدثك بأن حبه شريف· وتجلسين فى غرفتك أيتها العذراء فتنسجين مع الثوب الذى بين يديك خيوط العش الدافىء فى شجرة الملك والمستقبل الهنيىء · ويفـاجئك الأمير بزيارته فترين سترته المفكوكة الأزرار ، ورأسه الحاسر ، ووجهه الشاحب فى مثل شحوب مرضه ونظراته التى تقطع القلب من الألم كأنما أطلق سراحه على النو من الجحيم ليروى الأهوال · وتفزعين الى أبيك ·

بولونيوس : أجن حبـا بك ؟

أوفيليا : لست أدرى ياسيدى ولكنى فى الحقيقة أخشى أن يكون كذلك ٠٠

لازلت لا تدرين ولكنك تخشين عليه وتشفقين آكان الأمر فى حاجة الى معرفة أو دليل ؟ ألم يكن الصمت والذهول لسان حاله الوحيد ؟ يسألك أبوك عما قاله لك فتجيبين :

أوفيليا : أخذنى من معصمى وضغطه ضغطا شديدا ثم ارتد عنى الى الخلف طول ذراع ، رافعا يده الأخرى مفتوحة فوق حاجبيه ، وراح يحدق فى وجهى بامعان حتى لكأنه يريد أن يصورنى ٠ ومكث طويلا على هذه الحال ، ثم هز ذراعى برفق ورفع رأسه وخفضه ثلاث مرات ، وأرسل زفرة عميقة خلتها قد هزت كيانه وذهبت بروحه ثم خلى سبيلى وصار عنى ورأسه ملتفت الى واستمر فى السير كأنه بغير حاجة الى عينين تثيران له الطريق وخرج من الباب دون عون منهما وبصره معلق بى ضياؤه حتى اختفى ٠٠

بولونيوس : تعالى معى ٠ سأذهب الى الملك ٠

هذا هو جنون الحب بعينه ٠٠

وتظنين به الجنون وتصدقين ٠٠ بل تحاولين مساعدته بكل سبيل على الرغم مما أوصاك به أبوك ، وما كان لك الا أن تطيعيه ٠ ويأخذك معه الى الملك والملكة ليخبرهما بنبأ انطلاق الشرار خشية أن تندلع النار صحيح أنه يتصور ، بما طبع عليه من حنان الأب وبصيرته ، أنه قد جن بسببك ، فلما صددته عن نفسك أصابه الأسى ، ثم حرم على نفسه الأكل والنوم ، ثم أصيب بالهزال ثم تودى فى الجنون الذى يهذى فيه ويبكى عليه الجميع ٠ ويعرض أبوك على الملك والملكة الدليل على جنونه ٠ والدليل رسالة بعثها اليك وسلمتا طائعة لأبويك :

بولونيوس (يقرأ الرسالة) ٠

ارتابى ما شئت بأن الأنجم من نار

وارتابى فى دوران الشمس

فى أن الحق كذوب ، وأن الصدق يقول البهتان

لكن لا ترتابى أبدا فى حبى

لكن أباك ــ بما اكتسبه على مر الزمن والتجربة من حنكة رجل البلاط الخبيثة ــ ينصح بتعقب مظاهر الاضطراب واكتشاف مكمن الحقيقة

حتى وان اختفت فى باطن الأرض ويدبر مع الملك تدبيره ، آه من ظلم الأب لابنته ! هل عرف هو نفسه مداه ؟ هل أدرك أنه يسدد الطعنة الى قلبك ويئد فيه براعم الحب الوليد ؟ لن يكتفى بأن يتجسس على هاملت • سيؤكد للملك خضوعه وحسن أدائه ، لوظيفتــه • وسيجرفك معه على المنحدر الخطير • سيقول وما أفظع ما يقول :

بولونيوس : سأطلق عليك ابنتى
ولنختبىء عندئذ وراء الستارة
ونرقب المقابلة •••

***

دبر الشيخ فأساء التدبير • فرض عليك أن تمتلى دورا لم تخلقى له ، ووضع على وجهك الجميل قناعا هو منه برىء • لم يكتف بابعادك عن طريقه ، بل جعل من براءتك وتقواك فخا يطبق عليك بمصيدة تكشف عن حقيقة جنونه •

بعد أن يلقى الحبيب المذهول المتشبث بثوب الحداد نجواه المشهورة: أنحيا أم نموت ، ذلك هو السؤال ، ينتبه فجأة الى وجودك فيهتف :

هاملت : أوفيليا الجميلة ! أيتها الحورية • فلتذكر صلواتك كل خطاياى ••• وتذكرين لقـــاءكما الأخـــير ، وربما أحسست بالذنب لما بدا عليه من ذهول ، وربما بلغك ما أشيع عنه فى البلاط من جنون • لقد قالت عنك الملكة ــ وهى الأم الطيبة رغم كل شىء اذا كان جمالها الطيب قد أذى الأمير ، فربما تعيده فضائلها الى طريقه المعتاد ــ لم تكونى هناك حين قالت ذلك وحين أحكموا المؤامرة • ولكن لابد أنك قد حاولت بنفسك أن تعيديه الى الطريق • ويجرك الأمل خطاك فتسألينه كيف كانت أحواله فى الأيام الأخيرة • وتحاولين • ــ نزولا على أمر أبيك لا على صوت الطائر الملهوف فى صدرك ــ تحاولين أن تردى له هداياه فيفاجئك بقوله :

هاملت : لا • لا • أنا لم أعطك شيئا قط ••

وتحاولين أن تذكريه بأنه قدمها اليك ومعها كلمات عطرة الأنفاس زادت من قدرها • ولكنه **يصدمك بسؤاله :**

هاملت : هل أنت عفيفة ؟

أوفيليا : سـيدى !

هاملت : هل أنت جميلة ؟

أوفيليا : ماذا تقصد يا سيدى ؟

هاملت : أقصد ان كنت عفيفة وجميلة ، فلا يصح أن يسمح عفافك بأى صلة بجمالك ٠

أوفيليا : وهل يتصل الجمال بمن هو خير من العفاف ؟

هاملت : طبعا فقدرة الجمال على تحويل العفاف الى سبيل الخنا والفجور أكبر من قدرة العفاف على جعل الجمال على صورته ٠ قديما كان فى هذا القول ما فيه من تناقض ، أما اليوم فان الزمن يؤكد صدقه ٠ لقد أحببت يوما ما ٠٠

أوفيليا : يقينا يا سيدى ٠ وقد حملتنى على الاعتقاد بهذا ٠٠

هاملت : كان عليك ألا تصدقينى ٠ فمهما طعمت الفضيلة جذعنا القديم فلن نتخلص تمـاما من طعم الخطيئـة الأولى ٠٠ أنا ما أحببتك أبدا ٠٠

أوفيليا : اذا فقد خدعت ٠٠

هاملت : اذهبى الى الدير ! فيم حرصك على أن تصيرى أما لعصاة آثمين ؟ ها أنا فيما أظن رجل شريف ومع ذلك فباستطاعتى أن أتهم نفسى بآثام يخيل الى معها أنه ربما كان من الخير ان لم تلدنى أمى ٠ انى لشديد الكبرياء ، حريص على الأخذ بالثأر ، عنيد الطموح : ورهن اشارتى من الآثام ما يعجز فكرى عن حصره ، وخيالى عن تحديد شكله ، ووقتى عن تنفيذه أى نفع يرتجى من زحف أمثالى بين السماء والأرض ؟ نحن جميعا أوغاد أنذال ، حذار أن تثقى بأحد منا ٠ هلمى ! حتى الخطأ الى الدير ! أين أبوك ؟ هل سألت نفسك عن السر فى سؤاله المفاجىء عن أبيك ؟ لقد لاحظ حفيف الستارة فأدرك أن وراءها عينا أخرى من العيون التى صارت تتربص به ٠ وكذبت كذبتك البيضاء الوحيدة فقلت :

أوفيليا : فى البيت يا سيدى ٠٠

(ويشتد هياجه فيصيح) :

هاملت : أوصدى الأبواب عليه حتى لا يقوم بدور الأبله الا فى بيته٠ الوداع !

وتهمسين فى حيرتك :

أوفيليا : أيتها السموات ! أعينيه وأعيديه الى رشده !

لكن بركان ثورته لا يتوقف عن ارسال حممه على رأسك الجميل . انه يشتد فى حملته عليك وعلى جنسك كله ، ليشفعها بنصيحته البشعة : اذهبى الى الدير ! (ولقد كانت كلمة الدير فى لغة العصر تفيد كذلك معنى الماخور) .

هاملت : اذا تزوجت أعطيتك مهرا هـذه اللعنة : كونى عفيفة كالجليد ، نقية كالثلج فلن تنجى من المذمة . اذهبى الى دير . أما اذا اضطررت للزواج فتزوجى أحد البلهاء ، لأن العقلاء يعلمون حق العلم أنكن تجعلن منهم وحوشا ذات قرون . هلمى الى الدير وأسرعى !

ما السر وراء هذا الغضب الهائل ؟ ولماذا يتدفق سيله على رءوس النساء أجمعين ؟

هاملت : لقد سمعت كذلك كيف تصبغن وجوهكن . أعطاكن الله وجها واحدا ، ولكنكن تصنعن لكن وجها آخر . تتصنعن الرقص والمشى، وتتكلفن فى الكلام ، وتخلعن على مخلوقات الله أسماء من ابتكاركن ، وتجعلن الجهل عذرا للخلاعة . اليكن عنى . وكفانى هذا ، فقد أصابنى الجنون أتسمعين ؟ هلمى الى الدير ! اذهبى !

ولاتملكين وقد تركك وحدك الا أن تندبى العقل النبيل الذى هوى، وترثى لرجاء الدولة وزهرة أملها التى ذوت ، وتبكى مرآة الذوق والرقة التى تحطمت ، وقبل كل شىء : **حلم العش الدافىء الذى سقط على الأرض وتناثر أمام عينيك :**

أوفيليا : وأنا أتعس النساء وأبأسهن ،

أنا التى رشفت عسل وعوده

أرى الآن هذا العقل النبيل الزفيع

وقد اختل اختلال أجراس عذبة

فراحت تتحشرج بالأصوات المنكرة

وهذه الصورة الفريدة للشباب اليافع

يعصف بها الجنون

ياويلتى لما رأيت

ويلتى لما أراه ...

***

أى عنف أشد من هذا العنف ؟

أى مرارة أقسى من هذه المرارة ؟

كيف أمكنه أن يخاطبك بكل هذه الغلظة ، أنت يامن طالما سألك أن تدعى له فى صلواتك بالغفران ؟

كيف أمكنه أن يتنكر للحب الطاهر الذى اعترف بأنه ملك عليه قلبه فيما مضى ؟ ومن أين واتته القوة الوحشية التى جعلته ينتزع جذوره من دمه ويلقى بها فى وجهك ؟

أنت يامن سماك «ابنة السماء ، معبودة روحى ، أوفيليا الطاهرة » ؟

وليت الأمر توقف عند الغلظة والقسوة ولم يترد فى هاوية الجنون. هذا الذى كان رجاء الدولة وزهرة آمالها . ألم يكفه أن يحطم قلبى فحطم عقله أيضا ؟ والذى أحببته وأحبه الشعب كله ، هل فقد التف فى كل شيء وكل انسان ؟ ألم يعد يرى من حوله غير ظلام فوق ظلام ؟ كيف تخلت عنه بصيرته النافذة فلم يعد ينظر فى أعماقى ؟

وتقفين لحظات حائرة حتى يظهر أبوك والملك من خلف الستارة . انتبهت الى ما يقولانه عن شكهما فى الجنون المزعوم ؟ هل آلمك أنه لم يجن بسببك ؟ وهل ـ فهمت وهما يدبران لنفيه الى بلد بعيد ـ أنهم ورطوك فى التدبير ؟ هل أدركت الآن سر ثورته عليك وهو يرى القناع الذى وضعوه على وجهك ويمد يديه لينتزعه فيكاد يسلخ معه اللحم ويفجر الدم ؟ أم تراك لم تكتشفى شوكة الحقيقة الرهيبة التى تدمى فؤاده : الجميع يمثلون وأنا أيضا أمثل دورا وآتى بالممثلين الفقراء الجوالين لكى أعرى وجوه الممثلين ، لكن يا رحمة السماء ! هل يمكن أن تشترك أوفيليا فى التمثيل ؟ هل يمكن أن تصبح «السماوية معبودة روحى» عينا تتجسس على نجوى القلب وتتطفل كاللص على مكنون النفس ؟ حقا حقا ! فسدت الطبيعة وأنهار الناموس ، خرج الزمن عن محوره فكيف أعيده الى نصابه ومجراه ؟ سقطت كل القيم وساد العدم وصار الظلام .. لكننى سأتحمل عبئى وأواجه المحنة وحدى .. وينصرف الأمير اليائس فى ثورته ، الثائر من يأسه .. وتقفين حائرة لايدرى أحد ان كنت قد فكرت فى شيء أو ان كنت لزمت الصمت عن القول وعن التفكير .. العالم أيضا فى عينيك

ظلام والعالم ـ بعد جنونك ياهاملت ـ محض جنون وحطام ٠٠ وتنتبهين من الحلم المفزع على صوت أبيك :

بولونيوس : والآن يا أوفيليا ٠٠

لاحاجة لاعادة ماقاله الأمير هاملت فقد سمعنا كل شيء ٠٠٠

***

وبد عقلك الجميل ينفصل عنك ٠ هذا العقل الذى لسنا بغيره سوى صور ووحوش ٠ هل التمست العذر لهاملت على سيل الحمم التى صبها على رأسك الصغير ؟ انك لم تستحقى كل هذا الغضب وكل هذه القسوة ٠ وماكان لك أن تعصى أباك الحبيب ٠ لكن الحب قد ضاع الى الأبد وسيضيع كذلك الأب الحبيب ٠ وأنت يا أوفيليا تهيمين فى رياض جنتك العذرية ، لاتدرين بالآلام التى عذبت نفس الأمير المسكين ٠ لاتعرفين أنها غرقت بين الاكتئاب الذى سمم دمه وعقله ، وبين الرغبة فى الثأر لقتل أبيه الذى لم ترى شبحه الحزين ٠ وبما أحسست بهواجسه وشكوكه ٠ لكنك لم تتصورى أبدا أنها ستصل به الى الشك فى حبك ٠ وخرجت من جنتك الى الأبد عندما قتل أباك ٠ لم تكونى معه عندما صب سيل غضبه على أمه ٠ ولم تشعرى بألمه عندما اكتشف أن القتيل الذى تخفى وراء الستارة لم يكن هو رأس الأفعى ، لم يكن هو الدمل الكبير الذى سمم صديده عروق المملكة ، والذى عاش حياته وكرس جهوده لفنه بضربة سيفه القاضية كان المقبول أباك ٠ وحزن الأمير الحبيب ، لا لأنه جدير بأى محبة أو تقدير فهو يد الدس التى أرسلها الملك فى أعقابه ـ بل لانه والدك أنت ـ والد أوفيليا الطاهرة التى أحبها كما أحبته ٠ وان عجز من فرط التأمل والتألم عن الاحساس بمدى حبه ٠٠٠

وخرجت من جنتك الى الأبد ٠٠٠

واستدعاك الملك والملكة فرحت كهذين بغناء لايفهمه أحد ، لأن الجميع ـ بما فيهم محبوبك ـ مشغولون بالتآمر والتدبير ، بالتمثيل وكشف التمثيل ، بالمكر والتزييف والخداع الذى أفسد الحياة وكان دائما ـ دون أن تدرى ـ هو طابع الحياة ٠

وحدقت الوحوش الآدمية فى وجهك البرىء وخصلات شعرك المضطرب الجميل وأنت تغنين :

أوفيليا : سافر الموت به ياطفلتى

ونما العشب على أجفانه
واستراحت فى ثبات صخرة
عند رجليه وفى أحضانه

الملكة : ولكن ياأوفيليا ··

أوفيليا : أرجوك اسمعى :
كفنوه فى رداء أبيض
فبدا كالثلج فى أكفانه

الملكة : أنظر اليها ياسيدى ··

أوفيليا : وتزيا النعش بالورد شذى
وسوى الموكب فى أحزانه
وبدا القبر فمدت شوقها
أدمع حرى الى جثمانه ···

الملك : كيف حالك ياجميلة ؟

أوفيليا : بخير والحمد لله · يقولون ان البومة كانت ابنة خباز ، اننا يامولاى نعرف مانحن · لكننا لانعرف ماسيؤول اليه · بارك الله مائدتك !

الملك : انها تقصد أباها كم مضى عليها وهى على هذه الحال ؟

أوفيليا : أرجو أن يتم كل شىء على خير ·علينا أن نتمسك بالصبر· لكننى لا أملك الا البكاء كلما تصورت أنهم سيرقدونه فى الأرض الباردة · سيعرف أخى بالأمر · ولهذا أشكر لكم نصيحتكم الطيبة · تعالى يا عزيزتى ! تصبحن على خير ياسيداتى · ياسيداتى اللطيفات تصبحن على خير ·
(تنصرف)

الملك (للملكة) : هذا سم الحزن العميق ، وهو ينبع كله من موت أبيها ··

***

أصحيح أن السم كله ينبع ـ كما قال الملك ـ من موت أبيك ؟ أم آن السم تفشى فى المملكة بأسرها وانتشر فى شرايين الطبيعـة البشرية نفسها ؟

وتهيمين كالشبح الشاحب فى أرجاء البلاط • كشعاع يتخبط وسط الظلمات ، يتخبط حينا ثم يذوب وينطفىء ببحر الظلمات •

وتعودين للظهور فى المشهد الخامس من الفصل الرابع بعد رجوع شقيقك « لايرتس » من غربته • لقد رجع ليثأر من قاتل أبيه ، وها هو ذا يصمم على الثأر ممن يتصور أنه تسبب فى جنونك • انك تترنمين بأغنيتك الغامضة أمام أخيك وتقولين :

أوفيليا : فوق نعش حملوه

وبقبر مددوه

آه يا ويلى آه !

بدموع أمطروه

بدموع أمطروه

الوداع يا حمامتى

حمامتى الوداع ••

لايرتس : ان هذا الجنون أقوى من كل حس سليم • انها تلمس الغم والأسى والعذاب والجحيم نفسه فتحيله الى حسن ورواء

أوفيليا : ألن يعود من قضى ؟

كيف يعود من مضى ؟

هيا اذهبى

فلن يعود

لن يعود أبدا

ونحن نبكيه سدى •••

يا رحمة الله به

ورحمة الله بنا •••

***

على الموج الهادىء الأسود حيث تنعس النجوم
تسبح أوفيليا الشاحبة كزهرة سوسن كبيرة ،
تسبح فى بطء شديد ، ملتفة فى وشاحها الطويل

***

الريح تقبل نهديها وتنشر وشاحها الكبير
كأنه اكليل زهرة تهدهده المياه الناعمة ،
الصفصاف المرتعش يبكى على كتفيها ،
وعلى جبينها الكبير الحالم تهجع أعواد البوص •

***

ورود الماء التى اختلجت من لمسها تتنهد حولها ،
أحيانا توقظ عشا فى شجرة حور نائمة
فتفلت منه رعشة جناح صغيرة •
ـ أغنية غامضة تهبط من النجوم الذهبية •

***

البؤرة ما زالت تنضح بالعفن وتتصاعد منها الأبخرة الموبوءة • والملك يدبر مع أخيـك المكيدة التى ستصرع هاملت • وتدخلت الملكة هالعة مفزوعة •

الملك : ما وراءك يا مليكتى المحبوبة ؟

الملكة : مصيبة فى أعقاب مصيبة • أختك غرقت يا لايرتس •

لايرتس : غرقت آه ! أين ؟

الملكة : هنالك صفصافة تميل على غدير
يعكس أوراقها الكئيبة فى تياره الصافى
هنالك ذهبت أوفيليا بأكاليل غريبة
من زهور الغراب والأقحوان والزنبق فى لون الأرجوان الذى
يدعـوه الرعاة بأسـماء غليظة وتسميه صـبايانا العفيفـات
« أنامل الموتى »
وعندما تسلقت الشجرة

لتعلق أكاليلها المضفورة من الأعشاب
على الأغصان المتأرجحة
انكسر فرع حسود
وهوة مع أكاليلها فى مياه الغدير الباكى
انتشرت ثيابها وحملتها كحورية البحر برهة من الزمن
راحت فيها تغنى مقاطع من ألحان قديمة
كأنها لا تدرك محنتها
أو كأنها مخلوق نشأ فى الماء وتعود على عنصره
لكن ذلك لم يستمر طويلا ،
فلم تلبث ثيابها التى ثقلت بما شربته
أن انتزعت المسكينة التعسة من شكواها الحنون
وهوت بها الى حتفها فى الطين

لايرتس : واحسرتاه ! أغرقت اذا ؟

الملكة : غرقت • غرقت •

لايرتس : أوفيليا المسكينة • غزيرة هى المياه التى أنت فيها •
ولهذا سأمنع دموعى
وداعا يا مولاى عندى كلمات من نار
تود لو يضطرم لهيبها
لولا أن دموعى تطفئها ••

***

ضاقت الأرض بما وسعت فلم تمددى عليها جسدك ولهذا اخترت فراش زفافك للموت على سطح الماء •• وابتعدت عن الأرض التى تنوء بحمل القتلة والفجرة والأوغاد الخـداعين لكى تموتى طاهرة فى المـاء الطـاهر ••

ويأتى المشهد الأول من الفصل الخامس والأخير فنرى مراسيم الدفن المبتـورة حتى رجال الدين أبوا عليك تراتيل القـداس ، لأن روحك ، فيما يقولون ، لم ترحل فى سلام •••• ولولا أن تدخل الملك لدفنت كما أرادوا فى أرض غير مقدسة وبقيت فيها الى أن ينفخ فى الصور لولا أوامره لأهيل عليك الحصى والحجارة وشظايا الفخار •• وأذن لك على

مضض أن تشيعى الى مثواك وعليك أكاليل العذارى ، وأن تنثر عليك الزهور على رنين الأجراس ···

وأنت فى تابوتك ــ ينمو البنفسج من جسدك ويتضوع منك الشذى ــ لا تدرين أن حبيبك المكتئب من طول ما تأمل حقيقة نفسه وحقيقة الحياة قد آب من غربته ليتم انتقامه ويسعى الى مصرعه ومصيره· ولقد كان قبل وصول موكب جنازتك مشغولا كعادته بالتأمل والتألم الى حد السخرية المرة من الحقيقة المرة للموت والحياة ··

ضحك مع حفارى القبور الى حد البكاء ، ونثر نكاته اللاذعة فوق الجماجم الخرساء لقد عرف وهو الآن مستعد لتقبل كل شىء والتسليم بكل شىء ··

ان موتك ينتزع منه صرخة حادة · يحرك السكين فى الجرح الساكن منذ سنين · لقد واجه منذ لحظات حقيقة الموت المجرد ، موت المهرج « يورك » الذى طالما لعب معه وهو صغير ، وموت السياسى الداهية ورجل البلاط الأجوف ، والمحامى الماكر ، وموت الاسكندر العظيم الذى أصبح طينا قد يسد ثقبا ليصد الريح ، أو يصير سدادا لدن خمر أو برميل ، ولكنه الآن يواجه موتك أنت ومن يدرى ؟ ربما يواجه لأول مرة فى حياته حقيقة حبه لك ، حبه الذى أنكره وتنكر له ، ولو أحس به لخلصه من تردده ، لو آمن به لما اكتسى لون العزم الأصيل بصفرة التوجس والقلق العليلة ·· ان موتك يا أوفيليا هو الذى يكشف له الآن عن سر الحياة والحقيقة الذى طالما حاول عبثا أن يرفع عنه الغطاء · أليس من أعجب أسرار هذا السر العجيب أن حفرة من الطين هى التى ستضم ضيفا عزيزا مثلك ؟ ألم يكن الأولى أن تلتقى فى غيمة أو وردة ؟! ·· أنت يا من نجوت وحدك من السم الذى استشرى فى دماء كل الذين عرفهم كما استشرى فى دمه ·· يا من لم يزرع فيها ·· دون الجميع ــ ذلك الدمل الكريه مكان الوردة التى لا تزال تزين جبهتك الناصعة بالحب البرىء ·· رباه ! أكان ضروريا أن تجنى وتموتى ليتم تطهير دولة وبعثها من جديد ؟ أكان انهيارك رمزا لانهيار المجتمع وتصدع الروح وفساد الطبيعة والانسان ؟ أم كان كالنبوءة المقدسة التى تسبق المحنة وتنذر بالسقوط ·· لعله الآن قد أدرك أنك الضحية ·· لعله فهم أخيرا أنه مشترك فى الوزر الذى ارتكبه الجميع لعله لا يسأل : ماذا فعلوا بك ؟ بل يسأل : ماذا فعلنا بك ؟ كيف عمينا عن رؤية نورك ؟

***

وينزل لايرتس وهاملت الى القبـر • وينشب العراك حتى يفرق الحاضرون بينهما • **ويصرخ هاملت متوعدا :**

هاملت : والله لأحاربنه بهذا الشأن
حتى تتوقف رموش عينى عن الحركة

الملكة : أى شأن تعنى يا ولدى ؟

هاملت : لقد أحببت أوفيليا •
وان أربعين آلف أخ
لن يساوى حبهم
مقدار حبى لها ••

أتريد أن تبكى ؟ أن تقاتل ؟ أن تصوم ؟ أن تتجرع خلا وتآكل تمساحا ؟ أم تريد أن تمزق نفسك وتدفن نفسك حيا معها ؟ سأفعل ذلك أيضـا •••

لكن ماذا يجدى التحدى ، ماذا تنفع الصرخات والزفرات ؟ ان المأساة الحقيقيـة داخل المأساة قد وقعت • والسـتارة تهبط الآن على أفجع فصولها •

طبع القدر خاتمة الثقيل على مصائر الجميع • ولم يبق الا أن تدور عجلات عربته لتنحدر فى الهاوية الأخيرة ••

***

ويكمل الشاعر الذى ذكرت لك فى البداية أنه يشبهك فى روحه ومصيره ـ يكمل أغنيتك الغامضة التى **تهبط من النجوم الذهبية :**

أوفيليا الشاحبة ! أنت أيتها الجميلة كالثلج !
نعم • مت يا طفلتى عندما جرفك نهر !
لأن الريح الهابطة من جبال النرويج الشامخة
كلمتك فى همس عن الحرية القاسية ،
لأن نسمة تخللت شعرك الغزير ،
وحملت لروحك الحالمة أنباء غريبة ،
لأن فؤادك سماء غناء الطبيعة
فى بكاء الأشجار وتنهدات الليالى ،

لأن نداء البحار المجنونة ، نشيجها الهائل المرير
كسر قلبك الطفل ، قلبك الانسانى الرقيق ،
لانه فى صباح يوم من أبريل جثا فارس شاحب جميل
فارس مسكين مجنون
عند ركبتيك فى صمت وذهول !
السماء ! والحب ! والحرية !
أى حلم أيتها المجنونة المسكينة
ذبت فيه ذوبان الثلج فى اللهيب ؟!
رؤاك العميقة هى التى خنقت كلمتك
واللانهاية الرهيبة أقلقت عينك الزرقاء !

***

تصدعت أركان المجتمع المريض وانهارت فوق رؤوس المرضى الذين تسببوا فى سقوطه • ومضيت أنت يا أوفيليا ، شهيدة عصر مريض وشاهدة عليه ، كما يمضى شعاع توهج لحظة فى بحر ليل دامس • وانطفأت شعلتك الأخيرة فى الماء بعد أن عصفت به ريح الجنون • لكن من الذى فطن الى الحكمة من جنونك وموتك ؟ حتى حبيبك الحزين من طول ما تأمل وجه الحقيقة المرة خلف الأقنعة لم يعرف سرك ولم يستطع أن يحبك • كأن الزمن قد خرج عن مجراه وجذور الشر كانت ضاربة فى جسدك الوجود الذى أراد أن يعيده الى مجراه ، كما كانت ضاربة فى جسد المجتمع والوجود وكان من المستحيل أن يداويه شعاع نجمة عبرت السماء الدنمرك ثم احتواها الظلام أو زهرة بريئة تفتحت وسط غابة من الأعشاب العفنة والحشرات الفتاكة ••

لكن شبحك الأبيض كالثلج ، النقى كالزنبقة سيظل يهيم على الأرض ••

والريح التى كلمتك فى همس عن الحرية القاسية ستظل تتكلم ••

ونداء البحار الذى كسر قلبك الطفل سيظل ينادى قلوب الأطفال ••

والحلم الذى ذبت فيه ذوبان الثلج فى اللهيب ،
الحلم العميق الذى خنق كلمتك وأقلق عينيك ،

الحلم بالحب والحرية سيظل يهمس للقلوب والعيون التى تشبه قلبك وعينيك ...

واذا ظل الزمن يخرج عن محوره ومجراه ،

وظلت الأرض تطفح بالآثام واللعنات ،

والمجتمع ينوء بثقل اللئام والأوغاد والكلاب والذئاب والقرود والحشرات ،

فسيوجد دوما من يعيد الزمن لمجراه ،

من يجعل الأرض مسكنا للبراءة والنقاء ،

ولتنبح الكلاب القمر كما تشاء ، فسيبقى القمر ساطعا فى السماء ..

وتبقين أيتها البريئة كشعاع النجم الوضاء ،

كالزنبقة البيضاء طافية على وجه الأرض والماء ...

(١٩٨٤)

الدمعة السادسة

دموعى أوديب ••

الدمعة السادسة

دموع أوديب .....

بكائية فى تسعة مشاهد

الشخصيات :

- أنتيجونا (ابنة أوديب)
- أوديب
- جوكاستا
- تريزياس
- كريون
- بوليبوس (ملك كورنثة) — والدا أوديب بالتبنى
- ميروب (ملكة كورنثة)
- رسول من كورنثة
- الراعى
- الجوقة
- الهولى

(تبدأ البكائية بعد انتحار جوكاستا وفقء أوديب لعينيه وقبل مغادرته طيبة) ..

(فاجأنى وجهه الحزين الملطخ بالدم وأنا أستقل الطائرة التى أقلتنى من أرض وطنى الى مكان آخر · ثم ظل يلاحقنى حتى كتبت هذه البكائية المسرحية · أعلم أن الاقدام على كتابة « أوديب » مغامرة لا تخلو من التهور ، بعد عشرات المحاولات من سوفوكليس الى اليوم · لكنها سطور من وصيتى للاخوة والأبناء الى وطنى ، حتى لا يصبح الغدر هو قانون الحياة فيه ، ويسقط القناع الأسود الذى وضعه الانتهازيون ولصوص الحرية والعلم والضمير على وجه مصر النبيل) ···

(تبدأ البكائية بعد انتحار جوكاستا وفقأ أوديب لعينيه وقبل مغادرته طيبة) ···

- ١ -

(المشهد ساحة جرداء أمام أسور طيبة ، ترتفع فيها درجات أشبه بدرجات مسرح قديم مهجور · على اليمين كتلة بشرية مظلمة من عجائز المدينة ونسائها الثكالى ، تظهر أو تتوارى كلما دعت الضرورة ، تصدر عنها تهويمات تحلق فى الفضاء كسحابة غائمة ، ولا نتبين أطيافها الا حين يدخل معها أوديب فى حوار أو يشتبك معها فى جدال يتردد صوتها المعتم العميق قبل دخول أوديب ، تسبقه ابنته أنتيجونا التى جرت مذعورة واستندت الى حجر كبير ··

الجوقة : أوديب ·· أخرج أخرج يا أوديب غادر طيبة يا أوديب ·

أوديب : (يندفع داخلا يتحسس الطريق بعد أن سبقته أنتيجونا ولاذت بحجر كبير) ابنتى ·· ابنتى ·· أين أنت يا حبيبتى ·· ؟ لماذا تركت يدى ·· ؟ أمسكتها ونزلت بى الدرج فلماذا تركتها ·· ؟ يدى التى فقأت عينى ·· أين أنت ؟ هاتى يدك ·· تعالى يا صغيرتى·

أنتيجونا : (تبكى ·· يقترب منها أوديب) لا تتخل عنى يا حبيبتى ·· أنت عينى الثالثة لم يبق لى سواك ·· تعالى (يتخبط بين الأحجار)

الجوقة : أخرج أخرج يا أوديب
غادر طيبة يا أوديب
لم لا تسرع نحو المنفى ··
لم تتلكأ عند السور ؟

أوديب : ها هى المدينة تطاردنا ·· ترسلنا للمنفى بعد أن نبذتنا وتخلت عنا ·· تبكين يا حبيبتى ؟ المدينة قاسية يا صغيرتى ·· عمياء

لا تبصر مثل أبيك •• أما زلت تحنين اليها يا ابنتى ؟ أتنتظرين رفيقاتك فى اللعب ؟ ألم تتوقعين أن تظهر أختك « اسمينا » من وراء الشـجر لتغمض عينيك بيديهـا ، وترن ضـحكتها وتجلجل كأجراس القطعان اللاهية فوق رأسك المتعب الصغير ؟ لا ••لاتنتظرى أحدا •• لا تتوقعى أن يفاجئك أحد أو يشد ثوبك أحد •• حتى كلبك الأبيض الحبيب تخلى عنك •• لم يبق لك سواى ولم يعـد لى سواك ••

الجوقة : أواه انى ان أرثى لك أبكى من أجلك يا أوديب ••

يا أتعس رجل نظرته عينى

يا من تتخبط وحدك فى ظلمات الليل ،

وخطاك تقودك للظلمات الأبشع

فى « هاديس » حيث تقيم مع الأشباح

ومن ذهب اليه لا يرجع ••

أنتيجونا : (تبكى) أبى •• أبى ••

الجوقة : واحسرتاه ! صوت من هذه التى تصرخ وتئن ؟

أهذه ابنتك التى طالما شهدتها معك

ورأيتك تداعبها وتحملها على صدرك

عندما كنت تواجه سكان طيبة

أو تقدم الأضاحى والنجور الطيبة الرائحة

على مذبح الآلهة المقدسين ؟

واحسرتاه عليك يا ابنتى •••

كم يتقطع قلبى من أجلك ••

ومن أجل أبيك الذى صار أخاك ••

أوديب : لا تصدقيهم يا حبيبتى •• لا تصدقيهم •••

أنتيجونا : (يزداد نشيجها)

أوديب : لقد أطلقوا الكذبة وصنعوها •• ثم جاء هؤلاء العجائز فصدقوها وروجوها •• ماذا أسمع ! •• هل يبكون الآن على ؟

الجوقة : آه •• انى أبكى من أجلك يا أوديب ••

أبكى ابنتك المسكينة وبقية بناتك وأخواتك ••

لكن أمطار دموعى على طيبة لن تجف ،
طيبة التى أنقذتها ذات يوم
وحكمتها بقوة الحقيقة القوية
حتى ظننت أنك أسعد انسان
حين كنت أراك على العرش
وحولك أبناء طيبة وبناتها
كالحملان عندما تلتف حول الراعى الطيب
الذى خلصها من الذئاب
حقا انى لا أبخل بالدمع عليك
لكن أمطار دموعى على طيبة لن تتوقف
وان كنت أعلم أنها لن تروى شجرة عمرى الذابلة
ولن تعيد الخضرة الى شجرة طيبة
التى هوت بفروعها وأوراقها فى الهوة الدامية

أنتيجونا : (يرتفع نشيجها ـ يعثر أوديب أخيرا عليها ..)

أوديب : ها أنا أمسك يدك التى فرت من يدى .. (يقبلها ويغمرها بدموعه) صدقى دموعى الدامية ولا تصدقى دموعهم .. صدقينى يا حبيبتى .

أنتيجونا : أبى .. أبى ..

الجوقة : بل قولى أخى أخى ..
آه يا أنتيجونا ..
أى مصير ينتظرك يا ابنتى :

أوديب : ابنتى .. حبيبتى .. لا تصدقيهم .. هؤلاء الذين يذرفون دموع الأفاعى والتماسيح عليك وعلى .. هم الذين هللوا وصفقوا عندما رأونى على عرش طيبة .. هم الذين لم يتحركوا عندما رأوا الكذبة تحاك حول رقبتى .. واللعنــة تدبر فى الخفاء لتدمرنى وتدمر أسرتى ..

الجوقة : واها لطيبة التى تندثر وتنهار في الهاوية ..

البذور تخيب أمل الزراع وتموت فى الأرض التى حرثها والقطعان تصم آذانها عن نداء الراعى وتهلك فى مراعيها والعقم يقتل نساءها ويودى بالأحياء من أطفالها ٠

واعصار الوباء الذى اجتاحها وعصف بأهلها قد صمم ألا يخرج منها حتى تغادر أسوارها ٠

أوديب : ها أنا أغادرها يا أبناء كادموس المخدوعين ٠٠

تسحبنى ابنتى من يدى الى مصير مجهول ٠

ابنتى التى ترددون انها أختى وابنتى ٠٠

وسيخرج معي الاعصار ليدخل اعصار آخر ٠٠

وستشيعون الطاغية الذى صنعتموه

ليشيع أبناؤكم وأحفادكم طاغية آخر

الجوقة : أخرج أخرج يا أوديب

احمل دنسك ٠٠ لا تتلفت للأسوار

ألق به فى ماء البحر وطهر نفسك أو فى النار

عل الها يرحم طيبة يرفع عنها هذا الرجس ويمحو منها هذا العار ٠

أوديب : سمعت يا حبيبتى ؟ ٠٠ رجس هو أبوك وعار ٠٠ والمدينة التى ولدت فيها كما ولدت تتطهر منه ٠٠ لم يكفها دم أمك ولا دم عينى ٠٠ فأنا الرجس الذى قررت أن تنفيه حتى لا تتلقاه الأرض ولا المطر المقدس ولا الضوء الحبيب ٠٠ لكنى أسألهم فاسمعينى ٠٠ كيف يكون رجسا من أنقذ المدينة من الوباء ؟ كيف يدنسها من حل اللغز فصعق الهولى قبل أن تولدى أنت واخوتك ؟ لا تبكى يا حبيبتى ٠٠ لا تبكى يا صغيرتى ٠٠ جففى دموعك واسمعينى ٠ قبل أن نغادر هذه الأرض عليك أن تسمعينى ٠٠ أتركى أباك المسكين يفتح قلبه لك ٠٠ قلبه الذى طالما ضمك اليه حين كنت تبكين ولا تسكتين حتى تعبثى بشعر لحيته ٠٠ دعيه يدافع عن نفسه أمامك ٠٠ دعيه يبرر تهمته التى ألصقها به الذئاب والكلاب والعناكب التى نسجت مؤامرتها فى الظلام ٠٠ لا تتلفتى لهؤلاء الشيوخ المخدوعين الخداعين ٠٠ سيسمعوننى اذا شاءوا ٠٠ واذا شاءوا ينصرفون ٠٠ أنت وحدك التى أريد أن تسمعنى وتفهمنى ٠٠ أنت وحدك يا حبيبتى الصغيرة ٠٠ أتنظرين الى المدينة الغافية من بعيد ؟ لا تنتظرى شيئا ولا أحدا ٠٠ « اسمينا » تلعب هناك ولا تكترث بشيء ٠٠ ربما تقطف الزهور

من بستان القصر لتزين جيدها الناصع المغرور ·· ربما تعبث مع رفيقاتها وتتسلى بالقاء كتبها فى الجدول الصغير ·· ربما تغازل شابا من وراء سور البستان ·· أخويك تنتظرين ؟ لن يجيبك أحد مهما ناديت ·· انهما يجربان ألعاب الشباب أو يتصارعان على عادتهما خارج المدينة ·· الرفاق يتفرجون عليهما ويصفقون ·· ورأساهما العنيدان تنقهلما أحلام المجد وتعصف فيهما رياح الرعونة الهوجاء ·· اسمعيني ياحبيبتى ·· اسمعى آخر كلماتى ·· لا يهمنى أن ينتهى العالم كله ·· لا يعنينى أن تشير الى جميع المدن كأنى ضبع ضار أو ذئب ملعون ·· لا يهمنى أن أخرج من طيبة كغراب مشئوم ·· كل ما أريده أن تعرفى الحقيقة ·· والحقيقة أن أباك لم يدنس بارادته ولن يدنس ·· لقد دفع الثمن قبل أن تسحقه الأسطورة وتسحق أسرته ·· هل تسمعوننى أنتم أيضا أيها الشيوخ ؟ أين أنتم ؟ لماذا غاب صوتكم ؟ أوديب المنقذ يتكلم ·· أوديب الطاهر يتطهر ·· يدفع التهم التى صدقتموها بعد أن صنعتموها ·· نعم أيها الشيوخ ·· اسألوا أنفسكم مرة واحدة : ألم تكن رغبته فى المعرفة هى التى دنسته ؟ ألم يصمم أن يعرف نفسه فأحرقها وجلب عليها الخراب ! انه لا ينتظر جوابكم انه يقف أمامكم الآن ويسأل نفسه ·· لا يبالى ان سمعتموه أو انصرفتم عنه ·· أنتيجونا وحدها ··

أنتيجونا : أبى ·· أبى ·

أوديب : أنت وحدك وحدك يا حبيبتى التى يريد بحديثه ·· وعلى صدرك وحدك تسقط دموع ذكرياته ·· فاسمعينى يا حبيبتى ·· كونى عينى الثالثة وانظرى معى فى سطور الماضى ·· الماضى الذى أفتحه الآن أمامك ·· أمامك أنت وحدك ·

أنتيجونا : أبى ·· أبى (تبكى)

الجوقة : (فى صوت رهيب) تكلم يا أوديب ··

- ٢ -

أوديب : انظرى يا ابنتى ترى أباك يشتعل بنار الشباب ·· يحوم كالفراشة حول أنوار الحكمة · يسأل الكتب التى يلتهمها فتصمت أو تنطق كلمات لا تفهم · انه يتنقل فى قصر أبيه وأمه فى كورنثة ولا يكف عن السؤال · يتجول في شعاب الجبل والوادى ويتطلع

للنجوم ولا يكف عن السؤال • يختلط بالناس فى السوق والجبل
والحقل والمعبد فيشير اليه الجميع : هذا هو الحالم الذى سيعيش
ويموت وعلى شفتيه سؤال وذات يوم تحدانى أحد الشبان هـل
تستطيع يا ابن الملوك أن تبـارز بالحربة وبالسيف كمـا تبارز
بالأسئلة والألغاز ؟ ثبت عينى فى عينيه وقلت : لو كانت كل الألغاز
كهذا اللغز لهان الأمر • قال ساخرا وهو يمتشق سيفه : ولكنه
يحتاج الى الشجاعة • قلت وأنا أجرد سيفى وأفاجئه بطعنة فى
صدره : ان كان هذا هو الحل فخذ ! ارتمى على الأرض وهو يصيح:
قتلتنى ولم تحل اللغز ! أقبل الرفاق فمنعونى من الاجهاز عليه •
قالوا : مخمور لا يفيق دائما يجرح غيره • فاتركنا الآن نداوى
جرحه • قلت : لن أتركه حتى يكشف عما فى صدره ، حتى يتكلم
عما يقصده باللغز • تأوه من الألم وصاح : تعرف كل الأشياء
ولا تعرف نفسك • تسأل عن كل الأشياء ولا تسأل من أنت •
اندفعت نحوه وأنا أهتف : لا تسأل من أنا ؟ وهل تعرف أنت ؟
أن أنين المذبوح : آه ! انى أتألم من جرحى ، لكنى أتألم لك • لست
ابن أبيك •• جريت الى القصر كمن لدغته أفعى واندفعت الى حجرة
أبى فوجدته راقدا على فراش المرض مفتوح العينين • صعد بصره
وقال : ولدى ؟ أشفقت عليه فلم أنطق • أشار بيـده النحيلة
فاقتربت منه وطالعت على وجهه الطيب المكدود آثار الصراع مع العلة
القديمة • ابتسم وقال : ماذا يريد البرىء الجرىء ؟ ماذا يريد حبيب
الفقراء والحكماء ؟ قلت : وأخشى أن أخرجه من شفتى اعتدل فى
فراشه وهو يتأوه من الألم : ماذا يضنيك يا ولدى ؟ كتاب نبحث
عنه ولا تجده فى خزانتى التى أتيت عليها ؟ قلت : بل سؤال
أكتمه منذ سنين حتى أثاره اليوم شاب مخمور تصارعت معه •
ضحك وقال : مخمور ؟ تتلقى منه سؤالا أو تنتظر جوابا ؟ أنت
يا أوديب ؟ قلت : أبى •• من أنا ؟ رفع حاجبيه دهشة : من أنت ؟
ألم أنطق الآن باسمك ؟ تلعثمت وأنا أشهد التجاعيد التى تتلوى
على وجهه : لا لا •• أقصد •• ربت على كتفى وضمنى الى صدره :
أنا أعرف قصدك أكثر منك • الحكيم الصغير مثلك لا يسأل عن
شىء زائل • ها أنذا أموت يا ولدى وعندما يقترب الموت لا يبقى
غير سؤال واحد : ما الانسان ؟ هذا هو السؤال الأكبر يا ولدى ••
أما من أنت فهذا أمر واضح • لم أملك عينى من الدمع • لم أستطع
أن أتحكم فى صدرى الذى أخذ يعلو ويهبط • أردت أن أصرخ :
أقصد من أبى ؟ ومن أمى ؟ هل أنا حقا ابنك وهل أنت حقا أبى ؟
لكننى لم أقو على اخراج كلمة واحدة • رفعت رأسى عن صدره •

جففت دموعى ‥ قلت : ربما يستطيع العراف فى دلفى أن يجيبنى ‥ قال متعجبا : العراف فى دلفى ؟ هل يعرف من أنت سواك اذهب يا ولدى ‥ اذهب الى فراشك ٠ لقد توغل الليل ٠ والليل يفرخ مسوخ الأسئلة السوداء ٠ اذهب يا ولدى فالفجر ينتظرك ‥ قلت : وأنا أقبله أذهب يا أبى حتى لا يطول انتظاره ٠ ضحك وهو يتابعنى بعينيه الكليلتين ٠ لم يدر أنه يرانى لآخر مرة ، واننى سأسمع بعد ذلك عن موته دون أن أراه ٠ نزلت على سلم القصر مسرعا ٠ كان تصميمى على الخروج هو الذى يحث خطاى ٠ ولم أكد أهبط الدرجات حتى أحسست بثقل يشل قدمى ويقبض على صدرى ٠ رجعت مرة أخرى فأسرعت الى حجرة أمى ، فتحت الباب عليها فوجدتها نائمة ٠ تأملت الوجه الطيب الذى طالما ضمنى اليه٠ هل يمكن أن أغضب الآلهة فأفزعه من نومه وأسأله : أأنت وجه أمى أغلقت الباب برفق ورجعت أهبط الدرجات بين دهشة الحراس وابتسامهم وعندما وقفت على الباب الخارجى لم أستطع أن أتلفت ورائى ٠ كان السؤال الكبير يجذبنى اليه وينادينى ٠ وكنت أحلم أن أسمع الجواب على لسان العراف فاندفعت على الطريق الطويلة بلا تردد ٠

الجوقة : الطريق الى دلف طويل شاق
لكن طريق الآلهة محفوفة بالضباب ٠
ها أنت تقف أمام المذبح وتلقى السؤال
انى أتخيلك يا أوديب ولا أكتم الخوف والاعجاب
تكلم ‥ ماذا حدث هنالك مما أجهل ؟
ماذا كان جواب العراف ؟

أوديب : أجل أيها الشيوخ ‥ لم أجد الجواب ٠ لم يأذن لى أحد بالدخول الى المعبد ٠ أوقفونى على الأبواب وأنا الذى كانت الحراس تفتح لى الأبواب قلت لهم : ابن ملك وملكة يمد يديه بالسؤال وقالوا : بيد خالية حتى من الماء والزاد ؟ قلت : تركت كل شىء وجئت أقف على الأعتاب ٠ قالوا : أين هداياك وأين عطاياك ؟ أين الأضحية وأين القربان ؟ قلت : ان وجدت الجواب فسوف تغمركم هداياى ٠ قالوا : أى جواب وعلى أى سؤال ؟ قلت : سؤال الأسئلة أيها الكهان ٠ من أنا ؟ ما أصلى ومصيرى ؟ ومن الانسان ؟ فاجأنى صوت يخرج من جوف المذبح : رجل لا يكف عن السؤال ٠ تقدم يا أوديب ! يا قاتل أبويك ويا من تنجب من الرحم الذى خرجت منه ٠ ارتعش القلب ورفرف مذعورا فى صدرى ، صحت بمن نادانى :

سخف ما قلت وحق الأرباب ! لن أرجع أبدا للقصر ولن تبصر عينى الأم ولا الأب • تضاحك صوت النبوءة حتى ارتجت جدران المعبد : قدر قدر من قبل عليك•لن ينفعك رجوع ، لن يجديك هروب •• أذعن للقدر ومن نسج خيوطه ! صحت : ومن نسج خيوطه ؟ اله هذا أم نصف اله قاسى القلب ؟ بعد قليل قال الصوت : وستصبح ملكا يا أوديب ؟ سخرت منه وقلت : ملكا أصبح أم قاتلا ردد الصوت الملك القاتل يقتل بعد قليل أو ينفى •

ركبت موجات النبوءة المضطربة ، واجهت البحر الثائر كالربان القادر• أرعدت وأبرقت وأرسلت صواعق غضبى : ومن قال انى أسعى للملك وقد تركته وراء ظهرى ؟ اننى عابر سبيل • واذا صح كلام المخمور فانى لقيط صار ابن ملك وعاد ابن الملك فصار شحاذا ــ قلت لك لقد تخيلت عن الملك •• رد قائلا تخيلت عن ملك لا تستحقه وستحصل على ملك لا تريده ــ صحت بأعلى صوتى : انما أريد أن أحل اللغز ••• قال الصوت : ستحله يا أوديب ولن تحله •• اشتد بى الغضب فقلت : من حق الانسان أن يكذب نبوءة لا يصدقها العقل رد الصوت : هذا من حق العقل لكن القلب له شأن آخر • والنبوءة قد تصدق وتكذب • قلت : ولكن يجب أن تفهم ضحك الصوت لا تتعجل ستفهم يا أوديب لكن بعد فوات الوقت ضربت جدار المذبح بيدى وصحت : بل أفهم •

وأحل اللغز • تمدد الصوت فى أذنى كظل الوحش الرابض فى الغابة ألم أقل لك ؟ ستحل اللغز ولا تحله • وستقضى على الوباء وتسبب الوباء • ستجلس على عرش المدينة وتدمر المدينة • وستقتل الوحش وتصبح وحشا يقتله وحش •• اذهب يا أوديب •• اذهب يا أوديب قدرك لن تفلت منه •• صحت : وسؤالى ؟ هل أذهب قبل أن تجيب عليه ؟ قال الصوت مودعا : وستذهب أنت وأذهب مثلك وعلى الشفتين سؤال •• هذا قدرك يا أوديب •• هتفت يائسا لكنى سأتحدى القدر • سأتحداه • جلجلت الضحكات : اذهب وتحداه •• صحت : والى أين أذهب ؟ الى أين ؟ دوت الضحكة كالزلزال : الى طيبة •• الى طيبة • ضربت الأرض بقدمى وبكيت وضحكت : طيبة ؟ ماذا أفعل فى طيبة ؟ انك لم تجب على سؤالى •• طاردتنى الضحكة : اذهب لتجيب عليه بنفسك •• أذهب •• أذهب ••
الجوقة : خفية هى أسرار الآلهة

كامنة كالشجرة داخل البذرة الصغيرة

والويل لك ان حاولت أن تشد الشجرة قبل الأوان •

ضع البذرة فى الوعاء المقدس ،
تعهدها بالماء والضوء والهواء
لا تخف ان تعرضت للأمطار والأخطار
وعندما تغمرك الشمس فجأة وبلا انتظار
ستجد المأوى فى ظل الشجرة الكبيرة ٠٠

اوديب : ليس صحيحا ما تقولون ٠ فقد غمرتنى الشمس ولم أجد الظل ولا المطر ولا المأوى ٠ وعندما استبد بى الدوار ورحت أحترق ويتصاعد منى البخار كأننى فحمة ملتهبة ، جلست تحت صخرة على جانب الطريق الضيق ذى الشعب الثلاث ٠ الجبل أمامى صخر والوادى حولى قفر ٠ والجوع مع الغضب الحارق فى جوفى جمر ٠ وغفوت قليلا ثم فتحت على أصوات قريبة منى ٠٠ كان فى الأنق غبار ٠٠ وموكب صغير يجرح الأقدام على الطريق المترب الخانق بالبخار لمحت نساء وأطفالا ورجالا يحملون متاعهم القليل على أكتافهم ٠ فقراء هؤلاء الناس ، مزارعون أو رعاة مما تنبت الأرض من أشواك ٠٠ مروا على وتوقفوا ليستريحوا فى ظل الصخرة الكبيرة التى كنت أحتمى بها سألنى شيخ عجوز ــ الى أين يا بنى ؟ قلت : مسـافر يا عمى ٠ قال شاب يبدو على وجهه الاعياء : الطريق طويل ٠ حذار أيها الشاب قلت : اطمئن انى أعرفه وأعرف هدفى ٠ قال الشيخ : سافر كما تشاء لكن لا تتهور ٠ قلت : ماذا تقصد ؟ قال لا تقترب منه طيبة ٠ سألت ٠ أهى قريبة من هنا ؟ قال الشاب : أقرب مما تظن قدماك وأبعد مما يتصور عقلك ٠ رفعت عينى الى الشيخ فنظر الى وقال : نحن من أبناء طيبة ٠ لم تخرج منها كما يخرج الناس من الأبواب ٠ لقد تسللنا من ثغرة فى السور قاطعه الشاب : بل حفرناها بأظافرنا فى الظلام ! قلت ولـماذا لم تخرجوا من أبوابها ؟ تعجب الشيخ وقال : وهل يخرج أحد من طيبة أو يدخلها ؟ ألم تسمع ياولدى بالهولى ؟ ألم تسمع بالوباء ؟ قلت : الهولى ؟ والوباء ؟ ماذا أسمع ؟ قال الشاب : منذ أن ظهرت العذراء ذات المخالب وهى تتربص بالـداخل والخارج ٠ تطرح عليه اللغز ثم تقتله ٠ قلت : اللغز ؟ ما هو هذا ؟ ماذا تقصد ؟ قال الشيخ : لا أقصد شيئا يا ولدى ٠ نحن فقراء لا نحل الألغاز نحونا من الوباء بمعجزة ٠ ونبحث عن أرض نتنفس فيها الهواء ٠ أنا وهؤلاء الصغار ٠ هيا يا أولادى ٠٠ هيا يا أولادى ٠٠ ناديت عليه قبل أن يغيبهم الجبل عن بصرى : كلمنى عن الهولى ٠ صف لى الوباء ٠ انصحنى يا شـيخ ! تردد

صــوته قبل أن يختفى : حــذار يا ولدى · حــذار لا تذهب الى طيبة ! ·· لا تذهب الى طيبة ! ·· رحت أفكر فيما قال فلم أهتد الى شيء هل غادرت مدينتى وملكى لأحل ألغاز الناس أم لأحل لغزى ؟ وسقطت على صدر الهة النوم وقتا لا أعرف مداه ثم صــحوت على قرقعة عجلات على الطريق الوعر · ناديت فلم يجبنى أحد · وقفت وتعرضت للعربة فلم يكترث أحد · هتفت بأبناء الانسان فلم يرد انسان · ولسعنى سوط ألهب رأسى وكتفى فصحت : أيها الفجرة ! أما من لقمة أو جرعة ماء لعابر سبيل ؟ صاح صوت المنادى : مل عن الطريق أيها الكلب ! وقفز من العربة ثلاثة رجال سود الوجوه · لم أدر الا وقد أنزلت بهم ذراعى صاعقة من نار ، رفعت وجهى للشمس وهتفت : شكرا يا رب الأرباب زيوس ! كدت أجدف باسمك لكنك أطلقت صواعقك من يدى وذراعى · وتناهى الى صوت وقور جذبنى اليه واحتوانى : من أنت أيها الشاب المتهور ؟ نظرت فى داخل العربة فرأيت شيخا جذبتنى كذلك نظرة عينيه واحتوتنى · تأملتها لحظة وارتعشت · آه يا ابنتى ! ما الذى جعلنى أرتعش فى تلك اللحظة ؟ ما الذى جعل تلك اللحظة تسطع كشرارة البرق فى ليل العمر ؟ قلت فى غضب : ومن أنت أيها الشيخ ؟ قال الرجل فى هدوء : أنا الذى يسألك : من أنت يا ولدى ؟ صحت دون أن أنتبه الى الكلمة الأخيرة · وأنا ضيعت ملكى بحثا عن جواب هذا السؤال · قال العجوز : لكنك لم تنطق بسؤالك · صحت غاضبا : وهل سأجد الجواب لدى عجوز مثلك ؟ انى أسأل ما الانسان ؟ تفكر العجوز قليلا وقال : وتريد أن تقابل الهولى ؟ وتضيع ملكك لتفوز بملك آخر ؟ وتحل اللغز لتقضى على الوباء ؟ اذهب يا ولدى اذهب ! هتفت : بل تذهب أنت أيها العجوز أعراف أنت تهرف بالنبوءات أم قائد عصبة من اللصوص الذين صعقتهم بعون رب الصواعق ؟ قال الرجل وهو يشير بسوطه : لا تتهور يا ولدى لا تتكبر · اسمع قولى : عد من حيث أتيت قلت وأنا أتحداه بعصاى ليس قبل أن تقول لى من أنت · تضرع بصوت باك : أنا الهارب من نبوءة قديمة ليسأل الله هــذه الأرض نبوءة جديدة ــ حاذر ياولدى وارجع حاذر ياولدى · قلت : عراف كاذب · شأنك شأن العراف الآخر · لن أرجع لأبوى ولن أخشى النبوءة · قال العجوز : وتصمم على حل اللغز ؟ قلت : حتى الموت · لوح بالسوط وقال : هذا السوط سيمنعك رأفة بك · صعدت الى العربة ورأسى يحترق بنار الغضب ونار الشمس : وأنا أنزعه منك وأنزع منك الروح اذا زدت هجمت عليه وشددت السوط

من يده ، وفى لمح البصر وقع الشيخ على الأرض فشجت راسه على حجر كان قد أوقف العجلة عن السير • وحين انحنيت عليه لأساعده على النهوض التقيت بعينيه • آه يا حبيبى ! ليتنى ما نظرت الى هاتين العينين ! هزتنى الرعشة التى ظلت طول العمر تزلزلنى نفذت نظرته كالسكين بقلبى • لا لا • عانقت القلب كموجة ضوء أو ماء صاف • آه يا ابنتى ! لن أنسى تلك النظرة أبدا • لن أتخلص من تلك الرعشة أبدا • وها هى ذى تعاودنى الآن • تعاودنى وترج أعضائى المتصلبة وشعراتى البيض • تجيش وترتفع وتندم وتتدفق من عينى اعذرينى ان بكيت الآن أمامك • اعذرينى ان بكيت • • •

أنتيجونا : أبى • • أبى • • أبى •

أوديب : حبيبتى • • أنت أيضا يا صغيرتى ؟ أتبكين على أبى أم تبكين على أبيك ؟!

- ٣ -

الجوقة : الهولى تقف على أسوار مدينتنا • •

تتربص بالداخل والخارج منها •

وحش يربض فى مخبأه أم عذراء فاتنة الوجه ؟

لا نعرف شيئا لم نرها أبدا •

لكن حدثنا عنها الآباء وحدثنا الأجداد

قال الكاهن ما قال وحذرنا منها

قالت رسل الملك ابتعدوا عنها

وتغنى الشعراء بأغنية

راحت كل الناس ترددها

أغنية غامضة لا أفهمها

ولهذا أعرض عن أسرار الغيب وأشغل نفسى

بأمور العيش وما ألمسه بيدى

وما تنظره عيناى ،

أما أنت فأشفق منك عليك

لو كنت رأيتك يا مسكين لناديت : لا تتهور !

ارجع يا أوديب ! ارجع بالفرس الجامح من حيث أتيت
ارجع يا أوديب !

أوديب : لا لن أرجع أبدا · ولو سمعتكم أيها الشيوخ ما ترددت عما صممت عليه · لقد خرجت ولن أعود · حيا أو ميتا لن أعود ، كم حللت الألغاز الصغيرة وأجبت على الأسئلة البسيطة · كم قرأت فى كتب الحكماء وتحيرت مع أسرار الشعراء لكنى اليوم أواجه لغز الألغاز والأشرف لى أن أحله أو أموت على الأسوار ·

تقدمت وتقدمت · بدت قمم الجبل من بعيد وأشباح تماثيل الآلهة المقدسة · ثم برزت الأسوار وظهرت الأبواب الحديدية · سرت وسرت · وعاصفة تدوم فى قلبى ويضطرب لها جسدى كالطير التائه فى الريح · هل أدق على الباب ؟ هل أعلو السور وأنظر ؟ أين أجد مخبأها وكيف أواجهها ؟ هل أناديها : أخرجى أيتها الهولى التعسة ! أم أترضاها بالكلمات الحلوة : أبرزى من خدرك أيتها العروس ؟ هل أعثر على خيط يهدينى اليها أم تلتف حولى خيوط العنكبوت ؟ ليكن ما يكون · ولتلتف خيوط القدر كما شاءت حول رقبتى · فأنا أحمل قدرى فى صدرى ولن أتركها تخنقنى · ولماذا سافرت · وغامرت ولمن خلقت الجرأة والجسارة ؟ ألم تخلق للانسان ؟ ألم أخرج بحثا عنه ؟ واذا خذلته فى قلبى فأين ألقاه ؟ وفجأة وأنا أتجول أمام السور سمعت الصوت · لم يكن خشنا ولا عميقا مظلما كأصوات النبؤات · كان رقيقا يوشك أن يخرج من فم ناء :

ــ تتقدم أو لا تتقدم ؟ انى أراك حائرا ·

ــ بل أتقدم · لقد تركت ملكى وأرضى ولن أعود ·

ــ الا بعد أن تحل اللغز ؟ أليس كذلك ؟

ــ نعم ·· هذا ما أنويه ·

ــ وهل تعرف الثمن أيها الشاب ؟

ــ أعرفه وأريد الآن أن أعرفك ··

ــ تعرفنى ؟ يا لك من جرىء متهور !

ــ هذا ما أطلقوه على وقد صممت أن أخترق السور أو أموت عليه ·· هيا أرنى وجهك ··

ــ ولا تخاف !

ـ لا أنكر خوفى ..

ـ ألم يحكوا لك عن الهولى ؟

ـ وعن عذراء لها مخالب مقوسة .

ـ ولا تخاف أن تنشب المخالب فى رقبتك لتشرب دمك ؟ لا تخاف أن تطأك بقدميها وتسحق جسمك الهش ؟ لا تخاف ..

ـ أخاف .. أخاف .. قلت هاتى ما عندك ؟

ـ اذا أدر وجهك نحوى أيها الشاب الجميل .

ـ لن يصعقنى جمال وجهك ..

ـ لا تجزم بشىء قبل أن تراه ..

ـ ولن تخنقنى خيوطك ..

ـ حتى لو كان فيها خيطك ؟

ـ لن أتركه يلتف على .

ـ اذا لم يلتف عليك الآن فسيخنقك غدا .

ـ تعودت ألا أفكر فى الغد . اللحظة هى ما يعنينى . هيا !

ـ من سبقك كانوا مثلك .

ـ وأعلم أين هم الآن .. فى جوفك ..

ـ جمال وجهك لا ينبىء عن قسوة قلبك ..

وبرز الوجه من المخبأ الصخرى . وجه أجمل من أفروديت . حزين كقمر شاحب أو شمس غاربة . تنبعث منه أشعة حسن طاغ . سألت نفسى : وجه هذا أم فخ ؟ خاطبتها فى همس :

ـ ما أجمل هذا الوجه : هل يمكن أن يكون لصاحبه قلب قاس ويد قاتلة ؟

ـ تأمله ثم احكم ..

أوديب : أوشكت أن أغرق فى الجمال الذى نسجته ألحان جميع الشعراء. لكننى أفقت كالغريق وحولت وجهى سريعا حتى لا يجذبنى فتنهشنى المخالب . ضحكت واستمرت فى الضحك وقالت :

الهولى : لا تنظر وجهى . أنظر يدى ..

أوديب : لا وجهك ولا يديك . هاتى اللغز !

الهولى : ألا تتطلع لمن حاصرت طيبة ، وصنعت الوباء ، وسفكت دماء

الأبطال ؟ ألا تحب أن ترى العنكبوت التى غزلت خيوط القدر الفظيع وأوقعت فيها المدينة البائسة ؟

أوديب : لا أصدق ‥ لا أصدق ‧

الهولى : ألم تعرف من قبل أن وجه الغدر ساحر جميل ، أن يد الخديعة ناعمة الجلد والأظافر ، أن قلب الظلام ساكن عميق ، أن خيوط الكذب رقيقة دقيقة ؟

أوديب : سأمزق هذه الخيوط ‥

الهولى : (تقترب منه) وتمزقى ضلوعى ؟

أوديب : (مبتعدا) ألم تنسجى بها القدر الفظيع ؟ ألم تنثرى بها بذور الموت والعقم والجدب والفناء ؟ ألم تحولى طيبة ‥

الهولى : أنا ؟ يد واحدة تصنع هذا ؟! انك تعطينى قوة لا أملكها تنسب لى شرفا لا أستحقه ‥ ما زلت غريرا أيها الشاب ‥ آه ! نسيت . لم تقل لى اسمك ‥

أوديب : وكيف غاب عن لوح قدرك ؟ ألم تنسجى خيوط قدرى ؟

الهولى : كم تضحكنى ! كانوا مثلك مغرورين ‥

أوديب : لكنى لست مثلهم ‧ هاتى لغزك ‥

الهولى : قبل أن ترينى وجهك ؟ قبل أن تقبلنى ؟

أوديب : أقبل الأفعى فى نابها ؟ أدخل قدمى فى جحرها ؟

الهولى : سامحتك الآلهة ! لست مخيفة الى هذا الحد ‧ (تبكى)

أوديب : دموع الأفاعى ‧ أعرفها جيدا فلا تخدعينى ‥

الهولى : وهل تعرف أننى مخدوعة ؟

أوديب : والوباء ؟ والجدب والموت والخراب ؟ وطيبة التى تنكفىء على بؤسها كجثة عجوز ‥

الهولى : لو منحتنى قبلة واحدة لعرفت أنى لست مثلها جثة ولا عجوزا ‥

أوديب : تعلمت من الأموات أكثر مما تدرين ‥ لن تخدعينى أيتها ال ‥

الهولى : الأفعى والعذراء والكلبة المغنية ‥ الا أستحق مع ذلك قبلة منك ؟

أوديب : بأى حق ؟

الهولى : لأنك لو حللت اللغز فسوف تقتلنى ··

أوديب : أو تقتلينى ·· ليس فى هذا جديد ··

الهولى : لا تفرح قبل الأوان ··

أوديب : لم آت لأفرح أو أحزن أتيت لأحل اللغز ·

الهولى : تتعجل موتك أو موتى ·· لم أعرف أحدا قبلك فقد الصبر الى هذا الحد ·

أوديب : وسترين أننى لم أفقد الشجاعة ··

الهولى : فلماذا تتردد ؟

أوديب : عن أى شيء ؟

الهولى : شجاع وغبى ·· دائمـا ما يجتمعان فى واحد · ألا تسـاوى التضحية من جانبى ·· ؟

أوديب : ما هى هذه التى تساوى تضحيتك ؟

الهولى : القبلة الصغيرة أيها الغبى ··

أوديب : وما الفائدة اذا كنت ستموتين ؟

الهولى : أموت على صدر المنقذ من الوباء ·· أهذا شيء قليل ؟

أوديب : خدعة جديدة ؟ لقد تعلمت ممن سبقونى ··

الهولى : ستعرف أنك لم تتعلم ما يكفى ··

أوديب : لا يهم ·· سيعرفه شيخ شاب شعره وانحنى ظهره ··

الهولى : وبكت عيناه بحور الدم · وارتكب أفظع ما يرتكب انسان أو حيـوان ·

أوديب : لن يكون أفظع مما ارتكبته أنت ···

الهولى : ما زلت تعطينى قوة لا أملكها ·· تنسب لى شرفا لا أستحقه القبلة أولا ·

أوديب : اللغز أولا ·

الهولى : واذا حللته وقتلتنى ··

أوديب : ربما فكرت فى تقبيلك ··

الهولى : اننى لا أتسول أيها المغرور ·· ولو قتلتنى فلن أموت ··

أوديب : لغز آخر ·· ؟

الهولى : لأننى أبعث دائما من جديد ٠٠ كلما عصف الوباء بمدينة وجدتنى أقف على سورها ٠ أسأل نفس السؤال وأنتظر نفس الجواب فاذا حله البطل شب وباء آخر فى أجساد البشر وأرواحهم وظهرت مرة أخرى على السور ٠٠ ستقتلنى أيها الشاب ولكننى لن أموت ٠ ستقتلنى ولن أموت ٠٠

أوديب : أو تقتليني وأحيا فى بطل آخر ٠٠

الهولى : وسنلتقى من جديد ٠٠ ويومها لن أطالبك بشىء ٠٠ لأنك ستكون عجوزا بلا أسنان ٠٠

أوديب : اذا فأجلى طلبك الى ذلك الحين ٠٠

الهولى : لأقبل قبرا ؟ لأعانق جثة ؟ القبلة يا أوديب !

أوديب : اللغز أولا ٠٠

الهولى : عنيد كالصخر مثل كل الأبطال ٠٠ شجعان وأغبياء ٠٠

أوديب : أعدك ألا أحرمك منها ٠٠

الهولى : تتعجل موتك أو موتى ٠٠ لا بأس ٠٠ يبدو أن القدر قد دبر كل شىء ٠ أن تكون البطل أوديب ٠٠ وأكون أنا الضحية ٠٠ التفت الى يا أوديب ٠٠ لست كريهة الى هذا الحد ٠٠ لست قبيحة كما صوروا لك ٠٠ وعندما تعرف ٠٠

أوديب : عرفت كل شىء ٠٠

الهولى : مغرور وجميل ٠٠ هل عرفت هذا أيضا من الكتب ؟

أديب : ماذا تقصدين ؟

الهولى : أننى لست كما صورونى ٠٠ أننى الضحية التى يقدمها كل الأبطال ٠٠ أن الأبطال كذلك يصبحون ضحايا ٠٠

أوديب : تنظرين للمستقبل ٠٠

الهولى : بل للماضى ٠٠

أوديب : وأنا لا أنظر الا للحاضر ٠٠ لا أشعر الا بالواجب ٠٠ لا أفكر الا فى الانقاذ ٠٠ طيبة تنتظر أيتها العذراء ٠٠ طيبة تحتضر وستموت ان لم تقدمى اللغز ٠٠

الهولى : وأنا سأموت اذا استطعت أن تحله ٠٠ (تبكى)

أوديب : لكنك ستعودين ٠٠

الهولى : وسنلتقى كما قلت لك ٠ ويومها لن أطالبك ٠٠

أوديب : أعدك أن أعطيها لك ·· لكنك لن تخدعيني ·· هات لغزك أولا ··

الهولى : ألا تلتفت الى على الأقل ؟

أوديب : (يلتفت ثم يدير وجهه بسرعة) الأفضل أن يصعقنى لغزك ·· على أن يصعقنى جمالك ··

الهولى : لن أتركك تلح على ·· قل أيها الشاب العنيد المغرور ·· قل يا من عرفت وفكرت وصممت ·· يا من حللت كل الألغاز ولم يبق سوى هذا اللغز ·· (فى صوت غامض) : ما هو ذلك الذى يحبو فى الصباح على أربع ويسير فى الظهر على اثنتين ويتوكأ فى المساء على ثلاث ؟

ما هو هذا أيها الجميل البرىء ؟ ما هو أيها الغبى العنيد ؟

أوديب : (ضاحكا بصوت عال) ها ! ها ! ها !

الهولى : وتضحك أيضا ؟ انك أول من يضحك ·

أوديب : كانوا يرتعشون أمامك ·· كانوا ينتفضون من الرعب ·

الهولى : منى أيضا ·· ومن اللغز ·

أوديب : (يضحك ··· يزداد ضحكه)

الهولى : وتصر على ضحكك ؟ ·· هل عرفته ؟

أوديب : أرأيت يا أوديب ؟ هذا ما جئت تبحث عنه ·

هذا ما تركت من أجله ملكك وأرضك وشعبك ··

هذا من تبحث عنه ·· هذا من تبحث عنه ··

الهولى : من ؟ من يا أوديب ؟

أوديب : أيتها الهولى ·· أيتها الهولى ·· هو من يقف أمامك ··

الهولى : يقف أمامى ؟ ما أكثر من وقف أمامى ··

أوديب : هو من تنظرين ولا ترين ·· من تسمعين ولا تفهمين ·· من تخدعين ولا تعرفين ··

الهولى : وهو من يخدع نفسه ·· من لا يعرف نفسه ··

أوديب : وهو كذلك أحيانا ··

الهولى : بل فى كل مكان وزمان ·· من ؟ من ؟

أوديب : أما زلت تسألين ؟ اسمعى اذا ·· هو الانسان ·

الهولى : حقا يا أوديب ·· لم يعرفه أحد قبلك ·· آه ! آه !

أوديب : معذرة ·· لم أقصد أن أوذيك ··

الهولى : لن ينفعنى اعتذارك ·· اننى أموت ·· (تتهاوى مصعوقة) ·

أوديب : وأنا لا أنسى وعدى ·· (يسرع اليها ويقبلها) آه يا ابنتى ! وكانت شفتاها باردتين ·· قبلتها وأنا أصرخ ·· حتى الجمال يموت أيضا ·· وارتفع صراخى وأنا أحمل جثتها بين يدى : أوديب ، أوديب آ أحقا حللت اللغز ؟ أحقا حللت اللغز ؟!

- ٤ -

أوديب : « هل أنا فى هاديس ؟ أتلفت : حولى أشـباح وظلال ، خلفى أشباح وظلال أم أنا فى طيبة ؟ طيبة ذات البوابات السبع ؟ لا لا ·· انى أنكر عينى ·· عينى تنكر ما تبصره هذا قبر ·· هذا قبر ·· قلبى يرتجف من الرعب » هذا يا ابنتى ما قلته لنفسى وأنا أخطو أول خطوة على الطريق · لابد اننى هبطت الى العالم السفلى · لابد اننى أخطأت الطريق · أتكون الهولى حلما أو هما من أوهامى ؟ هل أنا حقا من حل اللغز ؟ من كشف قناع السر عن الانسان ·· وها هو يسعى للانسان ؟ مر على ذلك اليوم الذى لا أنساه · ساعدينى يا ابنتى كى أتذكر · ساعدونى أيها الشيوخ يا من كنتم حينئذ صبية وشبابا ·· حاولوا أن تتذكروا ··

الجوقة : نحن نذكرك يا أوديب

يا من أقبلت لتنقذنا من الوباء

يا من مزقت خيوط اللغز فهوت العنكبوت

سقطت فى هاديس فابتلعتها كلبة الجحيم

وتعالت صيحتها فى آذان المنكوبين

أوديب : أجل أيها الشيوخ · لابد أن صيحاتها أيقظت الأموات · والأموات بعثوا من القبور · ارتفع صوت بعد صوت وانطلق رسـول بعد رسول ، وأقبلت الحشود من كل اتجاه · كالغربان الجائعة حطت من كل سماء · يتعثر جسمى فى أشلاء تصدم عينى الأوراق الصفراء تجرحها الأشجار العجفاء ·· يمدون الى الأيدى والأعين والأعناق · ينفجر نور فى قلبى يشتعل سؤال : أنتم أبناء الانسان ؟ من يقف على قدميه ويرفع رأسه · يشمخ بجبين عال نحو الشمس · ويمد يديه الى الأنجم ، يسرج منها مصباح الأمل ، يضىء ظلام الأرض ·

اخــوتى : أبنـــائى ! ما الذى جعلكم تدبون على الأرض كالديدان والحشرات ؟ أى لص خطف منــكم النـــار التى أتاكم بها جدكم الشجاع ؟ وتردون أيها الشيوخ وتقولون :

الجوقة : ليس لصا واحدا بل لصوص عديدون سرقوا منا النار وسرقوا النور ربطونا الى الصخور وسلطوا علينا النسور حتى صرنا صخرا وحجارة ·

أوديب : واكتفيتم بالبكاء والأنين ؟
ووقعتم مشلولين عاجزين
تفقأ الجوارح عيونكم ولا تتحركون
تأكل النسور أكبادكم ولا تنطقون ؟

الجوقة : دعونا الآلهة وصلينا ،
أرسلنا الرسل الى المعبد وسألنا
النبوءة قالت : لعنة
والكاهن فسر ما قالته النبوءة ،
قلب عينيه المطفأتين وقال :
قدر حل بطيبة
لن يرفعه الا قدر مثله
دنس ملعون لوث طيبة
ويطهره دنس مثله ·

أوديب : قدر ··· دنس ·· لعنة
كلمات لا أفهمها ··

الجوقة : نحن كذلك لم نفهمها
فصبرنا وسكتنا ··

أوديب : وعجزتم عن حل اللغز فسلمتم
واستسلمتم للذل فمتم

الجوقة : رحنا ننتظر المنقذ
حتى جئت ··

أوديب : ويلى منكم ! ويلى منكم ! هل ينقذكم الا أنتم ؟

الجوقة : هل تطرح لغزا آخر يا أوديب ؟
أنت المنقذ أنت
أنت البطل وأنت الملك
وأنت الراعى يا أوديب

أوديب : بل انسان لا يتميز عنكم
يقف على قدميه ويطلب منكم
أن تقفوا فوق الأرض
تكونوا أنتم ··

الجوقة : بل أنت البطل المنقذ
والملك القائد والراعى الملهم

أوديب : وتعالت الأصوات كهدير البحر وقصف الرعد : البطل المنقذ · الملك القائد · الراعى الملهم يا أوديب تقدم ! يا أوديب تقدم !

كان الموكب قد التأم وانضمت اليه حشود وحشود · انتعض الموتى الذين أهلكهم الجدب والجوع فأخذوا ينادون ويغنون : البطل المنقذ · الملك القائد والراعى الملهم · الجموع تشير الى وتهتف : يا من حل اللغز تقدم وأنا أسأل نفسى : هل حللت لغز لأواجه ألغازا ؟ أقتلت الهولى لأجد أمامى آلافا أخرى ؟ وتنضم الى الجموع أمواج من الحرس تزف الموكب · ووفود من النبلاء وأعيان المدينة · ويبدو القصر من بعيد ، ترفرف فوقه الأعلام والزينات يسطع بأنوار المشاعل فى وهج الشمس · ويشق الصفوف وجه مهيب تطل منه عينان صارمتان ·· مرحبا يا أوديب ! اسأله : وتعرف اسمى فيرتفع صوته : النبوءة صدقت يا ولدى · حتى اسمك ! لم يغب عنها · أتلفت للرجل المهيب وأسأل : ومن أنت ؟ فيضحك الشيوخ ويقولون :

الجوقة : نعم ضحكنا · قلنا يا أوديب
ذ هل يجهل أحد سيد طيبة ؟
من يرعى الأمن ويحكم فينا بالعدل ؟
من تنام المدينة باذنه وتصحو باذنه ؟
هل يجهل أحد كريون ؟

أوديب : هل أنت الملك ؟

كريون : بل جئت أسلمك مقاليد الملك ·

أوديب : وبيد من كانت قبلى ؟

كريون : بيد من ذهب ولم يرجع ·· ولهذا وضعنى هؤلاء الشيوخ بدلا منه ··

أوديب : هل ذهب قبل ظهور الوباء ؟ وانطلق صوت أجش عميق · ألتفت الى مصدره فأرى شيخا أعمى يتقدم نحوى وصبى يسحبه من يده ·

الشيخ الأعمى : النبوءة صدقت يا ولدى . فلماذا تسأل ؟

أوديب : يسأل من يريد أن يعرف .

الشيخ : ألم تشبع من السؤال ؟ ألم تحل اللغز ؟

أوديب : والآن أسمع ألغازا أخرى .

الشيخ : أتركها للقدر يجيب عليها النبوءة ستجيبك عنها . الاسطورة مسطور فيها .

أوديب : القدر ؟ النبوءة ؟ الأسطورة ؟ هل أقتل هولى كى تبعث أخرى ؟ الآن .

كريون : الآن تؤجل أسئلتك .. تجلس فوق العرش وتحكم .

الشيخ : وأباركك وأضع التاج على رأسك .

أوديب : أنا لم آت لأحكم .

الجوقة : أنت الحاكم منذ اليوم .

أوديب : وسكت وأخذت أنظر اليكم يا أهل طيبة . نظرت للرجل المهيب والشيخ الأعمى فعرفت . ثم أنشأت أقول بصوت عال : أنا لم آت لأحكم . جئت لأتعلم منكم وأعلم أن الحاكم لا يتحكم . أن السلطة لا تتسلط لا تظلم . والحاكم انسان منكم لا لغز مبهم . اسألوا أنفسكم يا أهل طيبة : من ذلك الذى يحبو فى الصباح على أربع ويسير فى الظهر على اثنين ويتوكأ فى المساء على ثلاث ؟ لقد صعقت الهولى حين أجبتها : هو الانسان . لم يتصور أن يعرف انسان نفسه . لم يتصور أن يملك قدره . أن يحل اللغز ويحطم الأسطورة . لقد حللت اللغز يا أهل طيبة وجئت لكى تحلوا ألغازكم . مزقت نسيج الأسطورة التى التفت حول رقبتى وجئت لتمزقوا أساطيركم . ليس الانسان دودة ولا الها انظروا الى قلوبكم تجدوه . قفوا على أقدامكم تعرفوه . أطلقوه من أقفاص صدوركم . علموه كيف يغنى ويحب ويعمل ويفرح . علموه ألا ينخدع بقفص ولا يأمن لصياد . عشتم أمواتا فتعالوا نتحدى الموت . سقطتم فى الهاوية فهيا نبدأ من الصفر . أهلككم الوباء فلتكونوا وباء عليه . أنا لم آت لأحكم أو أتحكم بل جئت لأبدأ معكم منذ اليوم . لم آت لأصبح هولى أخرى .

الجوقة : أنت قتلت الهولى يا أوديب . أنت قضيت على الوباء يا أوديب

أوديب : يمكن أن تزحف هولى أخرى . مئة أو ألف . يمكن أن يذهب وباء ويأتى وباء أشد .. فلنبدأ منذ اليوم .. فلنبدأ منذ اليوم ..

الجوقة : فلنبدأ يا أوديب ·· فلنبدأ يا أوديب

أوديب : وأشار كريون بيده فاحتبس الصوت الهادر ·· والتفت الى وقال :

كريون : بل تبدأ منذ الغد · المنقذ يحتاج الى الراحة · اذهبوا الآن أيها الشيوخ والأبناء والزوجات والبنات · أما الملك فيدخل الآن الى القصر فالجائزة الكبرى تنتظره ··

الجوقة : بل جاءت بنفسها يا كريون هاهى ذى تتقدم منه ما أسعده بالزوجة والملكة ما أسعدها به أما نحن فنذهب ونعود صباح الغد

كريون : أختى ؟ ها هو ذا المنقذ والملك الزوج · أما نحن فنذهب أيضا ·· هيا يا تيريزياس · هيا يا أبناء مدينتنا هيا ·· هيا ··

أوديب : آه يا ابنتى ! كيف أنسى هذه اللحظة ؟ نظرت فرأيت سيدة جليلة تقف أمامى وتبتسم · لماذا شعرت بالرهبة والحنان ؟ لماذا أحسست أننى أريد أن أقبلها وأن ألقى رأسى على صدرها وأغيب فى أحضانها لماذا اشتعل دمى وارتجف قلبى فى آن واحد ؟ لابد أن عينى قد زاغت فلم أر شيئا ولم أحس أحدا حتى أفقت على قبلة تطبع على جبينى ويد تضغط على ذراعى وصوت دافىء يمتد الى ويقتادنى : يا ملكى وولدى الحبيب ·· لقد غابت الشمس وذهب الجميع ألا ندخل الى القصر ؟

٥

أوديب : وازداد شعورى بالرهبة حين وقفت على باب المخدع · كانت أمك قد أخذتنى من يدى ودارت بى فى أبهاء القصر وحجراته وشرفاته وتجدد عندى الاحساس بأنى فى هاديس أخرى · انى والمرأة الجليلة الممتلئة التى تسير بجانبى شبحان تائهان · لن يلبث أن يهبط البنا الملك الزوج الغائب فيقبض على صدرى ويسألنى : ماذا تفعل فى بيتى ؟ كيف تفكر فى الدخول الى مخدعى وتدنيس فراشى ؟ بل كدت أتخيل نفسى أمام محكمة الآلهة الذين يثبتون فى عيونهم ويهزون رءوسهم وخطوت الى داخل المخدع فارتفع وجيب القلب وزاغ البصر وتاه · كنت أستند الى الجدار حين أقبلت على ومدت يدها فأخذت يدى وهمست فى حنان ·

جوكاستا : مضطرب أم خجلان ؟

أوديب : لا أدرى · احساس لا يمكننى وصفه ··

جوكاستا : هل كنت تتوقع جائزة أخرى ؟

أوديب : أنا لم أتوقع شيئا ٠٠

جوكاستا : ويظل البطل بلا جائزة ؟ ألم تعده النبوءة بزواج الملكة ؟ هل يمكن أن تبخل طيبة على من قتل الهولى وخلصها من الوباء ؟

أوديب : طيبة لم تبخل على ان كنت قد أعطيتها شيئا فما زال على أن أعطيها

جوكاستا : يبدو يا أهل كوزنثة أنكم مختلفون عنا ٠ أم أنك زهدت فى المكافأة بعد أن رأيتنى ؟

أوديب : ماذا تقصدين ؟

جوكاستا : ربما كنت تنتظر شيئا آخر ٠٠

أوديب : قلت لك لم أنتظر شيئا قلت لك

جوكاستا : أنك أعطيت وتعطى ٠ لكن عطايانا

أوديب : تكلمى أفصحى عما تريدين ٠٠

جوكاستا : لعلك توقعت امرأة أخرى ٠٠ عذراء فى مثل سنك وشبابك حلوة الوجه لم تنبت فى رأسها شعرة بيضاء ٠٠٠ (تبكى)

أوديب : تبكين يا ٠٠ (تضع رأسها على صدره فيضمها اليه)

جوكاستا : جوكاستا ٠٠ حتى اسمى لم تسأل عنه ٠٠ (تقبله) أنا أيضا كنت شابة يا أوديب ٠

أوديب : قبلتك تقول : وما زلت ٠٠

جوكاستا : أعلم أنى فى عمر أمك ٠٠

أوديب : (يقبلها) : وزوجتى وحبيبتى ٠٠٠

جوكاستا : وأننى قبل سنوات توازى عمرك كان لى ولد أيضا ٠٠

أوديب : وأين هو ؟ لابد أنه الآن شاب قوى ٠ هل يتجول مثلى فى أرجاء الكون ؟ هل أمرته نفسه أن يحل لغزا آخر ويقتل وحشا آخر يتربص بمدينة أخرى ؟ هل ٠٠

جوكاستا : هل ٠٠ هل ٠٠ الآن أصدق ما سمعته عنك ٠٠

أوديب : وماذا سمعت ؟

جوكاستا : أنك لا تكف عن السؤال ٠ هل تنسى أن السؤال يلد أسئلة أخرى أن كل جواب يحمل بذرة سؤال جديد ٠٠ هل تعلم يا صغيرى المسكين ؟

أوديب : أعلمه ؟ ٠٠ انى أحياه ٠ وهل جاءنى الى هنا شىء سواه ؟

جوكاستا (ضاحكة) : لا شيء ؟ ! حتى الجائزة التى بين يديك ؟

أوديب (يقبلها) : لم تتكلمى . أين ذهب صغيرك الآخر ؟ مع أبيه ؟

جوكاستا : ليته ذهب معه فى ذلك اليوم . لو فعل لتغير حالى .. لكن النبوءة شاءت أمرا آخر ..

أوديب : دعينا الآن من النبوءة ..

جوكاستا : وكيف أنساها ؟ كيف أنسى ما حدث (تبكى) سأل الآلهة فقال الكاهن

أوديب : تيريزياس !

جوكاستا : وكيف عرفت ؟

أوديب : أكملى ماذا قال ؟

جوكاستا : أنذره أن الطفل سيقتله يوما .. لم يكتف بهذا ..

أوديب : ماذا ؟ ماذا قال ؟

جوكاستا : ولم اللهفة ؟ آه يا أوديب . لا أدرى ان كان على أن أضحك أو أبكى

أوديب : عليك أن تكملى ..

جوكاستا : لكى تعرف .. دائما تريد أن تعرف . قال ويتزوج أمه ..

أوديب : ولهذا أمرته النبوءة أن يتخلص منه ..

جوكاستا : ولم يكتف بهذا .. ما أبغضه من زوج .. ما أتعسه من أب ..

أوديب : وتلعنينه أيضا ؟

جوكاستا : بل أستمطر اللعنات عليه .. لا أقوى حتى أن أذكر اسمه ..

أوديب : يستحق اللعنة من يتخلص من ابنه ..

جوكاستا : ويستحقها مرتين من يشيع بين الناس أن أمه هى التى تخلصت منه . انها هى التى سلمته لمن يلقيه وحيدا فى الجبل ، وحيدا بين أنياب الوحوش وجوارح الطير .. (تبكى)

أوديب (يربت على كتفيها ويضمها لصدره) : معذرة يا جوكاستا . انسى ما قلت .

جوكاستا : وتساعدنى على النسيان ؟

أوديب (يقبلها) : وتساعدك بنات وأبناء تعوضك عنه .. وحنان أبيهم ..

جوكاستا : تحتاج اليه أم حرمت منه .. عشرين سنة يا أوديب ..

أوديب : يا زوجتى وأختى وأمى وحبيبتى ..

جوكاستا : يا زوجي وأخي وولدي وأب عيالي (يضحكان) .

أوديب : وضحكنا في تلك الليلة وبكينا · وعرفنا معنى الحب ومعنى الجسد ومعنى الخوف ومعنى الأمل وداعبناهم حتى طلع الصبح · وظللنا نداعبهم كلما ولد لنا ولد أو بنت · جاء أخواك أولا يا ابنتى · كم فرحنا بهما وكم دللتهما ولعبت معهما لعبة الفارس والحصان · كم تابعناهما بعيوننا وهما يكبران ويتصارعان على ركوب الخيل ورمى الرمح · وكم حاولت أيضا حين كبرت أن تهدئى نزواتهما وتعقدى الصلح بينهما دون فائدة · آه يا صغيرتى ! كنت دائما أما صغيرة · نموت أمام أعيننا ونما معك ضميرك الذى عذبك كثيرا وسوف يعذبك يا ابنتى · وشعرت بأنك مسئولة عن أخويك · وعن أختك التى تكترث بشىء · الا أن تنظر فى المرآة وتتأمل حسن ملامحها فى ماء النبع وتنسج قصص الحب مع الصبية والخلان · الا أنت يا حبيبتى الا أنت ··

انتيجونا : أحبك يا أبى ·· أحبك يا أبى ··

أوديب : وهل كنت أعيش بغير الحب ؟ هل كنت بغيرك أنت سأدعى بين أهالى طيبـــة بالأب ؟ هـذا هو أوديب الزوج الصـــالح ، هذا هو أوديب الأب · فى كل مكان أظهر فيه تطرق سمعى نفس الكلمات : أوديب الراعى · أوديب الأب · أوديب المنقذ من فم الموت · وكما تعلمت منى الحب علمتنيه · رحت أنثر بذوره فى كل أرض · أذهب للزراع وأغرس معهم بـذر الحب وبـذر الحب · ينمو الزرع ويورق ، يزدهر ويتمر ، يجرى فى دمهم حبا فى حب أذهب للصناع فأسألهم وأحاورهم ، أعمل معهم ، أنسج ، أطرق ، أنجر ، أبنى الحب على الحب ، يأتى الشعراء الى فأستقبلهم ، أسمع منهم ، وأردد معهم حبـا فى حب · تزدهر قلوب الناس وتثمر · تزدهر عقول الحكماء وتثمر · يرتفع بناء بعد بناء ، يعمر بالحب وينبض بالحب وتولد فيه أطفال الحب · رفعت الديون عن الزراع ، أخرجت المساجين من السجون · علمت الحراس أن يحرسوا المدينة لا أن يفترسوها كالذئاب · حرستهم من أنفسهم ومن الأعداء داخل المدينة وخارجها · ما اللصـوص والمذنبون فوضعتهم أمام ضمير الشعب · وجعلت القانون هو السيد · وجعلت الكل يشارك فى أمر الكل · والبحارة تشترك مع الربان · وسفينتنا تبحر آمنة فى البحر الآمن ترسو فى شط الأمن · وتوافد علينا الرسل من المدن الأخرى وهتفوا : هذه طيبة أخرى · وأقبل الغرباء من البر والبحر وتعجبوا : طيبة تحيا المعجزة الكبرى · حتى الشتاء خجل أن يقيم بيننا وحل علينا ربيع

دائم • وكلما حررت بانسان فى الشارع أو فى المصنع أو فى الحقل أو المسرح هتف سعيدا أوديب بالراعى أوديب الأب • بل كان البعض ينادى : يا قديس • بفضلك صارت طيبة بستان الحب وحصن الأمن •• بستان الحب وحصن الأمن •• حتى كان صباح غابت فيه الشمس وضاع النور • كان الهمس يدور وراء ظهرى • لكننى كنت أستقبل الغد ولا أتلفت للأمس ، أواجه النور ولا أهتم بالظلال التى تمد الخناجر فى ظهرى • كنت قد لاحظت أن أمك تكثر من التطلع من الشرفة فى قلق • تجمعكم يا ابنتى وتضمكم وتقبلكم وتمنعكم من اللعب خارج القصر • وحين كنت أعود مرهقا فى المساء أو أداعبكم وأرفعكم الى صدرى تحذرنى من تدليلكم وهى تهمس خائفة : ماذا يخفى لكم القدر ؟ ماذا يخفى لنا ؟ أضحك من خوفها وأهزأ بقدرها فتقول : نمت الشعرات البيض على مفرقك وما زلت كما أنت • أضحك بصوت عال وأسأل : من ؟! فتجيب وهى تقبلكم وتأخذكم الى الفراش : نزق وجرىء وبرىء أهوج •• لا تدرى ماذا يجرى حولك أو خلفك •• يزداد ضحكى وأقبلكم قبل النوم : أنا لا أنظر حولى أو خلفى • ألم تعرفينى بعد يا أمى وأم عيالى ؟ تتجهم ، ترسل نظرات قاتمة ، تنكفىء على أحزان القلب وتسكت •

لكن الهمس بدأ يشتد يوما بعد يوم • وأبشع من الهمس أن يشيح الناس بوجوههم عنك بدلا من أن يحيوك ويفرحوا بك • وذات ليلة فاجأنا فيها برد وعواصف وظلام لم نألفه طوال السنوات العشرين • كنت راجعا الى القصر بعد جولتى اليومية فى شوارع المدينة وأسواقها • لم أكن قد انتهيت الى الفتور الذى قابلنى به الناس • عزوته الى الصقيع الذى حاصر البشر والبيوت والقطعان فى الحقول وتوقفت قليلا عند بوابة القصر لأخلع سترتى الثقيلة وأسلمها للحارس • أشاح بوجهه بعيدا ، تمتم بأصوات مبهمة • حسبته يرد تحية المساء فسألته :

أوديب : مالك يا ولدى ؟

الحارس (صمت)

أوديب : لم لا تتكلم ؟

الحارس : الأفضل ألا أتكلم ؟

أوديب : ولماذا يا حارس ؟ اهمس ان شئت باذنى •

الحارس : يكفى ما فى طيبة من همس •

أوديب : وبماذا تهمس طيبة ؟

الحارس : لا لاأقدر •

أوديب : حذرنى ان كنت أمينا . انصحنى .

الحارس : ما زلت أمينا يا أوديب . أدع كريون وتريزياس .

أوديب : أدعوهما ؟ لماذا ؟

الحارس : ان كنت تريد التحذير أو النصح ..

تركته وأخذت أدور حول القصر . كريون وتريزياس ؟ لم يتفوه باسمهما اليوم ؟ أو لم يلزم كريون داره ؟ أو لم يتخل بنفسه عن الحكم ويسلمه الى ليفرغ لتأملاته ورعاية ماشيته وقطعانه ؟ والشيخ الأعمى ؟ هل خرج من المعبد ليبث السم ألم يعكف هناك على صلواته ولم يرنى وجهه مرة واحدة ـ ماذا يحدث يا أوديب ؟

ماذا يحدث حولك ووراء ظهرك يا أوديب ؟ ..

ورجعت بخطوات متثاقلة الى القصر . كنت أقف على أول الدرج عندما لمحت صبية فى مثل سنك ، لم تكد ترانى حتى ولت هاربة . جريت وراءها . أمسكتها من يدها وأخذت أطمئنها . تذكرت أنها رفيقة لعبك . أنك كثيرا ما دعوتها معك الى حجرتك لتريها عرائسك . سألتها :

أوديب : ماذا بك يا ابنتى ؟ لماذا تقفين فى البرد والظلام ؟ لماذا خفت منى ؟

الصبية : دعنى ! دعنى !

أوديب : لن أدعك حتى تتكلمى .

الصبية : اسأل غيرى . طيبة كلها تهمس ..

أوديب : سمعت هذا من الحارس . وبماذا تهمس ؟

الصبية : أنك .. أنك ..

ويدب : تشجعى . قولى ..

الصبية : أنك قاتل والدك الشيخ

أوديب : قاتل والدى الشيخ ؟ وماذا أيضا ؟

الصبية : أنك دنست مدينتنا .

أوديب : أنا يا حبيبتى ؟ الأب والراعى والقديس ؟

الصبية : لما دنست فراش أبيك ..

أوديب : وماذا يا صبية ؟ تكلمى ..

الصبية : لا لا أقدر ..

أوديب : بل تقدرين .. قولى ما سمعت ..

الصبية : وتزوجت بأمك ..

أوديب : أمى ؟

أوديب : تركت يدى يدها رأسى تسقط كالحجر على الأرض • هربت الصَّبية مذعورة وما هى الا لحظات حتى رأيتك قادمة من حديقة القصر تتفلتين حولك • ناديتك : صـــاحبتك ذهبت يا أنتيجونا تعالى • تعالى يا حبيبتى • وقفت أمامى كتمثال صغير • فتحت عينيك دهشة ثم أخفيت وجهك بين يديك وصـــحت هاربة : لا • لا • • لا ترنى وجهك ! لا ترنى وجهك !!

عندها بكيت وأنا أسأل نفسى : هل رجع الوباء ؟ هل رجع الوباء ؟

٦

أوديب : آه يا ابنتى ! لا تريدين أن ترى وجهى • الحارس أيضا لا يريد • المدينة تتنكر لى • وسقف البيت وجدرانه تنهار على رأسى • ولبثت جالسا على الدرج طول الليل • الجميع نائمون فى حضن الليل الهامس بالأخطار • أنا وحـــدى مؤرق الجفون • أأنا حقـــا دنس يا طيبة ؟ هل يمكن أن يدنس نور الشمس الأشجار والأحياء ؟ ألم تسمونى الأب والراعى والقديس ؟ أحقا قد خرجت عن طاعة الآلهة وازدريت قوانينها المقدسة وسقطت فى الكبر والغرور ؟ ماذا ينتظرك يا أوديب ؟ أى مصير يتربص ببناتك وأولادك ؟ ماذا يحدث لمدينتك المسكينة ؟ تردد فى أذنى نداء جوكاستا من الشرفة • لابد أن القلق دفعها لأن تطل منها وتهمس فى سمع الليل المسود الوجه أوديب ! أين أنت يا أوديب ! ولكن ما أكثر الهمس فى هذه الأيام والليالى ! وحين أقبلتم أيها الشيوخ بنسائكم وأولادكم كنت ما أزال ممددا على الدرج • أتأمل مصيرى على مرايا النجوم • لمحت الذبول على وجوهكم والضنى فى أعينكم • ورأيت أغصان الزيتون فى أيديكم • وعرفت أنكم جئتم تستجيرون بالآلهة المقدسين وتقدمون القرابين والدموع والأنين • وتكلم رئيسكم فقال :

الجوقة : ماذا يحدث يا أوديب !
أحقا رجع الوباء لوطننا الحبيب ؟

أوديب : وأنا أسألكم أيضا
يا رجال طيبة ونساءها
ماذا يحدث لمدينتنا ؟

الجوقة : ان المصائب تتوالى علينا

فننظر حولنا حائرين
ويختم اله مقدس على أفواهنا
فنصمت أمام أسراره المقدسة

أوديب : كنتم دائما حائرين
كنتم دائما تنظرون وتتلفتون
واليوم وقد رجع الوباء كما ترون
ألا تتحركون يا أهل طيبة ؟ ألا تعملون ؟

الجوقة : لهذا جئنا اليك يا أوديب
يا من أنقذتنا من مخالب العذراء المجنحة
يا من خلصتنا من الرجس الذى دنس أرضنا
ها هو الرجس قد زحف علينا
طرق أبوابنا وحاصر حقولنا ومراعينا

أوديب : وتريدون أن أنقذكم
ألم أعلمكم أن تنقذوا أنفسكم ؟
ألم أضع الفأس بأيديكم لتحرثوا البستان ؟
ألم تحملوا الرماح والدروع لتحموا الحصون ؟
ألم تمسكوا المجاديف وتوجهوا السفينة ؟
والمدن الأخرى شهدت أفراحكم
وسمعت غناءكم وعزفكم على القيثار
أو لم تصبح طيبة بستان الحب وحصن الأمن !

الجوقة : لكن سقطت الفأس من يد الزارع
والمطرقة من يدع الحداد
والمنشار من يد النجار
والقيثارة خرست فى كف الشاعر •
زحف السأم على الدار وأهل الدار
ولهذا أرسلنا الرسل الى سادتنا
وسيأتون اليك الآن لتسألهم

أوديب : سادتكم ؟ أسألكم عن رجس صنعوه ؟
نفخوا فيه النار لتحرقكم ؟

الجوقة : صبرا يا أوديب ولا تنفخ فى نار أخرى
انى أمتدح الرجل اذا رضى بحكم اله
يحجب عنا السر المبهم

لا يكشفه الا الحكيم أو عراف ملهم
ها هو ذا يتقدم نحوك
يسحبه من يد طفل
وينوب عن العينين المطفأتين العكاز الأبكم
أقبل يا شيخ تقدم ·

تيزياس : ليتنى بقيت أخرس أبكم
ليتنى لزمت معبدى وصمتى
فلم أخرج منه الا الى قبرى

أوديب : ولكنك لم تلزمه يا شيخ

تيرزياس : أنا لم أتكلم · لن أتكلم ·
عبثا تطرح أسئلتك ··

الجوقة : أعرفك وأعرف أنك لن تتخلى عنا
لن تكتم عنا وحى أبوللو
أو أسرارا نقلتها الطير المسرعة اليك ·
يا من تكشف ما فى الغيب
وتبصر ما فى الأفق وتحت الأرض
ان مدينتنا ملقاة بين يديك
كالجثة يصرعها الوحش الفاتك
وهى مدينتك ومن يسكنها أبناؤك

تريزياس : الأفضل أن تدعونى فى صمتى ·

الجوقة : ولماذا الخوف ؟

تريزياس : اسألوا من صرع الوحش ·

أوديب : تعلم أننى صرعته · ولكنهم يسألونك أنت ·

تريزياس : يا من لا تخاف انى أخاف عليك أنت ··

أوديب : صمتك هو الذى يخيفنى ويخيف هؤلاء الشيوخ : تكلم اذا ولا تثر غضبى ·

تريزياس : لو فعلت فسأثير غضبا أشد ··

أوديب : الحقيقة لا تغضب العادلين ··

تريزياس : الحقيقة هى ما أقول دائما · والحقيقة تحمينى من غضبك ·

أوديب : وماذا تقول ؟

تريزياس : أيها المتغطرس ! يا من تتجرأ على حدود الآلهة ! اسمع اذا

ما يقوله الهى والهك : اعلم أنك أنت الرجس الذى يدنس المدينة ٠

أوديب : أنا الرجس الذى يدنسها ؟ أنا من دعانى هؤلاء الشيوخ الطاهر القديس ؟

تيريزياس : لكن الاله يدعوك باسم آخر ٠ وهو الذى يرى حقيقتك ٠

أوديب : وتراها أنت أيضا أيها الأعمى ؟

تيريزياس : ان كنت تسخر من عجوز أعمى فأعلم أيها القوى المبصر أنك لا ترى الخزى الذى تحيا فيه ، ولا تبصر من الذين تعيش معهم ٠ انك تصحو وتنام مع أمك التى أنجبتك ثم أصبحت زوجتك ٠ تأكل وتداعب أطفالك الذين هم اخوتك ٠

أوديب : سمعت هذا من قبل ٠ استمر أيها الأعمى ٠

تيريزياس : سأتحمل سخريتك كما أتحمل عقابك ٠

أوديب : قلت لك انى لا أخافك ولا يليق بك أن تخاف عقابى ٠ ان نزل بك عقاب فسوف ينزله هؤلاء ٠

الجوقة : اننى خائف يا أوديب
ولا أكتمك خوفى أيها الشيخ الملهم
لست أدرى ماذا أفعل ٠
فأعنا أيها الاله ذو القوس الذهبى
أرسل ، بأمر رب الصواعق ، برقك الخاطف
ليضىء الطريق أمام سادتنا
ويذيب الثلوج السوداء التى تراكمت علينا ٠

تيرزياس : اعلموا أنتم أيضا أيها الشيوخ أن الاله يرسل برقه الخاطف ولن يبدد الظلمات التى ترين عليكم حتى تتخلصوا من الدنس الذى جلب اللعنة عليكم ٠٠

الجوقة : وكيف نتخلص منه أيها الأعمى البصير ؟
أين نجده وما هى العلامة التى تدل عليه ؟

تيرزياس : لن تحتاجوا للعلامات والاشارات ٠ انه يقف أمامكم ٠ أوديب هذا هو قاتل أبيه وزوج أمه وشقيق أولاده ٠

الجوقة : أواه يا قوانين الآلهة الخفية ٠
وأنت أيها القدر الذى دبره أبوللو ٠

أوديب : لم يدبره سوى هذا الشيخ ٠ هل لديك خيط آخر تضيفه الى مؤامرتك ؟

تيرزياس : ولماذا أتآمر عليك ؟ ألست أنت الذى أخرجنى عن صمتى ؟

أوديب : ليكتشف هؤلاء الشيوخ حقيقتك ·

تيرزياس : فيسألوا أقرب الناس اليك ·

أوديب : من تقصد أيها الملعون ؟ أهى أيضا تتآمر على ؟

تيرزياس : ليسألوا شقيقها الذى كان سيد هذه المدينة ·

أوديب : آه ! أرأيتم يا أبناء طيبة ؟ لم تكن وحدك اذا ! لقد تآمرت على مع كريون لتجلس بالقرب من عرشه ·· ليكن النفى أو الموت عقابكما ·

تيرزياس : سمعت منى أننى لا أخشى عقابك ··

أوديب : وسمعت منى أن هؤلاء ···

الجوقة : اهدأ يا أوديب · وأنت أيها الشيخ الحكيم
لذ بحكمتك التى تبصر لنا ولك ··
وأنت أيتها الآلهة التى تدبر كل شيء
لا تتخلى عن سادتنا فى وقت المحنة ·
لا تتخلى عنا ··

أوديب : أما أنا فلن أتخلى عن نفسى · لن أتخلى عنكم · وسأكشف المؤامرة قبل أن يحكم هذا الأعمى خيوطها مع شركائه ، أيا كانت درجة قرابتهم لى سأعرف كل شيء أيها الشيوخ · سأعرف كل شيء ·

الجوقة : افعل يا أوديب ·
يا من خلصت مدينتنا من الوباء
لا تجعلنى أقول انك تركتنا
أو جحدت أفضال المدينة التى رفعتك الى قمم الأبطال
بينما تركتها تسقط فى الهاوية
بين أنياب الوحوش ذات المخالب القوية
والأجنحة المرفوفة كالعواصف العاتية

اوديب : وعرفت أيها الشيوخ · عرفت يا ابنتى المسكينة · اندفعت الى الهاوية كما يندفع النسر البائس · وأمك بجانبى تحاول أن تهدىء روعى وتشد الريش من جناحى · كان رسول من كورنثة قد حضر الى طيبة · أنبأنى كما تعلمون بموت أبى بوليبوس الذى تركته على فراش المرض · مات بالشيخوخة لا بيد الطفل المثقوب القدمين الذى قال الأعمى الملعون انه سيصرعه ·

وتظل أمك يا ابنتى تحذرنى وتتوسل الى :

اهدأ يا أوديب · النبؤات تكذب ولا يثق بها الرجل الحكيم · ألم أحك لك عن تلك النبوءة التي أعلنت لزوجي العجوز ؟ ألم يأت رسول من كورنثة فيبدد وهمك ؟ الطفل الذي تنبأت بأنه سيقتل أباه قد مات من زمن طويل · وأبوك كذلك مات على فراشه في كورنثة · أما أمك فهي هناك في القصر تنتظر عـودتك · اهدأ يا أوديب وسوف نزورها سويا · وستفرح بك وتضم البطل العائد الى صدرها · وستضحك من أوهامك وخرافاتك يا زوجي ، يا صاحب الرأس الحجرى العنيد · وتضمك يا أنتيجونا أنت واسمينا الى صدرها تضعكما على صدرى وهي تصيح وتتضرع باكية : من أجل ابنتيك يا أوديب ! من أجل ولديك الغائبين ! فكر في مستقبل ذريتك ، في مستقبل بناتك · ادفع عنى يدها المتضرعة فتكبو فوق الدرج وتصرخين يا أنتيجونا وتصرخ أختك · ويأتي رسول يستدعيني من داخل القصر فأخرج على عجل ويهمس في أذني بأنه قادم لتوه من السفر . وأنه فضل أن يلقاني قبل أن يدخل بيته ويرى أطفاله

وينفض عن جسده غبار الطريق · أسأله : ماذا عندك يا ولدى ؟ يتأوه ألما ويقول : سمعتها يا أوديب · سمعت صوتها الســاحر المخيف ــ من يا ولدى ؟ ــ الهولى يا أوديب · الهولى ؟! ــ أين ؟ أين سمعت الصوت ؟ يلتقط النفس الهارب ويتمتم : عند الأسوار · حول البوابات السبع ــ أسأله : سمعتها أم رأيتها ؟ ــ لا لم أرها · سمعت · سمعت · ماذا قالت يا ولدى ؟ لا أعرف يا أوديب · لم أفهم شيئا مما قالت · لكنى سمعت اسمك أو هذا ما يبدو لى · اسمى ؟ هــل نادتنى ؟ ــ يشهق بالدمع ويهتف : أخشى هــذا يا أوديب · يخرج صوت من قلب الحجر . وتخرج أصوات من جوف الأرض ، تدوى في كل مكان : أوديب ·· أوديب ·· أسأله : هل قتلت أحدا ؟ ــ لا أعلم ــ هل طرحت لغزا ؟ ــ لا أعلم · لكن هذا ما تذكره عيناى وأذناى ورجفة قلبى الخــائف : أوديب ! أوديب ! تتدخل جوكاستا في الحديث · تصيح من أعلى الدرج : نبوءة أخرى يا أوديب ! نبوءة أخرى كاذبة · أرد عليها : تعلمين أننى أحتقر النبوءات · ثم ان هذا الرجل الفقير ليس كاهنا أعمى ! تصرخ : انه يردد أسطورة ، ينقل همس الأوغاد · يلف خيطا جديدا حول رقبتك · انتظر يا أوديب ! لا تذهب يا أوديب !

أهتف بها وأنا ألوح بذراعى : تعرفيننى يا حبيبتى ·· لابد أن أعرف · تبكى وتولول : ليتك لا تعرف أبدا من أنت ·· ليتك لا تعرف أبدا من أنت ··

ويرن صوتى المبتعد مع خطواتى المسرعة الى خارج القصر ، الى خارج المدينة : لابد أن أعرف ! لابد أن أراها !

- ٧ -

أوديب : قادم اليك أيتها الهولى الملعونة ! المدينة وراء ظهرى تغط فى نومها أو فى موتها . وأنا أسرع الخطى لأواجهك وأخنقك بيدى . انتظرى أيتها الهولى الدموية ولا تشمتى . غنى ما شئت من أغانيك الغامضة فلن تخدعينى . لا تغترى بالشعرات البيض على رأسى فما زلت أسير على قدمى . لم أتوكأ بعد على عكاز ولم أزحف على أربع . أنا الانسان الذى حل اللغز وقتلك . أنا الذى وجد السر ولن يفقده أبدا . مزقت الأسطورة التى نسجتها حول رقبتى وسحقت القدر الذى فرضته على مدينتى . كيف بعثت من الموت وقد حملت جثتك بيدى ؟ كيف يسمعون صوتك وقد أسكتك الى الأبد ؟ أتكونين الحرباء التى تلونت بلون الموتى لتخدع عابرى السبيل ؟ هل عدت لتنتقمى منى أم عاد أبناؤك وأحفادك ؟ سأواجهكم أيها المسوخ كما واجهت أمكم العذراء سأنقذ المدينة من وبائكم الجديد كما أنقذتها من وبائك القديم . لن أهرب أيتها العذراء ولن أتراجع . لن يخدعنى حسنك أو سحر كلامك . وأنا أوديب القادم اليك . أوديب الذى يسير على اثنتين ولا يزحف على أربع . أوديب ...

الصوت : أوديب .. أوديب .

أوديب : أعرف صوتك .. أعرف وجهك .

الصوت : هذا وهم يا أوديب .. لم تعرف شيئا .. لم تر شيئا يا أوديب .. كنت تحلم ..

أوديب : أحلم مفتوح العينين ؟ أو لم أقتلك وأحمل جثتك على ذراعى ؟

الصوت : ونسيت ما قلته لك ..

أوديب : وماذا قلت ؟

الصوت : اننى أقتل ولا أموت .

أوديب : سأقتلك اليوم كما قتلتك بالأمس .

الصوت : وهم آخر .. لقد قتلت جدتى الساذجة ..

أوديب : جدتك الهولى ؟ كانت ساذجة ؟

الصوت : وحالمة غارقة فى الأحلام . ألم تظهر لك يا أوديب ؟

أوديب : نعم . نعم .. هناك على السور القديم . كانت على الأقل أشجع منــك ..

الصوت : ألم أقل لك ؟ كانت حالمة مثلك ..

أوديب : لأنها ظهرت لى وألقت سؤالها على ؟

الصوت : ولأنها وقفت هناك عند السور ..

أوديب : وراحت تلقى سؤالها على كل من يريد أن يدخل المدينة أو يخرج منها . ومن لا يجيب على سؤالها تخنقه بيديها ..

الصوت : كما كانت تفعل جداتها الساذجات ..

أوديب : وهل كان لها جدود وجدات ؟

الصوت : وساذجات مثلها . وقفن على أبواب بابل وطيبة التى بناها الفراعنة ورحن يلقين ألغازهن الساذجة .. كل من عجز عن حلها أنشبن فيه مخالبهن أو غرسن فيه أنيابهن أو خنقنه بأيديهن ..

أوديب : ومن حلها .. وماذا فعلن له ؟

الصوت : أصبح بطلا مثلك .. هتف الناس وغنوا له .. سموه المنقذ والراعى والقديس .

أوديب : نال ما يستحق . أى سذاجة فى هذا ؟

الصوت : أولا لأنه لم يحل اللغز ..

أوديب : كيف لم يحله ؟ ألم يكن هوالانسان ؟ ذلك الذى يحبو فى الصباح على أربع .

الصوت : أف ! .. ويسير فى الظهر على اثنين .. ألم يخطر ببالك أن الانسان أعقد من هذا بكثير ؟ .. ألم يقل لك عقلك أو قلبك .

أوديب : قالا اننى قد حللت اللغز .. وأن الهولى لم تكد تسمع حتى صرخت مصعوقة ..

قالته المدينة كلها وتغنت به ..

الصوت : وهــذا دليل آخــر على سذاجتك وسذاجتها .. لقــد صارت ذريتهم أكثر مكرا ودهاء .

أوديب : لأنها مثلك لا تقف عند الأسوار ؟ .. ولا ترى وجهها لكل مغامر ؟ ألا تقولين انكن صرتن أكثر جبنا .

الصوت : جبنا أو مكرا . الأمــر واحد . لقد خلعنا أقنعتنا القــديمة المضحكة وصرنا بلا أقنعة ولا وجوه . وتركنا الأسوار العتيقة لكى لا يتعرض لنا المتهورون من أمثالك .

أوديب : وأين تقفن الآن ؟ أين تعشن ؟

الصوت : أهذا سؤال يطرحه من حل اللغز ؟ من عاش ليسأل ويعرف ؟

أوديب : لأنى لا أرى وجها أتحداه • لأنى أسمع صوتك يأتى من كل مكان ولا أعرف له أى مكان •

الصوت : ها أنت عرفته أخيرا • نحن الآن فى كل مكان وفى غير مكان ؟

أوديب : ماذا تعنين ؟

الصوت : ألم يقل لك الوباء الجديد ؟

أوديب : قال ان اللعنةقد حلت بالمدينة •• أن رجسا أصابها ولابد أن تتطهر منه •

الصوت : وانك أنت الرجس الذى دنسها •

أوديب : كذب ! ما زلت أحقق فيه لأكشف المؤامرة التى تختفى وراءه •

الصوت : المؤامرة التى دبرها الكاهن وشريكه المتقاعد وشريك شريكه •

أوديب : وتعرفين هذا أيضا ؟ والأسطورة التى لفقوها وروجوها بين الناس فانتشرت كالريح السامة •

الصوت : انك قتلت أباك العجوز •• وتزوجت الأم التى أنجبت منها بعد أن أنجبتك •

أوديب : كذب ! حتى أنت •

الصوت : وماذا فى هذا ؟ أسطورة جديدة مثل أسطورة الهولى القديمة •• لغز جديد كاللغز القديم •

أوديب : ولكنى حللت اللغز القديم ولن أتحرك حتى أحل لغزك الجديد •

الصوت : ومن قال اننى سأطرح عليك لغزا جديدا ؟ الأمر واضح ولكنك لا تراه ••

أوديب : بل هو واضح وأراه •• أنت التى أوحيت اليهم بكل هذا •• أنت التى لفقت الأسطورة ولقنتها لهم ••

الصوت : وهذه أسطورة أخرى • لن تراها الا عندما تتعلم كيف ترى بغير عينين •

أوديب : لغز آخر ؟

الصوت : لكنه أبسط من اللغز الذى حللته ولم تحله • ستعرفه بعد فوات الأوان •

أوديب : ولماذا لا أعرفه الآن ؟ لماذا لا تظهرين لكى أثبت لك ..

الصوت : أنك ما زلت ساذجا ؟ ما زلت أعمى مثلهم ؟

أوديب : ومتى أبصر فى رأيك .. متى ؟

الصوت : عندما تغمض عينيك وترى أن الهولى فيك وفيهم . أنها تسللت الى روحك ونفذت فى دمك ، كما تسللت الى أرواحهم ونفذت فى دمائهم . أنها لم تعد فى حاجة الى الوقوف على السور أو القاء أسئلتهم الغامضة على كل عابر سبيل . ان الانسان هو الهولى . والهولى هو الانسان . هذا هو الوباء يا أوديب .

أوديب : وما شأنه بالوباء الذى يجتاح مدينتنا ؟

الصوت : هو نفس الوباء الذى اجتاح كل المدن العفنة . نفس الوباء فى كل البلاد والعصور . وعندما انهارت المدن صنع سكانها الأسطورة. وأسرع الكاهن الأعمى والحاكم العجوز ومعهما الجلاد والكذاب واللص والمرتشى والمزور والحاقد والوغد فصنع الهولى التى تقف على أبواب المدينة ، والبطل الأحمق الذى يجيب على أسئلتها ويفوز بالجائزة ، تماما كما حدث لك يا أوديب .

أوديب : كذب ! غدر وجحود ! الجميع يعلمون أننى لم أفز بالجائزة الا بعد أن حللت اللغز .

الصوت : والجميع لا يعلمون أنك حللته ولم تحله .. حتى أنت لا تريد أن تعلم أنه أعقد مما تصورت ..

أوديب : ولكننى كشفت عنه وفزت بالجائزة وجعلت طيبة ...

الصوت : بستان الحب وحصن الأمن .

أوديب : أليست هذه هى الحقيقة ؟ اسألى الجميع ..

الصوت : أسألهم وأنا أحيا فيهم ؟ انها الأسطورة يا أوديب .. الأسطورة التى نسجها الكاهن الأعمى والحاكم المتسلط والشاعر الكذاب واللص والجلاد .. الأسطورة التى أوحت بالنبوءة ، والنبوءة التى نسجت اللعنة عليك وعلى أسرتك ..

أوديب : أم أنت التى نسجتها ؟ ألا تعيشين فيهم جميعا ؟

الصوت : نعم يا أوديب .. لكننى من صنعهم . هم الذين نسجوا خيوطى وغذونى من دمهم كما يتغذى الجنين من دم الأم . هم الذين حقدوا وغدروا ، وتآمروا وزوروا ، وتسلطوا واستبدوا ، هم الذين أرادوا أن يكونوا عقارب وأفاع تلدغ ، وقرودا تقفز فوق الأكتاف ، وكلابا تقعى عند الأقدام ، وذئابا تنهش الحملان ، وضباعا تنهش

جثث الموتى الأحياء وأنا أتغذى من سمهم وأسمن على قيحهم حتى صارت طيبة غابة يسكنها آكلة لحوم البشر ·· حتى صار الانسان هو الهولى والهولى هي الانسان ··

أوديب : لا لا ·· ليس صحيحا ما قلت ·· ليس الآكل والمأكول سواء ··

الصوت : وهم آخر ·· حلم من أحلامك ·· لو قدر المأكول لأكل الآكل ··

أوديب : لقد قتلتك من أجل الضحايا ·· علمتهم أن يقفوا على أقدامهم ويعرفوا أنفسهم ··

الصوت (ضاحكا) : هل عرفوها ؟! لو ملكوا أنفسهم ما احتجت أن تقتلنى وتقتل جدتى الساذجة ·· لو صاروا سادة أنفسهم ما احتاجوا بطلا مثلك يصبح أسطورة كى يأتى بطل آخر ينقذهم منك ويصبح أسطورة ···

أوديب : وما ذنبى أو ذنبهم فى المؤامرة التى دبرت لنا ؟ ما ذنبى أو ذنبهم اذا كان كلاهما ··

الصوت : تيريزياس وكريون ؟ لم تخل المدن منهما أبدا · لن تخلو المدن منهما ومن أعوانهما · وتدور الدورة أبدا يا أوديب ··

أوديب : بل تتوقف · لابد أن تتوقف كما حطمت أسطورة جدتك سأحطم أسطورتك ·

الصوت : والأسطورة التى نسجت حولك وقبل مولدك ؟ ·

أوديب : كذب · سأثبت أنها كذبة ·

الصوت : ليتها كانت كذلك يا أوديب ··

أوديب : الرسول الذى جاء من كورنثة قد وضع كل شىء تحت عين الشمس وأمام عين الشعب · اننى لم أقتل أبى ، لأن بوليبوس العجوز مات على فراش المرض والشيخوخة · أما ميروب فسوف أزورها مع زوجتى بعد أن نبدد الأسطورة ونرفع الوباء ونتطهر من الرجس ·

الصوت : لن نتطهر منه الا حين تطهر نفسك ·

أوديب : المهم أن أطهر شعبى ··

الصوت : ليلوثه رجس آخر ·· ويحل عليه وباء آخر ·· وأبعث حية من جديد ··

أوديب : كذب ! كذب ! ستموتين الى الأبد ··

الصوت : أتظن هذا ؟

أوديب : عندما يصير كل واحد مهنم أوديب ·· عندما يتحداك أيتها الماكرة كما تحدى جدتك الساذجة ··

الصوت : الذى تحداها صار بطلا وملكا ·· هل يصبح كل سكان طيبة أبطالا وملوكا ؟

أوديب : لم لا ؟ عندما يصير كل منهم سيد نفسه ·· عندما يعرف أن الآلهة المقدسة لم تتحدث بالنبوءة ولم توح الأسطورة ·· عندما يتأكد أن خدامهم هم الذين تحـدثوا باسمهم ونطقوا الكذب على لسانهم ··

الصوت : وهل سيدفعون الثمن ؟ هل هم مستعدون للتضحية ؟

أوديب : ولم لا ؟ المهم أن يعرفوا · وسوف يدفعون أكثر مما دفعت ويبذلون أكثر مما بذلت ··

الصوت : لا أقصد الثمن الذى دفعت ولا التضحية التى بذلت ··

أوديب : وماذا تقصدين ؟

الصوت : أقصد ما سوف تدفعه وتبذله ··

أوديب : لغز جديد ؟ ألم تهزئى بالألغاز ··

الصوت : وبمن حل الألغاز ··

أوديب : كفى سخرية ·· لو كنت نفذت فى باطن كل انسان فى طيبـة لعرفت أننى حللت اللغز ··

الصوت : أنا مدينة لأسطورتك بوجودى فيهم ··

أوديب : ولكنك ستغادرين مكانك ·· ستغادرينه مذعورة مصعوقة مثل جدتك ··

الصوت : ها ! ها ! يدهشنى تهورك أكثر مما تدهشنى سذاجتك ··

أوديب : ولماذا أيتها الهولى ؟

الصوت : لأنك تتصور أنهم سيدفعون نفس الثمن الذى لم تدفعه بعد · وأنهم سيبذلون نفس التضحية التى ···

أوديب : بل أثق بأنهم سيفعلون ··

الصوت : التفـاؤل شقيق التهور · وهل عرفت الثمن ؟ هل تصـورت التضحية ؟

أوديب : لن يبخل بهما أحد لكى يكون انسانا · لن يتردد أحد عن بذلها لكى يتخلص منك ··

الصوت : وتصبح طيبة بستان الحب وحصن الأمن ؟ وتصبح كل المدن ..

أوديب : بساتين ربيع دائم . وحصون الأمن الأبدى .

الصوت : ويقتل كل انسان أباه ؟ ويتزوج كل الأبناء أمهاتهم ؟ وينتشر الوباء ..

أوديب : قلت لك كذب ! أسطورة ! نبوءة كاهن أعمى ومتآمر حقود .. ستعرفين ..

الصوت : وستعرف يا أوديب ..

أوديب : وعندها تتحطم الأسطورة ..

الصوت : وتتحطم أنت أيضا ..

أوديب : وسأرى كل شيء ..

الصوت : بعد أن تفقد بصرك ..

أوديب : لغز مضحك ..

الصوت : ليته كان كذلك يا أوديب ..

أوديب : لا يستحق أن أضيع فيه وقتى ..

الصوت : ستضيع ما هو أثمن منه .

أوديب : المهم ألا تضيع طيبة .. المهم أن يطردك كل انسان منها ..

الصوت : حاذر ألا يطردوك أنت ..

أوديب : لا يهم أيضا . سأكون قد خلصتهم منك ..

الصوت : وستكون قد دفعت الثمن ..

أوديب : وحللت اللغز ..

الصوت : كما فعلت من قبل ؟!

أوديب : اسخرى كما تشائين .. اننى ذاهب الى طيبة .. ذاهب لأطردك منها .. لأطردك من كل المدن .. لأطردك من كل القلوب ..

الصوت : وتتصور أن يصدقوا ..

أوديب : ماذا يصدقون ؟

الصوت : أنك حللت اللغز ؟

أوديب : سيصدقون ..

الصوت : ولكنك لم تحل اللغز يا أوديب .. ولم تدفع الثمن ..

أوديب : حللت اللغز ودفعت الثمن ..

الصوت : لم تحل اللغز يا أوديب ·· لم تدفع الثمن ··

أوديب : سترين ·· سترين ··

الصوت : أوديب ·· أوديب ·· أوديب ··

٨

أوديب : جئت اليكم يا أبنـاء طيبة ويا شـيوخها ·· جئت لأحل اللغز الأكبر ·· اللغز الكامن فيكم ·· ان كنت أخطأت فها أنا أصلح خطئى · ان كنت قتلت الهولى الرابضة على سور مدينتكم فها أنا أدعوكم لقتل ·· الهولى الرابضـة فى أعماق نفوسـكم · تعالوا نطردها من مدينتنا ، من بيـوتنا ، من أروحنا ودمائنا ، من نومنا وأحلامنا ·· الهولى يا أبناء مدينتنا ·· ونظرت فى عيونهم يا ابنتى فوجدتها كالزجاج المعتم · وتطلعت الى وجوههم فرأيت آلهة الصمت الساخرة تبتسم وتحدق فى · قال رئيس الجوقة :

رئيس الجوقة : أية هولى يا أوديب ؟ أية أحلام ؟

أوديب : اننى قادم من عندها · لم تظهر عند السور كما فعلت من قبل · لقد أصبحت داخلكم · تسللت الى ضمائركم ·

رئيس الجوقة : هل تحلم يا أوديب ؟ أتكلم نفسك يا ربان سفينتنا ؟ ريح الموت العاصفة ستغرقنا فاستيقظ يا أوديب ··

أوديب : لقد سمعتها وكلمتها ·· أنا لا أحلم ··

رئيس الجوقة : بل تحلم مفتوح العينين ·· لكنك لا تبصر هذا الراعى ··

أوديب : الراعى ؟ أية راع ؟

رئيس الجوقة : ألم ترسل فى طلبه ؟

أوديب : نعم · نعم · وكلفت اثنين من خدمى بالبحث عنه · لقد عاهدتكم يا أبناء طيبة ··

رئيس الجوقة : أن تبحث عن قاتل لايوس وعن مصير الطفل الذى ألقى فى الجبل · وها أنت تطرق كل الأبواب وتسلك كل السبل حتى تعرفه·

أوديب : حتى لو كان الموت جزائى · حتى لو كان الثمن حياتى ··

رئيس الجوقة : ها هو يقف أمامك فاسأله يا أوديب ·

أوديب : وصحت بالراعى العجوز أن يتقدم · وأشرت الى الرسول القادم من كورنثة وأمرته أن ينظر فى وجهه · ويطالع سطور السنين المحفورة فى جلده وهتفت بالجميع : اننى لا أخاف شيئا يا أبناء طيبة ليكن

أصلى ما يكون فلن أخجل من وضاعة مولدى · لقد صممت أن أعرفه وأن يعلنه هذا الشيخ أمامكم · واذا ظهر أن هذا الرجل الواقف على حافة القبر هو أبى أو هو الذى ربانى فى الجبل الموحش أو فى الغابة الكثيفة الشجر فلن يخجلنى هذا وسيفتخر هذا الراعى العجوز بأنابنه أو ربيبه هو الذى حل اللغز وقتل الهولى وقضى على الوباء ·· هيا أيها الشيخ ·· هيا أيها الرسول الغريب تعرف الغريب على الراعى · وتردد الراعى فلم يشأ أن يتكلم · واحتمى بكهف نسيانه فانتزعته منه ·

أوديب : ان لم تتكلم فسوف أرغمك على الكلام ·· سآمر بأن توثق يداك خلف ظهرك ··

الراعى : لم هذا ؟ ماذا تريد أن تعرف ؟

أوديب : الطفل الذى يتحدث عنه هذا الغريب على أعطيته له ؟

الراعى : ليتنى هلكت فى ذلك اليوم ··

أوديب : هذا مصيرك ان لم تقل كل ما عرفت ·

الراعى : ولكنى هالك اذا تكلمت أيضا ··

أوديب : لابد أن تتكلم حتى لو هلكت أنت وأنا وكل هؤلاء الشيوخ ·· ابن من كان هذا الطفل ؟ أكان ابنك ؟ هل أعطاه لك شخص آخر ؟

الراعى : مولاى لا تسألنى أكثر من هذا ··

أوديب : لا تحاول الهرب · كل هؤلاء يعلمون أننى أوديب الذى يسأل ولابد أن يعرف ··

الراعى : أوديب ذو القدمين المثقوبتين ·· ما أبشع أن أقول ما أعرف ··

أوديب : وما أبشع أن أسمعه · ولكن لابد من سماعه ··

الراعى : سلموه لى يا مولاى لكى ألقيه فى الجبل ··

أوديب : من سلمه ذلك ؟ تكلم أيها الرجل ·

الراعى : لا أدرى يا مولاى كنا فى الليل فلم أر اليد التى أعطته لى · لم أتبين فى الظلام ان كانت يد أبيه أو أمه ··

أوديب : ومن أبوه وأمه ؟

الراعى : لا تسألنى يا مولاى · لا أعرف ارحم شيخوختى وضعفى ··

أوديب : وهل رحمت أنت ذلك الطفل المسكين ؟

الراعى : نعم يا مولاى · وليتنى ما فعلت · كان موثوق القدمين ففككت

قيده كان على أن أتركه للوحوش وجوارح الطير فعهدت به الى هذا الشيخ ..

أوديب : ولماذا تندم على انقاذه ؟ هل أمروك بقتله ؟ ولماذا فعلوا هذا ؟

الراعى : سمعت أنهم فعلوه لكى لا يقتل أباه .

أوديب : رضيع يقتل أباه ؟ هل سمعتم بهذا يا شيوخ طيبة وأبناءها ؟ ومن الذى قال هذا ؟

الراعى : قالته نبوءة مشئومة ..

أوديب : سمعتم ؟ نبوءة أعلنها تيريزياس ؟

الراعى : لا أعلم يا مولاى ..

أوديب : ورواها كريون وأعوانه .

الراعى : لا أدرى عمن تتحدث ..

أوديب : ولا هؤلاء الشيوخ يدرون . لكن النبوءة قيلت على لسان أبوللو . والأسطورة نسجتها اليد الخفية ثم نسبتها للآلهة .. أما أنت فأخذت الطفل الى الجبل ..

الراعى : لم أتركه وحده كما أمرونى . سلمته لهذا الشيخ رحمة به . ليتنى ما فعلت .. ليتنى ما فعلت !

أوديب : هل عدت الى الندم لأنك أشفقت على الطفل وسلمته له ؟

الراعى : اسأله يا مولاى ..

أوديب : لقد سألته وأجاب . قال انه أنقذ الطفل الواقف أمامك وسلمه لملك كورنثة ..

الراعى : ويلى .. ليتنى مت قبل أن يتحرك لسانى .

أوديب : ولماذا تتمنى الموت ؟

الراعى : ان كنت أنت الذى أنقذناه فاعلم أنك بائس مسكين ..

أوديب : لان النبوءة صدقت ؟

الراعى ورئيس الجوقة (معا) : وقتلت أباك الذى أنجبك . وعشت مع من لم يكن ينبغى أن تعيش معهم ، وألقيت بذورك فى نفس الرحم الذى خرجت منه ..

أوديب : (ضاحكا) النبوءة .. النبوءة .. اسمعوا يا أبناء طيبة واحكموا. صرخت الجوقة وبكت وراحت تنعق كالبوم ..

الجوقة : ويلاه ! ويلاه !
ماذا نسمع يا أوديب ؟

هل صوت الرعد القاصف فى الآذان
وصواعق زيوس الحارقة
تثير الضحك الرنان ؟
اخجل من نفسك يا أوديب ! ..
اخجل من نفسك يا أوديب ! ..

أوديب (مستمرا فى الضحك) : أأخجل من نبوءة أعمى ؟
من أسطورة طاغية
أمعن فى الطغيان ؟

الجوقة : ويلك أنت الطاغية
وأنت الطغيان ..
أنت الرجس فغادر طيبة
منذ الآن ..
غادر طيبة منذ الآن ..

أوديب : وضحكت يا ابنتى كما لم أضحك فى حياتى. وتلفت الى الشيوخ فلم أر الوجوه التى كانت تتطلع فى وجهى . لقد التفت فى عباءاتها السوداء وراحت أجسادها تنتفض كأنما اهتز من تحتها الزلزال أو انفجر البركان . واندفعت الى القصر وأنا لا أدرى ان كنت أضحك أم أبكى أم أصرخ. وصعدت الدرج لاهث الأنفاس. خيل الى أننى سمعت صرخة رنت فى أذنى كعواء كلب مسعور . وعبرت البهو الكبير والصرخة ما تزال تدوى فى سمعى. ودفعت باب الحجرة التى تنامين فيها مع اخوتك . هل شعرت ساعتها بأننى عملاق أوليمبى يتحدى آلهة القدر أم طفل مرتعش القدمين ينوح عند مهد أطفاله ويغسل أقدامهم الصغيرة بدموعه ؟ كانت الحجرة مظلمة الا من بصيص نور باهت يتسرب من الشموع الموقدة فى البهو . وفتحت عينيك الواسعتين يا حبيبتى فى الظلام وجلست فى سريرك وأنت تهمسين : أبى ؟

تحسست رأسك الجميل وشعرك الناعم وربت على صدر أختك النائمة وقلت : النبوءة ياصغيرتى ! النبوءة تريد أن تحرمنى منك؟ قلت : النبوءة ؟ مامعنى هذا يا أبى ؟ صحت بأعلى صوتى : النبوءة التى روجوها فى كل مكان . الأسطورة التى نسجوها قبل مولدى. منذ عشرين سنة وهم يسوونها على نار الغدر لتحرقنى وتحرقكم. منذ عشرين سنة وهم يفترون على الآلهة ويكذبون على لسانهم

وطيبة تصدق مايقولون وشيوخها يتأوهون أمام القصر ويبكون . طيبة تلقى الفأس من يدها وتخرس القلم والقيثارة وتترك الدفة للأعاصير . طيبة قررت أن تقتل أباك ياحبيبتي،أن تسحقه وتسحق أبناءه وملكه وبطولته .. وفجأة سمعت صـوتها .. صوتها المهيب الحنون يتسلل الى ظلام الحجرة ويسحبني منها فأنقاد اليه كالحجر الأخرس .

جوكاستا : أوديب !.. أوديب !..

وأستسلم للأنفاس المتقطعة والعينين الدامعتين وأنا أقول :

أوديب : جوكاستا ؟!

جوكاستا : دع الأطفال وحدهم يا ..

أوديب : ماذا ؟ أتبكين ؟ ماذا جرى لك ؟

جوكاستا : لاأدرى بم أدعوك ..

أوديب : أنت أيضا ياحبيبتي ؟

جوكاستا : حبيبتك ؟ زوجتك أنا .. أو....؟

أوديب : جوكاستا ! هـل سمعتهم ؟ أيمكن أن تصـدقيهم ؟ أيمكن أن تصدقي النبوءة التي حذرتني منها ؟

جوكاستا : ان كانت كاذبة فأين الحقيقة ياأوديب ؟

أوديب : الحقيقة أنني أحبك أنت وأولادنا وبناتنا .

جوكاستا : وأنك زوجي وابني ...

أوديب : وتقولينها ياجوكاستا ؟ أنت التي شجعتني على تحديها ؟ أنت التي تعلمين أنها من صنعهم ؟..

جوكاستا : من صنعهم أو من صـنع الآلهـة .. هـل يغير هـذا من الحقيقة ؟

أوديب : الحقيقة .. الحقيقة .. لقد صنعوها يا حبيبتي ونسبوها للآلهة .. اختلقوها ليلقوا شبكتها علينا وعلى أولادنا ..

جوكاستا : أولادنا ؟ هل قلتها بنفسك ؟

أوديب : بالطبع يا حبيبتي ..

جوكاستا : حبيبتك .. وزوجتك أم ..

أوديب : لاتقوليها .. لاتدعيها تخرج من شفتيك ..

جوكاستا : زوجتك أم أمـك ؟ وأنت ؟ زوجـي أم ابني ؟.. زوجي أم ابني ؟

ويلاه .. ويلاه .. ويلاه ..

وجرت مذعورة كشبح خائف في سراديب هاديس • وصراخها ينفذ كالسهام في سمعي ولحمي وعظمي : زوجتك أم أمك ؟ زوجي. أم ابني ؟ ويلاه •• ويلاه •• ويلاه •• وتسمرت في مكاني كأني شجرة أمرها رب الصواعق أن تبقى في مكانها حتى يحرقها بشواظه • ثم أفقت على صوت هبط على فأحسست بأني صرت فحمة سوداء • واندفعت الفحمة في طرقات القصر وأبهائه تصطدم بالأبواب والجدران • وتعالت صيحات الحراس وأنا أجرى في كل اتجاه وأصطدم بأجسادهم ودروعهم • وأخيرا وصلت الى باب المخدع فدفعته على مصراعيه ودخلت • واشتعلت الفحمة وتوهجت بنيران الغضب والرعب • وجرت تصطدم بالأبواب والجدران والأجساد والدروع • سيفا أيها الحراس ! سيفا أيها الكلاب ! ألا ترون سيدتكم ؟ ألا ترون الحبل الذى تتدلى منه ؟ سيفاً أيها الحراس ! سيفا أيها الكلاب ! ولمع حد السيف على ضوء المشاعل فقبضت عليه واندفعت • وهجمت على الحبل وقطعته • وسقط الجسد الحبيب على فراشنا سقوط الصخرة من أعلى الجبل • وعلى صوت صراخك ياابنتى أنت وأختك نزعت المشابك الذهبية من شعر أمك وملابسها ورحت أدفعها في عينى لكى لا أراكم • وانطلقت صيحاتى المظلمة مع شلال الدم المظلم من عينى فلم أعد أبصر شيئا • رن صوت مهيب وراء ظهرى : فلتفتح الأبواب ليرى أهل طيبة قاتل أبيه وزوج أمه ••

فلتفتح الأبواب ليرى أبناء طيبة الرجس الذى دنس أرضها •• وشعرت بكفك الصغيرة المرتعشة تمتد الى يدى وتشدد قبضتها عليها وأحسست بماء صاف ينساب فوق النار الحارقة فيطفئها ، ويمر على فوهات البركان فيخمد أنفاسه الملتهبة • وشددت على يدك الصغيرة ياحبيبتى وأنا أتلوى ألما لصراخك وأصرخ معك : نعم ! افتحوا الأبواب ولينظر أهل طيبة ماذا فعلوا بالبطل المنقذ من هول الهولى •• ماذا فعلوا بالأب الراعى والقديس •• افتحوا الأبواب •• افتحوا الأبواب ••

- ٩ -

وفتحت الأبواب ياابنتى ••• وأخذتم ياأبناء طيبة تنظرون الى من كان ملككم وراعيكم وقديسكم • مفقوء العينين رأيتمونى والدم المظلم يلطخ خدى ويدى وثيابى • والصرخات محتبسة في صدرى كصخرة تسد فمى • ويدك الصغيرة تتشبث بيدى وترتعش من هول الموت الذى

لايفهمه عقلك الصغير · ويرن صوت مهيب من خلف ظهورنا :

كريون : أنظروا ياأبناء طيبة الى قاتل أبيه وزوج أمه ··

وتنزاح الصخرة قليلا فيخرج صوتى المحبوس :

أوديب : لا يليق بالقاتل أن يشمت بقتيله ··

كريون : مازلت متغطرسا كما كنت · أما أنا فلا أشمت فيك بل أتركك لهؤلاء الشيوخ والأبناء ليقضوا فى أمرك · ان منظرك يثير اشفاق العدو نفسه ··

أوديب : أولى بك أن تشفق على أختك التعسة وتقوم بمراسم دفنها ··

كريون : وهذا ماكنت أنويه الآن · أما أنت ··

أوديب : أما أنا فسوف أطلب منهم أن يقتلونى أو ينفونى أو يرمونى فى البحر ··

كريون : ليس لك أن تطلب منهم شيئا ، فسوف ينفذون أمر الآلهة ،

أوديب : أمر الآلهة أمرك أيها السيد الجديد ؟

كريون : لن أرد عليك ياأوديب · سأترك أمرك لهؤلاء ولقوانين الآلهة· واعلموا ياأبناء طيبة أنه الرجس لاينبغى أن تراه عين الشمس ، ولا أن يلمسه المطر المقدس · أما أنتم أيها الحراس فتعالوا معى لنؤدى واجب التقوى نحو الجسد الذى دنسه هذا الشقى ··

أوديب : هذا الابن الملعون والزوج المشئوم ·· أليس هذا ماتريد قوله ؟ أليس هذا ماتفكرون فيه ؟

وأخذت يدى يا حبيبتى فنزلنا الدرج خطوة خطوة · واستقبلتمونا بأنين كبكاء الريح المحزونة فى سمع الشجر المحزون :

الجوقة : من هذا الذى أراه أمامى ؟
الى أى بحر خضم من البؤس تتجه قدماه ؟
أليس هو الذى حل اللغز المشهور !
أوديب الذى جلس على عرش طيبة
وصار أقوى وأسعد انسان
وتقدمت منكم وأنا أقول :

أوديب : وصار أتعس انسان
لأنه حاول أن يعرف
ولم يدر أن المعرفة هى الموت والهوان

الجوقة : ويلاه ! ويلاه !
انى أنتفض من الرعب لمنظرك المؤلم

وأرتعش كالبحارة الذين تهزهم الرياح
حين يرون ربان سفينتهم الغارقة
يتخلى عنها للعاصفة العاتية
ويغادرها كغراب مشئوم ..

أوديب : لم أتخل عن السفينة ولا عنكم
أنتم تخليتم عن أنفسكم

الجوقة : نحن تخلينا عن أنفسنا ؟ ماذا تقصد ياأوديب ؟

أوديب : مددت يدى لأنقذكم من الغرق

الجوقة : ودعوناك المنقذ والربان
وهتفنا : أنت الأب والراعى والقديس

أوديب : ثم تركتم أيديكم
للذئب الغادر
والكلب الحاقد
والقرصان الفاجر ..
أسألتم أنفسكم يوما
كيف يعيش القديس العابد
وسط كلاب وذئاب ؟
صنعوا النبوءة ، نسجوا الأسطورة ، فسكتم
قالوا طاغية ، فرضيتم

الجوقة : بل قالوا جاوزت الحد ولم ترع قوانين العدل
صممت على معرفة القاتل ، لا تعلم أن القاتل أنت ..

أوديب : صممت على معرفته من أجلكم .

الجوقة : وتمردت على النبوءة والأسطورة ..

أوديب : لأخلص نفسى وأخلصكم

الجوقة : يا أشقى الناس جميعا . ليتك ما كنت عرفت ولا كنت تمردت .

أوديب : ليظل الوباء يهلككم ؟ لتبقى الهولى تحاصركم وتنفذ فى دمائكم ؟

الجوقة : لكى لا تصبح طاغية ، فتعاقبك الآلهة ، وأى عقاب ..

أوديب : أسألتم أنفسكم : من صنع الطاغية أو الطغيان ؟ أنتم .. أنتم ..

الجوقة : نحن ؟ هل تلقى التهمة حتى لا نصرخ فيك : دافع عن نفسك ؟

أوديب : وما جدوى الدفاع والاتهام ؟ انكم ترون ملكا فقد ملكه ، وأبا حطم أسرته . وشـقيا يترك أرضـه الى أرض أخـرى لا يدنسها

ولا تدنسه .. هل تذكرتم الطفل المثقوب القدمين ؟ من قيده وأمر بأن يلقى فى الجبل وحيدا ؟

الجوقة : الملكة والملك السابق ؟

أوديب : بل أنتم ! أنتم ! سمعتم عن الجريمة وسكتم . لفقت وراء ظهوركم ورضيتم . قيل لكم : حتى لا تصدق النبوءة . أى اله قاس يحكم على طفل تعس ؟ أى اله يقضى على رضيع فى يومه الثالث ؟ ألم يخطر ببالكم أن الآلهة لا ترضى بهذا الظلم ؟ أن الكهنة تلعب بأقدار البشر ؟

لماذا تركتم كريون يحكمكم بعد أن ارتكب هذه الجريمة ؟ لماذا دعوتم الكاهن الأعمى ليقرأ لكم الغيب ويرى ما لا ترون ؟ ومات لايوس فلم يسأل أحدكم : كيف مات ؟ وتركتم كريون يدبر أموركم دون أن تسألوا أنفسكم : ألا يمكن أن يكون قد دبر الجريمة ؟ وجاء الرواة يحكون لكم أن قطاع الطريق هاجموا الملك عند مفترق الطريق ذى الشعب الثلاثة . ومرت الأعوام فلم يبحث عن القاتل ولا بحثتم عنه . ووقفت الهولى على أسوار مدينتكم فانتظروا من يتصدى لها من خارجها .. وانتظرتم معهم فلم يتحرك أحد للقائها .. وعندما انتشر الوباء وسقطت المدينة تذكروا المقتول ونادوا : لابد من البحث عن القاتل ، والقاتل الذى قتله دون علمه أصبح بطلا . وتحركت النبوءة فطالبت بأن يقتل البطل ليحل محله بطل جديد يصبح قاتلا بعد حين . وتدور الدورة وتنظرون . وينقل اليكم الكهنة وحيا لم تنطق به الآلهة فتصدقون . ويرى الأعمى ما لا ترون فتسكتون وتسلمون وتدور الدورة يا أبناء طيبة فأصبح قاتلا والقاتل يصبح بطلا والبطل الجديد يصير رجسا تطاردونه وتنفونه ، وتظهر هولى جديدة تتطلب بطلا جديدا ..

الجوقة : لن ننسى أنك حللت اللغز وصرعتها يا أوديب ..

أوديب : وحللت اللغز ؟ لا تقولوا هذا يا أبنائى . لقد حللت لغزا واحدا تمخضت عنه ألغاز . وقتلت هولى واحدة فأفرخت الآلاف . لن تعود الهولى الى السور ولن تعترض الشجعان المغامرين . لن تطرح سؤالها على كل من يدخل طيبة أو يخرج منها . لقد صارت فيكم : نسجت عنكبوتها فى ضمائركم . ولهذا كنت أحلم عندما تخيلت أن طيبة صارت بستان الحب وحصن الأمن . كنت أحلم عندما تصورت أننى قتلت الهولى . لا لا . الآن أعترف بعجزى أعترف بفشلى . لم تمت الهولى بعد . ما زالت تغدر ، تفجر ، تكذب وتزور ، تتسلط ،

تتآمر وتدبر . وها أنذا أخرج من المدينة التي يفترسها الوباء وأعلم أنني لن ألقاها على السور ، لأنها ما زالت فيكم . ما زالت فيكم .

الجوقة : ما زالت فينا ؟

أوديب : يوم تموت الهولى يحيا الانسان .

الجوقة : وننتظر أوديبا آخر ؟

أوديب : بل يصبح كل منكم أوديب . يقتل « هولاه » فتبعث طيبة .. يملك قدره .. وأفقت على الصوت المهيب ينحدر كشلال هادر .. وسمعت خطواته الثقيلة ورائى ..

كريون : والقدر يدمره مثلك ؟ والأسطورة تحطمه وتحطم أسرته ؟ والنبوءة تصدق فيدنس وطنه .

أوديب : بل يحيا فيه الانسان ويسقط عرش الطغيان . هذا هو الثمن يا كريون .. هذا هو الثمن الذى ستدفعه ..

كريون : لأصبح بطلا مثلك ؟!

أوديب : والبطل يصبح طاغية .. والطاغية قاتلا . والقاتل مقتولا .

الجوقة : وتدور الدورة يا أوديب .

أوديب : بل تتوقف ليكون الانسان . ترجع طيبة طيبة ..

كريون : بعد أن تغادرها يا أوديب ..

أوديب : سأغادرها يا كريون .. سأغادرها يا أبناء طيبة . لقد دفعت الثمن وتحررت . فقأت عينى وأبصرت . حريتى لن يمسها أحد . عينى الثالثة لن تفقأها يد تمتد فى الظلام . هيا يا ابنتى .. تعالى يا حبيبتى ..

انتيجونا : أبى .. أبى ..

كريون : دعها يا أوديب .. انها فى رعايتى ..

أوديب : لن تأخذها منى . لن أحرم منها أبدا . تعالى يا ابنتى نبتعد عن هذه المدينة التى يهلكها الوباء . تعالى الى أرض أخرى لا ندنسها ولا تدنسنا . انى أراها تغرق فى الدم والنار والظلام . وأراك يا حبيبتى فى كهف يلطخه الدم والعار . فاتركيها الآن وتعالى لتدفنى أباك فى قبره الوحيد . فوق أرض وحيدة . وعندما تودعينه وتنثرين الماء على مثواه عودى يا ابنتى ، عودى لتحررى طيبة من الوباء والظلام . لتعلمى أبناءها أن يقتلوا الهولى فى داخلهم حتى يحيا الانسان .

الجوقة وكريون : انتظرى يا أنتيجون .. عودى يا أنتيجون ..

أوديب : لا تصدقيهم يا ابنتى . لا تسمعيهم يا حبيبتى .. آه يا صغيرتى المسكينة انى أراك تدفعين الثمن الذى دفعه أبوك . أراك تواجهين الطاغية وتتحدينه . تعلمين طيبة أن تكون طيبة ، تذكرينها بأوديب وتحكين لها قصة أوديب . هل ستسمعك يا أنتيجون ؟ هل ستتعلم من درس حياتك ومماتك ؟ هل تتذكر مأساتك ومأساتى ؟ أم ستدور الدورة أبدا ؟ ومتى تتوقف يا أنتيجون ؟ من يوقفها ؟ أنت ؟ أوديب آخر ؟ هل يصبح كل الناس بها أوديب ؟ أم يصبح كل الناس الهولى تقتل كل الناس ؟ لا تبكى يا صغيرتى . هات يدك . هاتها فى اليد التى فقأت عين أبيك . أبيك الذى حكموا عليه أن يكون أخاك وزوج أمك وابنها وقاتل أبيه . هاتها يا صغيرتى وقوديه على الطريق .

أنتيجونا (باكية) : الى أين يا أبى ؟

أوديب : تسألين الى أين ؟ ولماذا نسأل ونحن الآن أحرار ؟ تخافين المجهول ؟ ولماذا نخاف اذا كان علينا أن نواجهه ؟ وحدنا ؟ نعم وحدنا ياحبيبتى . حتى يدمروا الأسطورة أو تدمرهم فيتحرروا . حتى ينسجوا أسطورتهم ويغزلوا قدرهم بأنفسهم . حتى يهدموا طيبة الوباء والظلام والخراب ويبنوا طيبة الأخرى ـ لا تتلفتى وراءك يا حبيبتى . لا أحد ينتظرك ولا أحد يودعك . طيبة نبذتنا وتخلت عنا . لكنا لن نتخلى عنها . سنحملها فى قلوبنا ثم نعود اليها . وأعود معك حرا بعد أن أترك عظامى فى التراب . ذكرى حب لمدينتنا طيبة . ذكرى موت . هذا ما لن يأخذوه منى . لن يأخذوه أبدا . تعالى يا حبيبتى .. تعالى .. تعالى ..

أوديب : ويرتفع صوت خشن وراء ظهرنا :

تريزياس : خذ عصاى يا أوديب !

وأرد عليه وأنا أنفجر غضبا :

أوديب : عصاك عمياء مثلك .

ويضحك الملعون ويقول :

تريزياس : أتذكرت كلامى ؟!

أوديب : وأبصرت ما لا تبصره ..

تريزياس : خذها يا أوديب .. قد تحتاج اليها ..

أوديب : عينى الثالثة ستبصر لى . يد أنتيجونا تبصر لى . عصاك عمياء مثلك ..

أنتيجونا : خذها يا أبى ..

الجوقة : خذها يا أوديب .

تريزياس : خذها يا أديب لتذكرنا ..

أوديب : لا لن آخذها .. هيا يا ابنتى .. ضعى يدك فى يدى لنخرج من هذه المدينة .. لا يهم أن تذكرنا أو تنسانا .. لقد أرادت أن أخرج منها .. أرادت أن أتسول فى المدن الأخرى .. ولهذا تعطينى عصا أتوكأ عليها بعد أن أخذت عينى وحياتى وشبابى .. لا يا أبناء طيبة .. لن أتوكأ على عصا .. واذا كان خلاصك يا طيبة بخروجى وموتى فها أنا أغادرك لأموت خارج أسوارك ..

أنتيجونا : وسنعود يا أبى ؟ ..

أوديب : سنعود يا ابنتى .. عندما يقضى على الوباء ..

الجوقة : نعم يا ابنتى .. عندما نقضى على الوباء ..

أنتيجونا : (تسلمه يدها باكية) .
أبى .. أبى ..

أوديب : حبيبتى .. لا تتلفتى وراءك .. لا تبكى .. لا تبكى .. لاتبكى ..
(ينصرفان . يسمع وقع أقدامهما وبكاء أنتيجونا حتى بعد أن تسدل الستار ..)

(١٩٨٥)

هـذه البكائيات

في ليلة ممطرة باكية أكتب عن هذه البكائيات · أسأل نفسي أسئلة تحاول الاجابة عليها أن تكشف الدوافع التي دفعتني الى تدوينها أو تلقى الضوء على الغموض الذى يكتنفها :

١ ـ لم البكائيات فى وقت يدعونا كل شىء فيه لاطلاق الصرخات ؟ ان كل من يفكر اليوم أو يكتب لابد أن يصيبه اليأس وهو ينظر فى الهاوية التى تفصل الكلمة عن الفعل ، ولابد أن يتحسر على ضياع عمره فى تجميع حروف فى كلمات ، وكلمات فى جمل ، وجمل فى صفحات وصفحات لم تطعم جائعا ، ولم تحرك ساكنا ، ولم تنبه وعيا ، ولم تنقل حجرا من مكانه · وهو فى النهاية لا يستطيع أن يكتفى بحكمة سقراط وحواره ولا بمصباح « ديوجينيس » فى قلب النهار ، ولا بنبوءات زرقاء اليمامة ورؤاها ودموعها ، فعليه أن يدق نواقيس الخطر وأجراسه ، ويستخدم « ديناميت » نيتشه ومطرقته ·· عليه أن يقرع آذان أهله بكل الطبول والأبواق الممكنة : نحن متخلفون متخلفون · العــدو أمامكم والانقراض فيكم · تعلموا أن تفكروا بعقولكم لا بألسنتكم · غيروا ما بأنفسكم وواقعكم حتى يغير الله ما بكم · آمنوا بالعلم والمنهج والخبرة · أعطوا القوس لباريها والعيش لخبازه · اتحدوا ، اتحدوا اتحدوا · فالذئاب تتربص بكم فى كل ركن وعند كل منعطف ، وذئاب أشرس منها ترعى فى داخلكم · أمراضكم الثلاثة : الاستبداد والتسلط والطغيان لن يشفيكم منها الا أدوية ثلاثة : الحرية والحرية والحرية ·· وهو يستطيع أن يمضى فى هذه الصرخات حتى آخر أنفاسه · لكنه سيسأل نفسه فى النهاية : ماذا يغنى البكاء أو الصراخ ؟ ماذا يجدى القول أو الكتابة ؟ أليسا فى آخر المطاف كلاما فى كلام فى كلام ؟ أو ليس الأولى من ذلك أن يدعو للفعل ويحدد معالمه ويكون قدوة له ؟ ان الكتابة ـ أدبا كانت أو فلسفة ، دررا كانت أو خزعبلات ، همسات كانت أو صرخات ـ قد أصبحت عاجزة عن مقاومة الموت المستشرى فينا · وربما كان الطريق الباقى هو أن يعمل الانسان لا أن يكتب أو يتكلم ، فالفعل وحده هو الذى يمكن أن يبرر نفسه وسط الاختناق بالحسرة والندم والصمت ·

لكن هذا الكلام كله عن عجز الكلام والايمان بضرورة الفعل ما يزال يختنق بالبكاء · والذى يكتبه هو أبعد الناس عن الصراخ لأنه لا يميل

بطبعه لازعاج أحد أو لفت أنظار أحد · ولو قلت ان العبارات هى فى الحقيقة صور لعلاقات وعمليات وأفعال ، ولا يكون لها معنى حتى تشير الى علاقات وتترجم الى عمليات وتهدى لأفعال لقال نعم ، ولكن هذا لم يحدث فى السنوات الأخيرة من تاريخنا الا فى أندر الأحوال · أليس هذا كله مبررا لأن يبكى فى صمت ، وأن يضع ما يكتبه تحت عنوان البكائيات ؟

٢ ـ أتكون هذه البكائيات لونا جديدا من أدب الاعترافات وصورة مختلفة من صور السيرة الذاتية ؟

أما أنها جديدة أو مختلفة فهذا أمر أوثر أن أتركه للقراء والنقاد · كل ما أستطيع قوله هو أنها صور « مقنعة » فى أشكال متعددة ، شاعرية وروائية ودرامية غلب عليها طابع المناجاة وأسلوب الحوار الذى تديره الذات مع ذاتها · وربما أمكن أن يقال انها أشكال مفتوحة أو على طريق البحث عن شكل محدد ، ولهذا تتخفى وراء أقنعة تتكتم أكثر مما تفصح عنه ·

ان فكرة القناع أو صورته من أهم الأفكار والصور التى تشغل الأدب والنقد الحديث وتستحق البحث عن الدور الذى تقوم به فى أدبنا الجديد · ولقد كان من قدر الشاعر والكاتب العربى المعاصر انه يقوم بدور العراف والمتنبى ، والشاهد على العصر والبومة الحكيمة المنذرة بالأخطار (وكنت أنت بينهم عراف · وكنت فى مأدبة اللئام ، شاهد عصر ساده الظلام ـ البياتى فى قصيدته محنة أبى العلاء) وكان من قدره كذلك أن يحاول أن يكون « المنقذ » ـ كما عبرت فى كتاب بهذا العنوان عن أفلاطون ـ والصوت الهاتف فى البرية بحثا عن طريق النجاة الوحيد : أن ننقذ أنفسنا بأنفسنا ، ونغير وجه أرضنا وواقعنا وتاريخنا بارادتنا ، وننسج الثوب الذى يمكن أن يسترنا بأيدينا ، ونبعث مدن الغد من قبور الماضى والحاضر التى دفنا فيها بأمر الطغيان على اختلاف صوره وأقنعته التى كشف شعراؤنا المجددون عن زيفها · هل أقول ان أوديب وأوفيليا والمتعب من الحياة أقنعة تخفى وجها واحدا تغمره الدموع أم تكشف عنه ؟ هل كانت بديلا عاجزا عن السيرة الذاتية التى لجأ اليها الأدباء والمفكرون فى الشرق والغرب أم حيلة جديدة للامعان فى تعذيب الذات ؟ وحتى لو سلمنا بأن أى تعبير أدبى جدير بهذا الوصف ـ من الأساطير القديمة حتى أدب العبث واللا معقول وما بعده ـ قد لجأ بصورة أو بأخرى الى التحجب خلف القناع . فهل نجحت هذه الأقنعة فى التعبير أم لم تنجح ؟ وهل انطبقت عليها شروط القناع الأدبى أم كانت رموزا واستعارات ؟

ان البكاء يكشف عن جوهر الانسان ومعدنه أكثر مما يفعل الضحك أو أي شيء آخر • والانسان حين يبكي يغطي وجهه بيديه حتى لا ترى العيون ، دموعه أو تنفذ الى سره • والأقنعة التي استخدمتها ـ ان كانت ترقى الى هذا الوصف ـ قد حاولت أن تستر الدموع التي ذرفتها في لحظات المحنة والضعف وفي مواقف التحدى والمقاومة • لكن يبدو أنها عجزت عن ذلك فافتضح السر وكشف المحجوب •• أليس هذا وحده خليقا بالبكاء ؟ ألا تستحق هذه المحاولات أن تكون بكائيات ؟

٣ ـ أتكون هذه البكائيات تعبيرا عن اكتئاب مرض متأصل ؟ عن نمط من الشخصية عصابي أو فصامي أو سوداوى متشائم ؟ ألا تعد بذلك ذاتية غارقة في مستنقع الرومنطيقية الآسن الذى عفا عليه الزمن وحلقت فوقه نسـور الأدب والنقد والفن والفكر المعاصرة في احتقار وازدراء ؟ أما أنها رومنطيقية فلا أظن أنني أو أى أحد من جيلي يمكنه أن ينكر التهمة أو يزعم أن تكوينه النفسى قد تخلص تماما من لعنتها السحرية أو من سحرها الملعون (حتى العلميين والتقدميين في شرقنا العربي ـ صدقا أو ادعاءا ـ لن يمكنهم هذا !) وكيف يستطيع كاتب من مصر انحدر من سلالة « المعددة » والندابة وغار في أعماقه نواح العازف الأعمى على القيثار وأناشيد كتاب الموتى ـ كيف يستطيع أن ينكر أنه مكتئب من صلب مكتئبين وبطون مكتئبات ؟ والجيل الذى انتمى اليه وعاش على مدى ثلاثة عقود من حياته الواعية محروما من الحرية والأمل وتحقيق الذات الفردية والجماعية ـ هل كان جيلا من الآلهة حتى يحطم نير الحزن الذى عصب عينيه ويتخلص من طوق الاكتئاب الذى حاصر شبابه ورجولته وقدرا كبيرا من كهولته ؟

أما عن نفسى فقد وضعت كتابا تقارب صفحاته الألف عن ثورة الشعر الحديث كله على الرومنطيقية ، كما حاولت بجهودى المتواضعة في تعليم الفلسفة والكتابة عن الفلاسفة العقليين ـ مثل أرسطو وليبنتز وكانط الذين يستحيل أن تعلق بهم شبهة الرومنطيقية ! ـ حاولت أن أنتزع من نفسى شوكة الألم القديمة المتأصلة • ولكنني أعتـرف بأنني عجزت ، والنتيجة التي لا أحسد عليها انني أتهم بكتابة أدب تأملي أو فكرى وفلسفة عاطفية أو شاعرية ! ومع أن هذه ليست تهمة بالمعنى الدقيق لأن تاريخ الأدب يزخر بالأدباء الحكماء ، وتاريخ الفلسفة يمتلىء بالحكماء الشعراء (وأستغفر الله والحقيقة أن أتصور نفسى واحدا من هؤلاء أو أولئك !) فانني مع ذلك لا أتنصل منها ولا أفكر في التبرؤ من وزرها • نعم ان هذه البكائيات رومنطيقية والنفس الرومنطيقي يتردد فيها ويعزف على أوتار جريحة لا تخطئها أذن • لكنها ليست رومنطيقية الفردية المريضة

المستغرقة فى تعذيب الذات وأحلامها الكسيرة وآمالها الخائبة ، لانها تمد جسورا بين الفرد والجماعة ، وتبكى ، حين تبكى ذاتها ، ثقافة وحضارة ووطنا تراه يتمزق وينهار ، وتردد على أوتار أساها وحزنها لحنا بسيطا يؤكد مع ذلك أن الانهيار ليس قدرا غيبيا أعمى ولا حتمية تاريخية أو غير تاريخية ، وانما هو محنة تتحدى الارادة الفردية والجماعية وتحفزها الى قهرها وتخطيها · بهذا يجتمع فيها الحزن والصلابة ، ويتحد الأسى مع ارادة تجاوره ، وعقيدتى التى اقتنعت بها ودعمتها التجربة والتأمل أن الانسان هو الكائن الوحيد القادر على العلو على ذاته · وشد نفسه من المستنقع بنفسه · والتاريخ وفسلفته يعلماننا أن ما يصدق على الفرد يصدق على الجماعة . وما انهارت الحضارات البائدة بفعل قدر غامض أو لعنة مجهولة ، وانما انتحرت بيد أبنائها عندما أكلوا لحم بعضهم ، واستسلموا للفراغ والدعة والترف ومهادنة الأعداء ، وفشلوا فى ايجاد الاستجابات الخلاقة الممكنة للتحديات التى واجهتهم · وخنقوا روح الابداع والتحرر والتجدد بالتسلط والارهاب والاضطهاد (ابن خلدون وفيكو وتوينبى) واذا وجدنا أحد أفراد الجماعة قد غرق فى بحار الأسى ، فان غرقه يجب أن يكون آية ودرسا ، وأن يجدد العزم على الصمود والمقاومة ·

لكننى أعيش فى حضارة تجمع كل الآراء الشعبية والموضوعية على أنها حضارة مأزومة · واذا صورت لى الحساسية المتطرفة انها تحتضر وتلفظ آخر أنفاسها ، ألا يحق لى عندئذ أن أسمعها لحنا جنائزيا يزعجها من رقدتها ويثير فيها ارادة الميلاد والبدء من الصفر ؟ ألا تستحق هذه اللحظة ــ على حدود تاريخ يغيب وتاريخ آخر لم تبزغ شمسه ــ أن يكون لها مغنيها الباكى أو شاهدها الحزين أو بومتها المكتئبة التى تحدق فى ظلام الكارثة الزاحفة فتنعق وتحذر ؟ أليس هذا فى النهاية مبررا كافيا لترديد هذه البكائيات ؟

٤ ــ لم البكاء وما معنى رثاء الذات فى زمن العلم الذى يهيب بنا أن نكون علميين وأن نشارك فى حضارة العلم والمنهج بكل ما نستطيع ؟ ان ايمانى بالعلم لم يفتر لحظة من حياتى المنتجة الفاعلة ، وما زلت أشارك فيه على قدر جهدى · لكننى أجيب على السؤال فيما يخص الأدب فأقول اننى شعرت منذ أن بدأت الكتابة بأن الأدب كله فى النهاية مرثية طويلة يبكى فيها الانسان نفسه وسوء حظه واخفاق جهده وتعبه على الأرض · ولا شك أن النظرة الى الأدب الانسانى على أنه سجل للاخفاق المستمر الذى

يلحقه الواقع بكل آمال البشر نظـرة تنطوى على قدر كبير من التعميم الخاطىء والخطر ، ناهيك عن تشاؤمها القاتم وحسها الفاجع ، فلا شك أيضا أن من الممكن النظر الى الأدب على أنه أنشودة تمجيد للحياة وسعى الى الخلود المتاح للبشر عن طريق الفن ، ودفاع متجدد الصور والأساليب عن انسانية الانسان ٠ وقد يمكن أن تنظر اليه نظرات أخرى لا حصر لها ، حسب ما نفهمه من طبيعة الأدب وبنيته ووظيفته وأدواته وعلاقاته بمبدعيه ومتلقيه ومناهج بحثه ونقده وتذوقه ٠ لكننى هنا أسجل تجربتى مع الأدب والكتابة ٠ وهى تجربة أملتها طبيعتى التى جعلت منها بكاء متصلا على النفس (الفردية والجماعية والكلية) أعلم أن هذا البكاء ينطوى على سخرية كامنة تقوم على تصور الأدب بوصفه حكاية ساخرة قوامها المفارقة ٠ وكلما ارتفع نواحها رن فى الأذن صوت سخريتها واستهزائها (ولهذا ليس عجيبا أن يكون أقدر الأدباء على استدرار دموعنا هم أقدرهم على استثارة ضحكاتنا ، وأن يشهد التاريخ بأن أعظم الضاحكين المضحكين، مثل أرسطوفان وموليير ، كانوا من أعظم البشر حظا من الألم والتعاسة والشقاء !) ولقد عشت ما عشت بعيدا عن أضواء المسرح ، زاهدا فيها بطبعى . على الرغم من جنونى بالمسرح نفسه وحلمى بالتفرغ للكتابة له ٠

عشت ــ كما وصفتنى دعابات الأصدقاء ــ حياة عنكبوت أو شرنقة تعمل فى الظل والصمت والسكينة ٠ وكنت ــ كما وصفت نفسى ــ أشبه بيونس فى بطن الحوت ٠ ولم يكن من قبيل المصادفة أن أكتب تحت هذا العنوان قصة قصيرة لا أعدها خير قصصى فتترجم الى عدة لغات ويتكرم أحد المستشرقين بوضع بحث مطول عنها ! نعم ! عشت سنوات طويلة من عمرى وكل ما أعرفه أنى أموت ، مضغة تائهة فى جوف حوت (خليل حاوى) فى عينى حزن مزمن ، على وجهى شيخوخة مبكرة ، وفى عقلى وقلبى حكمة شرقية مميتة ٠٠ سنوات طويلة أعانى الحرمان والفقر والوحدة وأحاول أن أفلسفها وأجرب مصرع الأمل والحب وشوق الأنا الى الأنت أمام الأبواب والنوافذ الموصدة وألوذ بجزيرة النقاء والصفاء وسط الضجيج والوحل والضوضاء . وأعانق الترفع والكبرياء واستنقذهما من مخالب الشراسة والنذالة والغدر والغلظة كمن يشد شعره لينتشل جسده ونفسه من المستنقع . وأعاين مصير الطيبة المطلقة وهى تدان وتتهم بأنها ضعف وذل وغفلة وهوان . وأسهر آلاف الليالى كما سهر فاوست فى حجرة دروسه لأحصد المرارة والتجاهل والجحود ، وأدرك فى النهاية صدق ما قاله له

الشيطان : كئيبة مقفرة يا صديقى هى كل النظريات ، أما شجرة الحياة الذهبية فتبقى خضراء (البيتان ٢٠٣٨ ــ ٢٠٣٩) ٠ وبينما المطلق يطبق قبضته على الرقاب ، ويدق طبوله ويحشد جلاديه ودجاليه فيتحول التدين الى التعصب ، والاشتراكية الى الارهاب ، والحرية الى الفهلوة واللصوصية، والثورة الى الجريمة ، والعلم الى التجارة والارتزاق ، والفن الى الفجاجة والابتذال والنفاق ــ بينما المطلق ــ الطاغوت يجوس خلال الديار كتمثال مارد أجوف على قدمين من طين ، يتبجح بدعاويه ويبرر هزائمه ويفرخ مسوخ التسلط فى كل مكان ، أجدنى أكتب وأعلم وأعمل فى سبيل حياة بسيطة سوية ، حياة حرة ومعقولة وممكنة ، تصان فيها أوليات الانسانية فلا تقمع ولا تهدر ولا تهان فى سبيل مطلق مستحيل ٠ وتمر السنوات وتسقط قيم تربى عليها جيلى ، وتبتلى بالاستبداد ــ وهو شر ما يبتلى به الانسان فى كل مكان وزمان ــ فتنقلب الى الضد والنقيض ، ويتقمص الخضر ثوب، الجلاد وتنهش الكلاب لحم الشرفاء والطيبين ، وتخلو الساحة «للا قيم» التى وضعت نفسها فى موضع القيم المطلقة : للانتهازية والشطارة والتضخم والنجومية والكذب والغدر والادعاء وسائر ما تفرخه حية الأنا المتسلطة التى أنكرت وجود الآخر وألغت حريته وسعادته وكرامته (ربى ! كيف ترعرع فى وادينا الطيب ، هذا العدد من السفلة والأوغاد ــ صلاح عبد الصبور فى ليلى والمجنون) وأيا كان تصورك لهذا الآخر على أنه الوطن أو الجماعة أو المصير المشترك أو رفيق الحياة والموت فقد التهمته الحية الطاغية المتسلطة وراحت تصفر وتطير فى كل الأجواء الخالية (لدغنى زملاء كنت أدخرهم للأيام الباقية من العمر ، وعضنى تلاميذ وأبناء أعطيتهم تعب العمر ٠ كلانا ــ لو علموا ــ زائل ، وسيبقى وطن صيرناه بأيدينا غابة غدر وجهنم قهر) ٠ أمام هذا كله ــ هل تملك الذات الوحيدة المدحورة الا أن ترثى نفسها ؟ وهل يكون رثاء النفس الا رثاء لكل النفوس الطيبة المحبطة فى مكانى وزمانى وعلى مر الأجيال ؟ واذا سلمنا بأن أدبنا الحديث فى أصدق أعماله لم يتقن سوى مرثية الوطن والبكاء عليه (محمود درويش) فان رثاء النفس ينطق أيضا بأن الوطن يتطلب شيئا آخر غير الرثاء والبكاء ، شيئا يمكن أن نسميه الفعل الحر والعمل المبدع للمجموع ٠ عندئذ تتحول دموع الشعراء والأدباء الى نواقيس خطر ، ويصبح البكاء ندا للارادة الفاعلة ٠ وعندئذ نغفر لواحد منا أن يصبح « بومة مينرفا » التى تطلق حكمتها الحزينة وسط الخرائب لعل نعيقها يحرك وعلى العاملين فيبدأوا البناء الجديد فوق الأطلال ٠٠

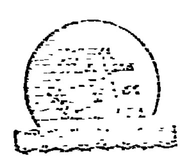
لكن الوعى لم ينتبه ، والبناء لم يبدأ ، والصعود الى الهاوية مستمر، والخلط والتخبط بلغا حد العماء والتصادم فى الظلمات ٠ والغربان المنذرة

بالكوارث القادمة تحوم فى الأفق ، والكوارث نفسها تزحف وتزحف وتدق الأبواب • أليس هذا كله سببا كافيا للبكاء ؟!

٥ ـ وأخيرا •• هل تبلغ هذه البكائيات دعوة ؟ هل ترسل رسالة ؟ هل تنطوى على نبوءة ؟ هل تقدم وعدا ؟ •• لا أستطيع أن أدعى شيئا من هذا • فهى محاولات وتجارب فنية قبل كل شىء • قد تجد فى « الدموع على حائط مبكاى » خيبة أمل مرة فى النفس ، حسرة على عمر ضاع أكثره فى الترجمة عن الآخرين أو التعريف بهم • شهادة صراع أليم عانيته وتمزقت منه بين العلم والابداع (لعلى أكون قد بالغت فيه حيث لا ضرورة للتناقض بينهما) وقد تلمس في سطور المناجاة الشاعرية لنفس تبحث عمن تتحدث اليه (ولا أقول المناجاة الشعرية لأننى لا أدعى القدرة على قول الشعر ولن أدعيها ، ولأنها فاجأتنى فى ثلاث ليال « يمنية » عشتها فى صنعاء ولا أظن أنها ستتكرر أبدا ••) أقول قد تلمس فيها نقدا للذات ومراجعة لحياتها وحصادها ومحاولة لاقناعها بالاستمرار فى الوجود والاصرار على الخلق والأمل فى الفجر المقبل • وربما تحس فى متاهة الكابوس (الذى أشهد الله والحقيقة أننى رأيته بحذافيره فى نومى ثم دونته بعد ذلك فى تسعة أيام وليال لاهثة محمومة) مدى العذاب الذى قاسيته طوال عشرين عاما من تحول عشقى للفلسفة الى مهنة أؤجر عليها وآكل منها خبزى ، كما تشعر بالأحلام المحبطة والمشروعات المختلفة والآمال المهزومة ، « ولحظات المطر » التى مرت خيولها مسرعة ولم أتمكن من الامساك بخصلات شعرها • وربما تفزعك البكائية الى صلاح عبد الصبور بجوها الأسود القاتم ، وتملؤك سخطا على براعتنا فى اغتيال المواهب وقدرتنا التى لا تبارى على قتل بعضنا لبعضنا • ولعلها أيضا تخيفك من « رعب أكبر من هذا سوف يجىء » تنبأ به شاعر وانسان عظيم أرهقناه وعذبناه حتى الموت وملأنا أيامه كمدا وحزنا • وربما نستشف من البكاء بين يدى أوفيليا هول الظلم الواقع على البرىء النقى عندما يسقط فى المستنقع « العربى » فيكون موته الارادى البطىء هو وسيلته الوحيدة للاحتجاج عليه والخلاص منه • وأخيرا قد يراودك الاحساس وأنت تتابع دموع أوديب بأنك تراقب « طيبة » أخرى وهى تنهار وتسقط ، وبيد أبنائها تتحول الى غابة يحكمها قانون الغدر ، وتظل تضيق الخناق على ابنها الذى أنقذها ذات يوم حتى لا يبقى أمامه

الا أن يجتث شجرة عمره بيديه ، ويأخذ طفلته معه ويرحل ٠٠٠ ربما تحس هذا كله وتشعر معــه بموقف أساسى ثابت لا يتغير هــو رفض الاستبداد والتسلط وتأكيد الحرية برغم كل شيء والكفر بأى قول أو فعل لا يصب فيها ويدافع عنها ويدعمها ٠ ولكن هذه كلها شروح عقيمة ودعاوى باطلة ٠ فالبكائيات كما قلت تجارب فنية ٠ والتجربة لا تدعى شيئا ولا تدعو الى شيء ٠ انها تريد أن تكون وحسب ، تتمنى أن توحى وتحرك وتثير ، لا تقدم أفكارا أو معانى مجردة بل تحمل اشارات وأمثلة وحكايات ومواقف وصورا وبناءات لغوية تكفى نفسها بنفسها وتسمح لمن شاء أن يقرأها كما يشاء ٠ لكنها فى النهاية جزء من « وصية » انسان خاب أمله وأمل جيله ، يضعها بين يدى جيل يحبو الآن على الدرب ، أو أجيال لم تولد بعد ، يضعها بين يديها وهو يقول : هــذا هو كل ما استطعت ٠ ربما يكون شوكا ما حصدت ٠ لكننى تعبت وأخلصت ٠ واذا استطعتم أن تكوا أقوى منا وأقدر على تغيير الواقع فتذكروا انه كان قاسيا علينا ٠ وان ذكرتمونا يوما فسامحونا ٠٠

(١٩٨٥)



الفهرس



مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٥٨٣٩ / ١٩٨٧

ISBN – ٩٧٧ – ٠١ – ١٥٠٢ – ٩





للبكائية فى آداب الغرب والشرق تاريخ طويل تطورت خلاله فى شكلها ومضمونها ، واتسعت لأغراض وموضوعات متنوعه ، ولكنها بقيت تجربه ذاتية تفيض بالأسى والشكوى والحنين ، ورثاء النفس والزمن والحب ، وذلك منذ أن بدأت مع الشعر الاغريقى فى القرن السابع قبل الميلاد حتى بلغت ذروتها عند شعراءالرومانتيكية ثم عند «رلكه» وكثيرين غيره فى القرن العشرين ، ومنذ أن بكى عبد يغوث الحارثى نفسه فى الشعر الجاهلى ومالك بن الريب التميمى فى الشعر الأموى حتى المازنى وبعض المجددين فى شعرنا الحديث .

وهذه البكائيات ليست مجرد رثاء للنفس والعصر والجيل ولا هى مجرد نوع من السيرة الذاتيه التى تظهر وتختفى وراء صور وأقنعة مختلفة الأشكال ، ولكنها كما يقول عنوانها- ست دمعات على نفس عربية ، وصرخات ضمير يشهد على المحنة العربية ويعانيها ، وأجراس خطر يدقها الكاتب للتحذير من الكارثة ، واستنهاض الإرادة الفردية والجماعية لتدارك القيم التى تسقط وتموت ، والحضارة التى تتدهور وتنتحر بيد أبنائها ، لعل هذه الإرادة أن تبدأ من جديد وتبدع الفجر الجديد . . .

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

٢٥٠ قرشا